ياسين رفاعية

أسرار النرجس

رواية



ياسين رفاعية

أسرار النرجس

رواية



دار الخيال

أسرار النرجس

ياسين رفاعية

دار الخيال: للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت لبنان ص. ب. ٥٢٣٥-١٣ شوران
هاتف ـ فاكس ٠١١٠ ٧٤
الطبعة الأولى ١٩٩٩

لوحة الغلاف للفنان نبيل أبو حمد ـ لندن

يا عـازل العـاشـقين دَعْ فـئـةً

أضلّهـا الله كـيف ترشـدها

بِئْسَ الليالي سَهِدْتُ من طربٍ

شـوقاً إلى من يَبيتُ يرقُدها

أحـيـيتُـها والدّموع تُنجدني

شـؤونهـا والظلام يُنجِدُها

(المتنبي)

«لولا التكتّم والسريّة، لما كان هناك أدب أو فنّ اباحي».

د. هـ. لورنس

ـ «أنتَ تحب أباك أكثر منّي».

لا تعرف أمي أيّ سرّ رهيب أحمله في أعماقي منذ كنت طفلاً. ومنذ بدأت أعي ماذا يدور حولي.

أسرار أحببتها وأسرار كرهتها، خبأتها بين أوراق وردة النرجس التي تنقّلت من صفحة إلى صفحة في ديوان شعر. من بينها سرّ أصبح جزءاً من الصفحة التي تحتويه، إذ كان وجهها الطفولي صلاتي كل يوم، أستحلفها أن تبقى لي. مرّة واحدة أدركت ماذا أعني لها، عندما قدّمت لي وردة نرجس بيضاء. وقالت: «هذه أنا، احفظ هذا السرّ. كنّا في ربيعنا الجميل، بيني وبينها سنة أو أكثر، في حيّ واحد، ومدرسة واحدة. وكبرنا، وتباعدنا، وتقاربنا، تعانقنا مراراً. والتحمنا مراراً، هذا السر أخفيته، خبأته في ذاك الكتاب الذي كان أوّل ديوان شعر أشتريه، كنت أقلّب صفحاته بين الحين والآخر، فأجد الأسرار تتراكم، وتعلّمت من خلالها أن أكون كتوماً، كل سرّ يشيع بين اثنين، يُصبح سيرة تتناقلها الألسن، تزيد عليها، وتبهرها كما تشاء. بقيت خائفاً على هذا الكتاب عمراً مديداً، وكلّما فتحت صفحاته، أجد وردة النرجس طازجة وندية، كأنّني وضعتها بين صفحات الكتاب قبل دقائق، صرت أشكّ أنّ فيها سحراً ما. أهو قبلتها

قبل أن تهدينيها. أهي أناملها الطريّة التي إنعدت منها. أم عذوبة كلماتها منحتها هذا الخلود الجميل؟!

قالت لي: هذي أنا. احفظ أسرارها، لا تتعجّل، تأمّل. الحياة كلّها تأمّلات، إنّها حبّ وكره، ليل ونهار، غنى وفقر، لا تأخذ من الشيء كلّ شيء. هذه النرجسة ستعلّمك، ولا تعلّمك، تكشف ولا تكشف. هي أيضاً سرٌّ من الخالق، لا يستطيع العقل البشري، بكل ما اخترع، واكتشف، أن يصنع مثلها مهما تعلّم وجرّب، وكلّنا في حضرة الخالق سواء إلا من خفّت موازينه.

كلّما التقاها كانت تتحدّث إليه كأنّها أمّ تنصح ابنها. هل كانت من عالم آخر؟ هل كانت الحلم الذي لا يُمسَك بيد؟ من عالم لم يدرك كنهه؟ هل تمثّلت بملاك آخر؟ هي التي منحت القلب، وظلّت في أعماقه كالدم والأعصاب، غابت ولم تغب، حضرت ولم تحضر، كانت موجودة دائماً، ولم تكن موجودة، حتى بات يشعر بأنّه يعيش فيها الحلم ولا يعيش فيها الواقع. لكن، كلّما فتح الكتاب على وردة النرجس فاح عطرها، عطر غريب يعميه ويُغيّبه ويخدّره. فإذا هو في عالم آخر، مرسوم أمامه كالشاشة السينمائية بألوانه المختلفة، بنعيمه وجحيمه، بورده وشوكه، إنّه السحر ولا شك. ما من مرّة فتح عليها الكتاب إلاّ وجدها منعشة، زكيّة الرائحة. كأنّها غادرت غصنها للتوّ. ومرّة أدهشته، فتح الكتاب فوجدها قد فاضت بدموعها. عند ذلك أدرك أنّ صاحبتها ذهبت وليمة للنمل، اتسع قلبها حتى الاختناق، فغابت عن العين ولم تغب عن الفؤاد، وكلّما أتيح له السفر إلى مطارح الطفولة، يزور ذلك القبر الرخامي الصغير، ينحني عليه وقد استحضر ظلّها الجميل ينهض من تحت التراب، فيخيّل إليه أن النمل ضلّ طريقه، أو أن جسدها ليس من لحم ودم. وسرعان ما يدرك، وهو يحاول أن يضم هذا الخيال الشفّاف إلى صدره أنّه ما كان يضم إلاّ الفراغ، ينحني ثانية ويقبّل رخام القبر، ثمّ يقترب من شجرة الصفصاف التي زرعها ذات

يوم غصناً رقيقاً إلى جانب القبر، والذي اعترض على زرعه حفّار القبور الصنميّ الوجه قائلاً:

ـ ماذا تفعل يا ولد، تزرع عصاً مورقة ستذبل بعد حين؟!

فيتوسّل إليه:

ـ أرجوك يا عم، لا تنزعها من مكانها.

فيدمدم حفّار القبور:

ـ كما تريد يا ولد. لكنّك لن تراها تنمو أبداً. سيصبح هذا الغصن خشبة يابسة.

لكنّ الصفصافة نمت وضربت جذورها عمق الأرض. مات الحفّار اليابس الوجه. وخلفه إبنه في الاهتمام بأمور الأموات... مهنة عجيبة يتوارثها الأبناء عن الآباء...

قبل أن يودّع المقبرة يتذكّر كلماتها، كانت تقول كلاماً أكبر منها وهو يتأمّل شجرة الصفصاف التي تخيّم بأغصانها على القبر وما يحيط به، يتصوّر كأنّها كانت متقمّصة روح إنسانة أكبر منها. كانت تقول: الحياة تتوالد دون توقّف، نولد ونكبر ونشيخ ثمّ نموت، موت لا بد منه. حتى الحجر يموت. من قال ذلك؟ الحجر جزء من الأرض، لا تموت الأرض، عمرها ملايين السنين، ونحن نمل ندبّ فيها. نمل أسود وأحمر، يأكل كل شيء، هو صورة عنا، كلّنا نأكل بعضنا بعضاً، بصور وأساليب مختلفة. النملة حشرة صغيرة ونحن حشرات بقياسات وأوزان مختلفة، النملة مخلوق ضئيل، إذا دخلت أذن فيل أزعجته وأفقدته توازنه. نحن نمل ندبّ فوق الأرض، عيوننا ألذّ طعام للنمل، عيوننا التي رأينا بها الدنيا. رأينا بها الوجوه الجميلة التي عشقناها. رأينا فيها الشر والخير، وفيها التقطنا الذكريات واختزنّا الماضي. ورأينا الناس يقتلون بعضهم بعضاً، الأثرياء يحرقون لفافاتهم بأوراق النقود. ورأينا أيدي معروقة تمتدّ لعابري السبيل تسأل رغيف خبز... أهو هذا النمل الذي سيأكل كل هذا؟ ما أحقر الحياة

التي نتمسّك بها. نحن ضحيّة هذا المخلوق الصغير، إنّه أكثر من أي مخلوق آخر، قادر على إفنائنا.

يتذكّر: إلى أي حدّ هذه الحياة المملوءة بفيضاناتها ترضخ لفلسفة النمل الضارب في أعماق نفوسنا وفي أعماق الأرض؟ يقهرنا فوق قهر الموت، ما أن يهيلوا التراب علينا حتى يشرع في عمله المذهل بشراهة أين منها شراهة الجسد عندما يستلقي فوق جسد آخر.

ينسحب من المقبرة تاركاً عندها طفولته الجميلة، التي تتألّق بين الحين والحين في الذاكرة، فيتمنّى لو لم يغادرها أبداً. هي الشوارع الآن تزداد ازدحاماً، مدينة مثل كلّ المدن هي دمشق، مثل بيروت، مثل القاهرة وبغداد، مثل كل المدن التي عبرها، نمل من البشر، نمل من السيارات والعربات والحمير والخيول. نوافذ مغلقة على أسرارها، غرف مضاءة بقلوب أجسادها المتلاحمة. يد تتوسّد يداً، وجسد يغمر جسداً.

- «أنت تحبّ أباك أكثر مني»؟!

تتلاصق البيوت الطينيّة في أحياء دمشق القديمة بعضها بجانب بعض. في عناق عجيب. يستطيع المرء أن يمشي على سطوح هذه المنازل حتى نهاية المدينة القديمة، يقول: يا الله... فتختبىء النساء في مخادعهن، أو يرمين الأغطية البيضاء على رؤوسهن. وإذا ما دعت واحدة الأخرى إلى تناول فنجان قهوة، عبرت السطح إلى السطح المجاور دون أدنى صعوبة، عوضاً عن دخول البيوت من أبوابها. غالباً ما تدور أحاديث بين نسوة الحيّ عبر هذه السطوح ليسمعه الأقرب والأبعد دون أيّ حرج. وتظلّ هذه البيوت كأنّها بيت واحد لعدد من الأسر، تتواصل دون توقّف. وتتبادل الأطعمة، تستدين هذه من تلك خبزها، وزيتونها وزيتها، وأحياناً بعض النقود. دون أيّ منّة، أو أيّ تردّد في العطاء، وأحياناً يشدو صوت مغن في بيت، فتُنصتُ البيوت الأخرى لهذا الشجن الحزين. دائماً يكون الغناءَ حزيناً، إنّه فشّة خلق لهؤلاء الفقراء الذين يتعايشون مع واقعهم برضاء تام. بعيداً عن

الخديعة واللصوصيّة والنفاق لأن مثواهم الجنّة، يتردّد هذا الغناء بأصوات نقيّة وجميلة، فتسمع الآه من هذه النافذة أو تلك.

«لما كنّا أطفالاً، كنّا نتلصّص في الليالي الصيفيّة المقمرة على الشبابيك المفتوحة على مصاريعها. فنرى القبلات المحمومة ونسمع التأوهات ونضحك. وعندما كبرنا، خجلنا من أنفسنا. وندمنا على ما اقترفته عيوننا. فالجارة الجميلة أخت لنا، نحميها من طيش الطائشين. وغلاظة المراهقين، كثيراً ما كنا نخوض المعارك حفاظاً على العرض من أن يتطاول عليه أحد من شبّان الأحياء المجاورة»

بيوت منها ما يشبه القصور. ومنها ما هو وسط. وآخر ما دون الوسط، بيوت فقيرة. تقيم فيها عدّة أسر من الأقارب. الأب وزوجته وأولاده. العم والعمة والأخوال والخالات وأولادهم جميعاً... تتكدّس كل عائلة في غرفة واحدة. رؤوساً لأقدام وأقداماً لرؤوس. كل هذا الرهط المتنوّع يعرف بعضه بعضاً. يحلّ الكبير مشاكل الصغير. ويلجأ المحتاج إلى من يسد حاجته بكل أريحية وكرم. حياة متكاتفة. متضامنة لا مثيل لها عند الشعوب الأخرى. واحد من هذه البيوت مؤلف من أرض سماوية واسعة مكشوفة دون سقف. تتوسّطها بركة ماء يتدفّق من مكان لم يكتشف سرّه، ولم يعرف مصدره: «هو بيتنا أباً عن جد، وجدّتي لأبي تزوّجت فيه ثلاثة رجال في فترات متقاربة. أوّلهم سافر إلى حرب «السفر برلك» ولم يعد. والاثنان الآخران ماتا في فترتين متعاقبتين، جدّي لأبي قتل في الثورة، وأنجبت من الثلاثة أولاداً وأحفاداً صاروا رجالاً ونساء وآباء وأمّهات. اتسع هذا البيت بغرفه العديدة وبطبقاته الثلاث لكل أفراد هذه القبيلة، ثمّ توزّعت في بيوت عدّة، وكنت دائماً المحظوظ الوحيد، لأنّ أبي الأكبر سناً، وبما له من سلطة على الجميع، اختار لي غرفة صغيرة تقع في منتصف الدرج إلى الطابق الثاني من البيت، لا تتسع إلا لفرشة واحدة وخزانة ملابس صغيرة ومنضدة أراجع عليها دروس المدرسة وأكتب فوقها وظائفي

وأتناول عليها طعامي. أمّا غرفة جدّتي. فكانت غرفة علويّة نسمّيها «الطيارة» لأنّها بنيت في جانب من سطح الطبقة الثالثة، تصعد إليها جدّتي بواسطة سلّم خشبي صغير. وعلى الرغم من أنّها بلغت التسعين من العمر. فقد كانت تصعد إلى «طيارتها» بخفّة بنت العشرين. وكانت تشاركها في غرفتها هذه أصغر عماتي نهى ذات الصوت الشجيّ والتي تتقن العزف على العود، أما عمّتي أم وحيد فقد أعطيت غرفتين، واحدة لها ولزوجها. والثانية لابنها وحيد واخته المعاقة التي تنصرف إلى عالمها الخاص، وتخاطب باستمرار شيئاً ما خفياً، تدّعي أمها أنها تخاطب الملائكة التي تزورها وتلعب معها. أما كبرى عماتي أم جميل فقد أقامت في هذا البيت منذ ولادتها وكبرت وتزوّجت وأنجبت فيه، وعندما تحسّنت الأحوال المادية للزوج، اشترى منزلاً في حي القيمرية انتقلت إليه أسرتها المؤلّفة من شاب وفتاتين للإقامة به. ومنذ انتقالها إلى منزلها الجديد، لم تكفّ يوماً عن زيارتنا: «ولدتُ في هذا البيت وله في قلبي ذكريات وذكريات». كانت سمينة جداً، وعندما تجيء إلى البيت لا تدخل أي غرفة فيه، بل تجلس على الدرج وهي تلهث. وأوّل من تدعوه إليها هو أنا. فتجلسني في حضنها وتقبّلني وهي تردّد: «تقبرني شو حلو». كنت أحبّها أكثر من كل أقاربي. لكن صغرى عماتي نهى كانت أقرب إليّ من الجميع، لأنّها غالباً ما كانت تروي لي حكايات، أو تغنّي لي أغنياتها الجميلة. فأنام في حضنها، أمّا عندما تكون مشغولة في أمور ما فأنام في غرفتي التي لا يزاحمني فيها أحد إلا لمياء، عندما تزورنا، وهي ابنة عمّتي أم جميل، فتنام إلى جانبي تضاحكني وتروي لي النكات الجميلة. وهي أحياناً تجيء إلى بيت خالها حردانة، وتنام عندنا أياماً وأسابيع وفي غرفتي بالذات، بسبب شجارها المستمر مع اختها الصغرى، ولا تمانع أمّها في ذلك خلاصاً من المشاكل اليومية التي بسببها يعلو صراخ لمياء وأختها إلى حدّ إزعاج الجيران والأب المتعب القلب.

بيت يتّسع للجميع . كان أبي يقول : «بيت الضيق بيسع ألف صديق» وهكذا كان هذا البيت يعجّ بالأهل والأقارب والجيران دون توقّف، وعلى مدار الساعة. ولا تنزل ركوة القهوة عن بابور الكاز . ورائحة الهيل تعبق في باحته على خرير الماء الذي يتدفّق من تلك النافورة الدقيقة الصنع . والتي تفرش رذاذها أيام الصيف الحارة، فتعطي الوجوه والخدود نعمة الماء.

في سنوات التفتّح، كنت أسمع إطراء الجارات لجمال أمي . ذات الوجه المتورّد. والعيون الواسعة، والشعر الفاحم الطويل المنسفح تارة إلى أسفل ظهرها، وأحياناً في ضفيرة سميكة تجدلها بين الحين والآخر . كنت أشعر أن نساء الحي الأخريات يغرن منها، حتى إنّ جدّتي ذات يوم، وضعت على جيدها خرزة زرقاء، وربطت في حمّالة ثدييها حجاباً كتبه لها الشيخ أبو اليسر حفظاً لها من إغراءات الشياطين ومن إصابة العين. إلا أنني لم أسمع أبي يوماً يقول لها كلمة غزل أو يطري جمالها . كانت دائماً عندما يحضر تجلس لخدمته. وعند جلوسه في صدر الإيوان، تُحضر طشتاً من الماء الساخن، ثمّ تخلع له نعليه وجوربيه. فيضع قدميه في الطشت الساخن وتُشرع أمي في تدليكهما بيديها بهدوء وطيبة خاطر، فلا يردّد أبي إلا عبارة: «الله يرضى عليك يا بنت الحلال» ...

ذات يوم، وأنا صاعد إلى السطح لأجلب كرتي المطاطية التي خبّأتها قرب مدخنة المدفأة، لمحت أمي وكأنّها ترسل قبلة من فمها على رؤوس أناملها في اتجاه سطح آخر أو نافذة أو مكان ما ... لمن ... ؟ لست أدري . وغابت تلك الصورة عن ذاكرتي تماماً ... ولكن فجأة عندما فتحت الكتاب على وردة النرجس، انفتحت كوة في ذاكرتي على ذلك المشهد. ترى ... لمن كانت تلك القبلة؟ ما معناها؟ أيمكن لامرأة مثل أمي أن تفعل شيئاً من هذا القبيل ... قبلة في الهواء! لا بد أن هناك من تلقّاها؟ من هو؟ امرأة أم رجل؟ ولم أجرؤ على السؤال.

كم كنت أشتاق لصاحبة وردة النرجس، كأنّها حاضرة دائماً، كأنني ألمحها في الوجوه التي أعرفها والتي لا أعرفها. أو كأنّها حلم يعشّش في

الذاكرة. وكأنّها ما كانت ولا ماتت ولا عاشت سنواتها الثلاث عشرة أتراه سرّ آخر؟

لم أتجاوز بعد الرابعة عشرة من عمري. ولا أعرف من طفولتي سوى ذاك الغياب المفاجىء دون تفاصيل، ثمّ قُبل أمي وعماتي وكل زوار البيت. وحيد أبوي، مدلّل، كنت أهوى نهود اللواتي يغمرنني. وفي ظنّي أنّها كرات محشوة بالقطن ومخبأة في صدورهن. فأسمع تلك العبارة التي ما كنت أحبّها أبداً: «ملعون... شيطان... ما فئست البيضة عنه بعد»[1].

وعندما كانت أمي تقلي البيض لنا في الصباح أقول لها هل هذا هو البيض الذي يتحدّثون عنه؟ فتضحك، وتمسك بي من أسفل بطني قائلة: «تقبرني... هون» ثمّ ترفع راحتيها إلى السماء مناجية ربّها: «أرجيني ولاد ولادو يا رب...».

شجار جديد بين لمياء وأختها سميرة. فتلجأ إلى بيت خالها. تجيء باكية. تقبّل يد خالها: خالو ما عدت اتحمّل. الكل بهينوني. فيطيّب أبو نبيل خاطرها. ويهدىء من بكائها: تعالي خالو. خلّيك عنّا بالبيت، يلا روحي على أوضة نبيل. تصعد إلى غرفة نبيل وقد مسحت دموعها. وبدت فرحة من النجاة من جو بيت أبيها المضطرب باستمرار.

نبيل معجب بأبيه: «هذا الرجل الشجاع الذي أحبّه لسببين. إنّه أبي، وهو مع جدّي من رجالات الثورة السورية التي كانت لهما فيها مواقف وبطولات، وما زالت إحدى الرصاصات مغروزةفي عظم فخذ أبي، فإذا مشى بدت مشيته غير سليمة». يردّد نبيل: «أتمنّى أن أصبح مثله. أعكف شاربي إلى أعلى، وأكحل عيني بالكحل العربي، وأتمنطق خنجراً أو بربلّو طاحون»[2].

---

(١) أي لم يبلغ بعد.

(٢) فرد بربلو: مسدس قديم.

يسأل نبيل أباه ضاحكاً: «لماذا هذا الكحل حول عينيك يا أبي؟»

يضحك أبو نبيل: «حتى تكون الهيبة أكبر يا ولد».

فعلاً كانت القبيلة كلّها تهابه، من الأعمام إلى الأخوال، ناهيك عن النساء والأولاد، وبنفس المهابة التي يواجهه بها أهل الحي.

«كانت جدّتي امرأة ولوداً». يقول نبيل: «ويقال أنّها كانت جميلة جداً في صباها، هل كانت شرهة إلى هذا الحد حتى أنجبت كل هؤلاء الأولاد؟ كانت إذا حملتني وأنا طفل بين يديها داعبتني بين ساقي وهي تضحك قائلة: تقبرني هالزبرة».

كانت وحيدة أبويها بين خمسة رجال. يصفونها في الحي بأخت الرجال، إذا مشت تحت ملاءتها في حي العقيبة ترنّم الرجال بوقع حذائها ذي الكعب العالي. وكان يقال عنها إنها تمشي رقصاً، فارعة الطول، حميراء الشعر. في شيخوختها كانت تخضبه بالحناء، حتى وهي في آخر العمر تضع الكحل العربي على عينيها وتبودر وجنتيها وتضع الأحمر على شفتيها. إنها السيدة خانم فاتنة الحي في العشرينات. لكن من يجرؤ أن ينظر نحوها وهي تعبر الطريق؟! إخوتها رجال أشداء لا يفارق الخنجر شملات سراويلهم[١] عيونهم تقدح شرراً. وكان أبو نبيل يتباهى بأخواله أكثر من أعمامه.

في ليالي الصيف القمرية. حيث الأبواب والشبابيك في البيوت المتلاصقة مشرعة على بعضها، وعندما كانت أم نبيل تغني دور: «أصل الغرام نظرة... يللي كويت الفؤاد ارحم» ترفع صوتها إلى آخر طاقته، كأنها تتوجّه في هذه المناجاة الحزينة إلى شخص ما تريده أن يسمعها. فيتذكّر نبيل تلك القبلة الهوائية. ويتساءل. ثم لا يجرؤ على السؤال: ... يللي كويت الفؤاد ارحم... فترافقها نهى على العود والست خانم على الطبلة بإيقاع عازف محترف، فيتمايل أبو نبيل طرباً، وعندما يعلو الصوت الجميل

(١) الشملة: هي زنار من القماش يلتف على السروال الأسود في الزي الشعبي الدمشقي.

بالآهات تتردد أصوات الجيران من كلّ حدب وصوب: الله يسلّم ها الصوت يا أم نبيل... زيدينا طرباً. فيخجل أبو نبيل ويقول لزوجته: «اخفضي صوتك يا حرمة... اخفضي الصوت...» فيلحّ السؤال على نبيل لكنّه يتراجع. كانت هذه الصورة تغيب عن البال ثمّ تحضر فجأة، فيشعر كمن يوخز قلبه بسكين حادّة.

لمياء أجمل بنات الأسرة، حتى إن أبو نبيل كان يسميها «الملكة السمراء» طويلة، جسد مشدود. عينان نجلاوان وفم صغير بشفتين مكتنزتين، وأسنان بيضاء كاللؤلؤ. كانت تتباهى بجمالها، وتطرب لمن يمتدح هذا الجمال. وكانت أم جميل ترفع يديها إلى السماء، كلّما تشاجرت لمياء مع اختها سميرة وتقول: روحي... الله يخلّصني منك بعريس. لكنّ هذا العريس لم يأت. كانت لمياء أحياناً تفكّر بابن خالتها وحيد، الذي يبثها لواعجه بين الحين والآخر. ثم تصرف ذهنها عنه، وتحلم برجل فارس لا علاقة له بالعائلة يأتيها من مكان بعيد ويحملها إلى بيت كالقصر، وغرفة نوم واسعة، ونافذة تطل على النهر. وكان نبيل بالذات منتبهاً على الدوام إلى أنّ إبنة عمته أجمل من كل بنات العائلة والحارة والحي والمدينة. ما كان يخطر بباله أن هذا الجسد الفاتن العملاق سينكشف له هو ابن الرابعة عشرة. بكلّ طراوته وعنفوانه وسخونته. فبعد سهرة تخلّلها الغناء والرقص قالت لمياء لخالها: خالو... أنا رايحة نام. فأجاب: يالله... روحي عالأوضة الصغيرة[1]. فسألته: لعند نبيل؟ قال: إي... عند نبيل، تصبحين على خير.

لم يكن في هذا البيت، وغيره من تلك البيوت أسرّة، بل فُرُش تُمدّ على الأرض. وينام سكانها عليها لصق بعضهم.

كان الوقت شتاء...

---

(١) اوضة: غرفة. وربما كانت كلمة أوضة تركية.

«تلك الليلة دخلت فراشي باكراً. وكنت على وشك النوم عندما اندسّت لمياء إلى جانبي. كانت مدفأة المازوت الصغيرة في زاوية الغرفة تعطي لهباً أزرق شحيحاً، يضفي على الغرفة جواً ساحراً وجميلاً، وسرعان ما أحسست أن لمياء التصقت بي وقالت: نبيل... نبيل... إنت صاحي؟ لم أُجبها، تظاهرت بالنوم العميق، فعانقتني للحظات، ثمّ شدّتني نحوها أكثر، فاستدرتُ متناوماً ودفنت رأسي في صدرها، أحسست بخفقان قلبها المضطرب، أدخلت ساعدها تحت عنقي فيما غمرني ساعدها الآخر. همست: نبيل... نبيل... تقبرني... بعدك نايم؟ لم أُجبها. انزاحت عن جانبي خلعت شلحتها السوداء، لمحت ذلك بسرعة ثمّ أغمضت عيني. عادت واندسّت إلى جانبي. فلامستُ لحمها البضّ الساخن. كانت دافئة، كأن ناراً تشتعل في داخلها، وسرعان ما راحت تقبّلني. سُررت، وشعّ فرح في داخلي، لكنني ظللت متظاهراً بالنوم. راحت تقبّلني حيث شاء فمها الدافىء وشفتاها المرتجفتان. على الرغم من كل هذا، لم أفتح عيني. تركتها تفعل ما تشاء. وغمرتني سعادة خفيّة لم أشعر بمثلها لا من قبل ولا من بعد. أردت، بطفولتي تلك، أن أعرف. أن أتعلّم. أن أفهم معنى الجسد. معنى أن يحتاج الإنسان إلى إنسان. كأنّ جنوناً أفقدها عقلها، فخلعت عني ملابسي، إلى أن أصبحت عارياً مثلها. وبما يشبه العجين بالعجين أصبحنا. كانت تصدر عنها همهمة موحشة. ولهاث غير طبيعي. فراحت تبلّل شفتي برضابها، وتداعب بأناملها حلمتي صدري. وأنا في هذه الحالة، أحسست بأنني كبرت، وبأنّ جسدي الصغير تمدّد بحجم جسدها، فعانقتها. ورحت أقبّلها مثلما كانت تقبّلني. بل عضضت شفتها السفلى بقسوة، تنهّدت بتوجّع جميل. راحت تردّد بهمس محموم: تقبرني نبيل... كمان... كمان، لفّتني بذراعيها القويتين حتى كادت تخنقني. وأصبحت مغسولاً بعرقي حتّى بتّ أسمع زقزقة جسدينا وهما يلتحمان بحركة دؤوبة. ويا لتلك اللحظة التي لم أنسها أبداً. كأنّ روحي تنسحب من جسدي، أما هي، فقد راحت تعض طرف كفّيها بينما أخذت

دموعها تنهمر بغزارة، غاسلة وجهي من عرقه وارتجافه. أخيراً، انزاحت عني، ولهاثها لا يتوقّف. أما أنا، فكأنني كنت في حلم، أو كابوس، أو كليهما معاً. دنيا أخرى، عالم خفيّ اكتشفته. فرحت أضحك. بينما كانت تردد: اضحك تقبرني اضحك ... ثم أخذت تقبّلني من جديد.

جلست لمياء، تناولت شلحتها السوداء وارتدتها. ثمّ همست وهي تداعب وجهي وشعري بأناملها: إياك أن تبوح بالسر. أبوك يقتلنا. فقلت لها ضاحكاً: بس على شرط. قالت: ما هو؟ قلت: أريد مرة ثانية. قالت بلهفة: إي ... إي. أكيد. بس مو اليوم ... نام هلّق وارتاح.

ارتديت منامتي فعانقتني ... ونمت.

ظلّت لمياء حردانة في بيت خالها أكثر من أربعين يوماً، تذهب إلى الثانوية وتعود كل ليلة، كانت تندسّ بجانب نبيل، أصبح الولد جزءاً من أعصابها وروحها وقلبها، كانت تقول له إنها تحبّه. وإنّه عندما يكبر ستتزوّج منه. وإذا اعترض أحد على رغبتها هذه، تخطفه، وتسافر معه بعيداً، إلى بلاد لا يعرفها إلاّ الله: «نعيش معاً ونُنجب أولاداً جميلين.. وسأصلي لله كي تكبر بسرعة، وتصبح رجلاً قوياً وتحميني من أختي الشريرة، الشيطانة، إنها تكرهني لأنني أحلى منها، ولأن شعري الأسود الكثيف طويل، ولأن فمي بطعم العسل، وهي شعرها مجعّد، وعيناها صغيرتان كالبعصة بالعجين. وفمها مثل فم الجمل، وسمينة، ومحشوة بالشحم واللحم مثل المخـــدّة[1] الغليظة. إنها لبوة متوحّشة، أظافرها حادة، وعضّتها سامة كالأفعى. آه يا نبيل، ليتك تكبر بسرعة كي نهرب ونتزوّج. ويصير عندنا أولاد. ونحيا بسعادة بعيداً عن سميرة وشرورها».

كانت لمياء تهمس بأذني نبيل أنها لن تحب سواه وستموت من أجله. وصارا، غالباً، ما يتظاهران بالنعاس. فيذهبان باكراً إلى الغرفة الصغيرة بعد أن تقول لخالها سنراجع دروسه، ثم أروي له الحكايات التي يحبها. فيسأل الأب ابنه: شو يا ولد. حكايات بنت عمتك حلوة؟ فيقول الولد

(١) المخدة: الوسادة.

مطرقاً: حلوة جداً يا أبي. فيتركهما يذهبان. وفي كل مرّة تحذّره لمياء: إياك أن تقول شيئاً لأحد.. وإلا قتلونا معاً و: «فعلاً صرت أخاف أن يعرف أحد ماذا نفعل في هذه الغرفة الصغيرة. وفوق هذا الفراش الذي كانت لمياء تحرص على غسل غطائه إلى جانب بقيّة ملابسي مدعية أنها تحب أن تنام على نظافة.. ما أثرنا شكّ أحد. ولم يخطر ببال أبي قط أننا لا نراجع دروسي، ولا تروي لي حكايات، إنما نترك جسدينا يرتويان من هذا النبع المدهش الذي اكتشفناه. مانحاً إيانا هذه السعادة الخفية المذهلة الرائعة التي تمنّيت أن تدوم. بل صرت أشعر. وأنا في هذا العمر، بأن لمياء أصبحت حبيبتي وبأنني سأتزوّجها يوماً ما. بل صرت أغار من مداعبات إبن عمتي وحيد السمجة الذي أصبح يبدو لي هائماً بها، وصرت أهدّد لمياء بالكف عن مجاملته. وبأنني سأقول لأبي كل شيء إذا لم تفعل ذلك. فتفرح لهذا الكلام وتقول: تقبرني.. تقبرني.. ما بدي حب غيرك»

«لكنّ القدر كان لنا بالمرصاد، إذ ذات يوم، فُتح علينا الباب فجأة، فإذا بعمتي أم وحيد تشعل الضوء وتنظر نحونا مندهشة. ارتعبنا معاً، كان رعب لمياء أكثر شراسة، صار وجهها أصفر باهتاً كأنها ستموت، صرخت عمتي: يا كلبة.. شو عم تعملي مع الولد؟ ثمّ شدّتها من شعرها. وضربتها على بطنها: قومي يا كلبة قومي لشوف، يخرب بيتك.. مع الولد!!» وصرخت بي «يا مؤرح»[١]،

وإنت كمان.. ولُكْ ما فقست البيضة عنّك[٢].. قم إلبس.. قم».

أسرع نبيل، فارتدى بيجامته وهو يرتجف هلعاً، وظلّت العمة تشد شعر لمياء تريد سحبها من الغرفة عارية: «لا أدري ماذا حصل في تلك اللحظة، إذ دبّت بي جرأة تشبه الجنون. فأسرعت نحو عمتي وعضضتها من يدها.

(١) يا مؤرح: تعني بلهجة الشام يا خبيث.

(٢) ما فقّست البيضة: أي لم يبلغ بعد.

أفلتت شعر لمياء والتفتت نحوي وصفعتني على وجهي صفعة قوية وهي تصرخ كالقطة المتوحشة: يا كلب. . فقلت لها: لا تقولي يا كلب عمتي. . أنا لست كلباً، أنا ابن أخوك. . صرخت: كلب وستين كلب. . إلك عين تحكي كمان. فقلت لها وأنا أمطّ قامتي: أنا أحب لمياء. . وأريد أن أتزوجها. قهقهت عمتي بجنون وصاحت: وُلَكْ أزعر. . بدك تتزوّجها كمان. . بعدك فصعون[1]. فاقتربت منها وأنا أتوسّل إليها: دخيلك يا عمتي، لا تقولي لأحد. .».

كانت لمياء قد جلست وسط الفراش لا تتحرّك، بدت مصدومة غير قادرة على الحركة. ولا على ارتداء ملابسها، استسلمت تماماً، كما لو أنها بانتظار السيف القاطع ليفصل رأسها عن جسدها. وبدت أم وحيد تلك الهنيهة شيطاناً رجيماً. كان الشر يقدح من عينيها بغضب عظيم، ظلت تنظر نحو لمياء تلك النظرة القاتلة التي توحي بالتحفّز المفاجىء.

بعد لحظات، ران صمت. العمة تفحّ كالأفعى، فيما نبيل ولمياء يبكيان، كان نبيل خائفاً على لمياء أكثر من خوفه على نفسه. خائفاً عليها من عمته، من أبيه، من أعمامه وأخواله. من العائلة كلها، ولعلّه في هذه اللحظة أدرك أن لمياء أقدمت على عار سيلطّخ جبين الأسرة لوشاع. وأدرك بحدس الطفولة أن الأمر كله الآن بين يدي عمته. . إما الفضيحة وإما السلامة. هي الآن بشعرها المنفوش. وعينيها الناريتين. وارتجاف شفتيها ويديها وجسدها الضامر، بيدها هي أن تستر أو تفضح. كان يدرك، أنه ولمياء والعمة والأب جميعهم في خطر، وأن الذي كان يحدث في ذلك الفراش الدافىء هو الخطيئة الفاحشة بعينها التي ستؤدي إلى الرجم والقتل، وكان عليه أن يفعل شيئاً لحماية لمياء. هم سيقتلونها. الأب أولاً. خنجره دائماً في زناره. يتخيّل نبيل أن أباه سيجندل لمياء بضربة خنجر واحدة. وستقول الأسرة كلها إنها تستحق أكثر من ذلك. كانت أفكار نبيل تضخّم الحدث إلى حد

(١) فصعون: ولد صغير بلهجة الشام.

الرعب. ماذا لو قتلوا لمياء؟!. ماذا سيحدث له... هل سيقتلونه أيضاً. وكلّما غرق في التفكير ازداد رعباً. وراح ينظر إلى العمة وهو مدرك سلفاً أن حكمها على لمياء سيكون الإعدام، وها هو الآن يرى رأس لمياء الجميل مفصولاً عن جسمها. وأن جسدها الطري الذي طالما نعم بدفئه سيتحوّل جثة باردة صنفيعية. احتار ماذا يفعل. كانت أفكاره تسبق عمره، فيشعر بالرجولة والشباب. كانت أم وحيد تتنفّس بصعوبة. صدرها يعلو ويهبط. تدمدم بكلمات غير مفهومة، ويخرج الزبد من بين شفتيها كوحش ركض آلاف الأميال. لم يهدأ غضبها، بل ازداد اشتعالاً، تقدّمت فجأة ولفّت شعر لمياء الأسود الطويل على قبضة يدها وشدّته بقسوة، فندت عن لمياء صرخة ألم، شدّت العمّة الشعر أكثر وكادت تخلعه من رأسها، ثمّ قالت: يا بنت الحرام.. كنت أهيئك لتكوني لوحيد يا كلبة. وحيد الذي يحبك ويترنّم باسمك. وحيد الذي يحلم أن يبني لك بيتاً وتكوني أماً لأولاده، وحيد ابني وفلذة كبدي. كان يرى فيك الملائكة. وكان يعشق خجلك الكذّاب، إذا أمسك يدك يحمرّ وجهك... يا ويلي... ماذا أقول له الآن؟ كيف أخبره أنك عاهرة، وأنك تتعرّين لولد لا يفقه ولا يعرف. ماذا أفعل بك... قولي... وتشدّ شعرها أكثر، فتمطّ لمياء عنقها إلى أعلى كي تتفادى الألم الشديد ولا تجيب. ربما، في هذه اللحظة، عرفت مصيرها. وأم وحيد لم تهدأ، علا صراخها، فسمع نبيل خطوات على الدرج، أسرع وسند الباب بظهره وهو يتوسّل إلى عمته: دخيلك يا عمتي.. والله ما عدنا نعملها. فتصرخ بوجهه: إخرس إنت... إخرس. لأنك ما بتعرف شو عملت. ومن خلال دموعه السخيّة يصرخ نبيل بصوت مكتوم: أبوس إيدك عمّتي... سمعونا برّا... أبوس إيدك. فتصرخ به مجدداً: قلت لك إخرس.

يُدفع الباب بقوّة من خلف نبيل، فتترك العمّة شعر لمياء، وتسحب الشرشف وترميه عليها في اللحظة التي اندفع نبيل بعيداً عن الباب. فإذا أبو نبيل أصبح داخل الغرفة بقامته الطويلة وبهيبته. اعتلت وجهه دهشة كبيرة،

أجال الرجل نظراته في الوجوه الثلاثة وجهاً وجهاً، ثم إنصبّت نظراته المتسائلة على لمياء. كانت لمياء هذه اللحظة قد انطوت على بعضها كالجنين في بطن أمه. مرخية وجهها بين كفّيها وهي تهتز رعباً. التفت الرجل نحو أخته قائلاً لها: شو في إم وحيد؟ قالت له: شوف.. كل شي واضح. حدّق أبو نبيل في وجه أخته بعبوس وصرامة: لا.. ليس كل شيء واضحاً. قولي إنت.. قالت: بنت أختك يا أخي عاهرة. شوف ـ وأشارت نحو لمياء ـ بدك إرفع الشرشف عنها.. لا.. لا.. لا ترفعي شي. قولي.. شو القصّة؟ بنت أختك يامو مع هالمقطوع الرقبة بفرشة واحدة مثل ما خلقهم الله نايمين مع بعضهم.. هل فهمت؟

نظر أبو نبيل نحو ابنه نظرات لم تخفه: «نظرات أحسست فيها بودّ ومحبّة. ثمّ قال بهدوء: شو لك أزعر. صحيح متل ما عم بتقول عمتك؟».

لم يجب نبيل، كأن صوته قد خرس تماماً، فعاد الأب وكرّر بصوت أكثر هدوءاً: قل لي الحقيقة يا ولد.. فصاحت أم وحيد بأخيها: تسأل الولد يا أخي.. إسألها هي. مالك شايفها كيف عم بتخبي وجهها. إسألها شو عملت بالصبي. نظر الرجل إلى أخته بحدّة وقال لها: وطّي صوتك.. وطّي صوتك.. ما بدنا فضائح.

اقترب أبو نبيل من لمياء التي ظنّت أن خالها سيضربها، فتكوّمت على بعضها أكثر، كأنها خشيت أن ينهال عليها ضرباً. لم يفعل. سوى أنه أمسك بيدها وقد أشاح بوجهه عنها قائلاً لها: قومي إلبسي. قومي يا بنت. تركها واقترب من الباب مشيراً إلى إبنه وأخته باللحاق به، ثم التفت نحو اخته قائلاً: هادا يللي شفناه.. ما لازم يطلع لبرة. هل سمعت ما أقول؟ خلف ذاك الباب دفنّا كل شيء.. واتركي الباقي عليّ. يالله.. روحي على أوضتك أما أنت ـ ملتفتاً نحو ابنه ـ الحقني يا أزعر.

ذهبت العمّة نحو غرفتها ولحق نبيل بأبيه إلى غرفته وهو مطمئن إلى أن كل شيء مرّ بسلام. كانت الأم تغط بنوم عميق فهَمس الرجل بإبنه: نم بجانبي. فتمدّد نبيل بجانب أبيه يحاول إغماض عينيه. فقال له الأب: يا ملعون.. ما هذا الذي رأيناه؟ لم يجب نبيل بكلمة. فقال له: أزعر صحيح.. ثم طلب منه أن يروي له كل شيء، لم يفعل، فألحّ عليه بودّ: قل لي.. إرو كلّ شيء. وعندما روى نبيل كل ما حصل راح الرجل يضحك ويغمر ابنه بساعده القوي وهو يهمس: صرت رجلاً يا ملعون.. صرت رجلاً.

منذ ذلك اليوم، أمر أبو نبيل لمياء أن تعود إلى بيتها، وأن لا تزور بيت خالها إلا برفقة أمها أو أخيها.

«عشت أياماً طويلة وأنا أخاف عمتي أم وحيد. صرت أراها شيطاناً. وكانت تهاجمني بسببها، وأنا نائم، كوابيس، أصحو منها مرتعباً، وكلّما نظرتْ إليّ أُحسّ في نظراتها بتأنيب شرس، أغض الطرف، لكنني لا أكفّ عن شتمها سراً، لقد قتلت متعة البلوغ الأول، مثلما تحطّم أمل كان يراودها في أن تكون لمياء لإبنها وحيد، الذي أصبح يصرّ على الزواج منها وهي تمنعه، دون أن تجرؤ على قول الحقيقة. ويستغرب وحيد هذا الإنقلاب المفاجىء من أمّه ضد لمياء، فيلجأ إلى أبيه الذي لا حول له ولا قوّة أمام أمّه المتغطرسة المسيطرة على كل شيء. فكان لا بد له بعد ذلك من اللجوء إلى خاله، ويحتار أبي ماذا يفعل، يعرف ماذا يجول في عقل أخته. يعرف أن الحقّ معها: كيف يتزوّج إبنها من لمياء التي رأت منها ما رأت؟».

ذات يوم انفرد أبو نبيل بأخته، وحاول إقناعها بتلبية رغبة ابنها، وأن ما حصل كان نزوة مراهقة: يا أختي.. نبيل ولد.. ولمياء مراهقة. لا بد أنهما نسيا ما فعلا. تصيح الأخت بوجه أخيها: ستخونه. فيردّ عليها: صدّقيني لن تفعل، نزوة المراهقة تزول مع الأيام.. ثمّ إن يدك على رقبتها منذ تلك

الليلة، وستظل خائفة منك إلى الأبد، ستصبح خادمة بين يديك. تأمرينها فتطيع. دعيني أتصرّف، لا نريد أن تذهب بنت خارج العائلة.

عندما رضخت العمّة، فوجئت برفض لمياء القصّة من أساسها: لن أتزوّج من وحيد ولو أطبقت السماء على الأرض. كيف أضع رقبتي تحت سكّين أمّه؟ أبداً والله... ومن يرغمني على ذلك أنتحر.

تستفرد أم وحيد بلمياء صائحة بها: وتتعالين عليّ يا كلبة؟. والله لولا خالك لذبحتك مثل الدجاجة.

ظلّت لمياء، بكل كبرياء الفتاة الجميلة، على رفضها. حاول خالها إقناعها، فقالت له: أتريد أن أعيش حياتي كلّها، وهذه المرأة تهدّدني صباح مساء؟! لا يا خال. لا تظلمني إلى هذا الحد، دعني لنصيبي. لا أرى في وحيد الرجل الذي أُسعد معه، ومعنا هذه الخالة التي ستنغّص عليّ حياتي صباح مساء.

حزّ في قلب وحيد أن ترفضه لمياء، بعد أن كانت تداعبه بكلمات أقلّها: يا خطيبي. حيرة وحيد تجعله يتساءل: لا بد أن شيئاً ما، شيئاً خطيراً قد حدث. لا بد أنّ رجلاً آخر قد دخل حياة لمياء فجأة؟ولكن من هو هذا الرجل؟ لمياء أسيرة بيتها. من الثانوية إلى البيت ومن البيت إلى الثانوية، المدرسة قريبة من بيت أسرتها. إذا تأخّرت دقائق تخضع للمساءلة من أمّها وأبيها عن سبب هذا التأخّر، يعرف وحيد ذلك، وهو يتردّد على بيت خالته لعلّه يحظى باهتمام ما من لمياء، يحاول أن يسألها عن سبب هذا التبدّل فتعرض عنه، وهو بطبعه ليس لجوجاً، وإن بات الآن لا يطيق الفراق عنها، وفي كل زيارة لبيت خالته، تتحاشاه، ويخرج مطعوناً بكبريائه. حاول مراراً أن يصارح خالته برغبة الزواج من لمياء، التي كانت تظنّ في القديم، أن فكرة الزواج كلام بكلام، وأنّ المداعبات حول ذلك مجرّد ضحك ومزح ولعب. ثم يخاطب نفسه: الصبر مفتاح الفرج.. لعلّ أمي تنجح في مسعاها.. ويتذكّر كيف كان أفراد العائلة في سهرات الشتاء الدافئة يتندّرون

عليهما: لمياء لوحيد ووحيد للمياء. حتى نساء الحي كنّ يردّدن هذه الكلمات: كل منهما يليق بالآخر، فما من سبب إذاً يمنع أن يتزوّجها في المستقبل، فما الذي حدث؟

ويجيء وحيد بالقرآن، ويضع يده عليه أمام أمّه: وحق هذا القرآن. إما لمياء.. وإما لا امرأة غيرها تدخل فراشي.. فتولول أمّه كما لو أنّ ابنها قد مات: يا ويلي ممّا تقول.. يا ويلي. وعندما تنفرد بنفسها: «لماذا لا أروي ما حصل.. فيتراجع ابنها ويكفّ عن التفكير بلمياء؟».. ثمّ تذهب إلى أخيها: دعني أصارح ابني بالذي حصل.. إن عرف سيكفّ عن حبّها، ونخطب له فتاة أخرى. أختها سميرة مثلاً.. بل أختها بالذات نكاية بها. حتى ترى بأم عينها ماذا يفعل الرجل الذي خسرته. سأضع سميرة على رأسي. سأطلب من وحيد أن يشتري لها كل ما تحبّ، سأغمرها بثقلها أساور وخواتم وعقوداً. سأجعلها زينة صبايا الحي. حتى تنقهر لمياء وتموت كمداً وحسداً. فيردّ عليها أبو نبيل: ألا تخافين ربّك؟.. أنت لا تريدينها. ولمياء لا تريد وحيد.. أليس هذا حلاً لمشكلتك.. أما وحيد فسنختار له جميلة من جميلات الحي. سميرة أكبر منه بسنوات ولن تقبل بوحيد أيضاً. ضعي رأسك بعقلك، وكفّي عن هذا الشر، وحيد سيتزوّج وينسى لمياء.

تروي أم وحيد لابنها جزءاً من هذا الحوار، فيجيء إلى خاله: يا خال.. أنت أكبر رجل في الأسرة. وأمي أختك من أمّك وأبيك. وحدها دون خالاتي الأخريات، وحقّي عليك مثل حقّي على أبي. وأبي، كما تعرف، خاتم بإصبع أمي. وأوامرها أوامره. وكلمتها كلمته.. أمّا أنت، فوحدك القادر على مساعدتي. لا أرغب بامرأة أخرى يا خال. لا أنام الليل وأنا أحلم بها. لمياء هي أميرة قلبي، لا أفهم لماذا تمنعني أمي الزواج منها، بينما كانت في الماضي ترحّب كثيراً. فيطيّب أبو نبيل خاطر ابن أخته: أمّك لا تريدك أن تتزوّج من إمرأة لا تفكّر فيك الآن إلاّ كأخ... انتظر بعض الوقت، لعلّ الظروف تتغيّر. وأنت تعلم أن لمياء منصرفة الآن إلى

الدراسة. فيردّ وحيد: ليس هذا عذراً يا خال. . أضع في إصبعها خاتم الخطوبة. ثمّ أذهب إلى تجارتي وأهتمّ بأعمالي كي أستحقّها. سوف أنجح في أن أجعلها تحبّني. سأدلّلها يا خال. سأملأ ساعديها أساور. وأصابعها خواتم ألماس. سأشتري لها أجمل الملابس. سأسافر معها إلى كل البلدان. أنت تعرف يا خال. الحمد لله تجارتي رائجة، وإذا حلّت لمياء في بيتي الذي أعدّه لهذه المناسبة زوجاً حلالاً، سأشعر بالإطمئنان وأبني أسرة جميلة. وأصبح أكبر تاجر مثلك يا خال. . وسأكون عبداً مطاعاً لها ولا أردّ لها طلباً.

يحزن أبو نبيل من أجل ابن أخته، ولا يجد حلاً لمشكلته، وكان يخاف أن يؤدّي امتناع لمياء، المستمرّ والرافض، إلى إعلان أخته الفضيحة التي قد تودي بحياة لمياء نفسها. عدا عن إدانته بالتستّر عليها لأن الطرف الآخر هو ابنه بالذات. ويردّد أمام أخته: البنت مقسومة من ضلع زوجها يا أختي. . لا تستطيعين أن تقفي بوجه الأقدار، لعلّ الذي حصل من حظ ابنك. القدر يلعب لعبته، هو الذي يرسم لكل منّا حياته. فتعترض أم وحيد: لقد أقسم على القرآن أن لا تدخل فراشه امرأة أخرى. يردّ أخوها ضاحكاً: بسيطة. . سنشتري له فرشة جديدة ونحلّ المشكلة صدّقيني سأجِد له أجمل عروس. . إستري على لمياء واتركيها بمصيبتها.

نبيل الذي كان بين الحين والآخر يدرك ماذا يدور حوله، يلامس شعيرات قليلة تنبت في أسفل ذقنه، صار يفهم ويعي أكثر، يلتفت بذاكرته إلى الوراء، إلى ذلك الطيف الذي عبر حياته كالنيزك، إلى مها التي ماتت وردة وتركت وردتها بين يديه لتصبح مقيمة في صفحات كتاب. يمرّ على المقبرة ويزور قبرها. ويرى شجرة الصفصاف التي صارت قامتها خضراء نديّة تحمي القبر من أشعّة الشمس الحارقة، من وجع الموت الدائم الذي لا يشبع. من أطلق على الموت هذا الإسم البشع؟ مات يموت سوف يموت لا بد للإنسان من أن يموت... لماذا هذه النهاية البشعة. حُفَر ينهال عليها التراب. حفرة خانقة مظلمة لإنسان كان يتكلّم ويمشي ويركض ويكتب ويرسم ويخترع، ويتزوّج، وينجب. حركة دائبة وأحلام، وأمنيات وطموح. ثمّ، فجأة، كلّ شيء يهمد. يصاب بالسكون والجمود والتخشّب. فيسرعون إلى دفنه لئلا تفوح رائحته الكريهة، وهو الذي تنتظر أسرته أوبته بفارغ الصبر محمّلاً بالطعام واللباس والهدايا، ثمّ يأنفون من رائحته إذا استسلم إلى مصيره الأسود. إلى موته الذي لا بدّ منه. ما أبشع هذه الحياة عندما ينكسر هذا الحلم لتظهر الحقيقة الساطعة. لن تدوم نعمتك. لن تدوم حياتك. ومثلما ذهب قبلك إلى مصيره كأي عابر سبيل، ها أنت أمام المصير ذاته، دون أن تستطيع شيئاً، مخذولاً، مهزوماً،

محطّماً. من جسد جميل يفور بالحياة، إلى جثّة فطيسة تفوح رائحتها النتنة إذا لم يسرعوا إلى وأدك أيّها الصعلوك.

لا يدري نبيل، كلّما وقف أمام قبر مها، كيف تنتابه هذه المشاعر السوداء، وكان دائماً يحاول أن يقنع نفسه. أن حبيبته الصغيرة، التي كتم سرّها ولم يبح به لأحد، هي من جنس الملائكة. أو هي روح تقمّصت ذلك الجسد الرقيق النحيل الذي لم يتحمّل قلبه هدير العاصفة، فارتحلت الروح ونام الجسد تحت التراب، هو يظنه، ممسكاً بظنون الطفولة، أنّه لو فتح هذا القبر الآن لوجد مها نائمة كأنّها في سريرها... أما ظلّت وردتها نديّة حتى هذه اللحظة، وردة قُدّت من السحر، بعطرها الفريد، وخلودها، وأسرارها التي تكشف بعضها ولا تكشف أكثرها. إنّه متأكّد وكأنّها تسمع الآن وجيب قلبه، إنها وحدها خارج هذه اللعبة الجهنمية، خارج هذا الموت الرمادي الموجع. آمن دون تردّد أن مها أصبحت هي ذاتها هذه الصفصافة، ويضع يده على جذعها، فكأنها على كتف هذه الراحلة، هي نفسها هذه الشجرة ويردّد: ألا تتداخل الأرواح بعضها ببعض. ألا تتناسخ. لا تموت الروح. كان الشيخ أمين يقول: الأرواح لا تموت. وكما يعاقب الإنسان عندما يُبعث حياً تعاقب الأرواح، إنّها أيضاً تخضع للعقاب والثواب، فالشرير تتحوّل روحه إلى جرذ، والخيّر إلى عصفور أو فراشة والعلم عند ربّك ذي الجلال والإكرام. روح مها هذه الصفصافة التي تشقّ أغصانها الفضاء، طفلة وردة، نرجسة بريئة أكلها المرض قبل أوانها... ولمَ لا تصبح شجرة؟ كلمات الشيخ أمين ترطّب خاطر نبيل وتخدّره في الوقت نفسه: انتبه يا ولد. الموت دائماً قاب قوسين أو أدنى. فإذا لم ترحم جسدك، إرحم روحك.

ترى هل كان الشيخ أمين يدرك أن الإنسان لا يستطيع التحكّم بعواطفه وحياته؟ بل هو يناقض نفسه عندما يقول: الإنسان مسيّر، وحياته مرصودة في اللوح المكتوب لا يريم عنها قيد أنمله، والشيخ أمين يضرب المثل بزين العابدين، هذا الرجل المتنسّك الزاهد بأمور الدنيا، المرابط بين المسجد

والبيت. يعيش على دخل متواضع من بيتين مؤجّرين ورثهما عن أبيه. هو وحده، لا إخوة ولا أخوات، ولحقت أمّه بأبيه بعد شهرين فلم تعد الحياة تعني له شيئاً، صلاة وصوم وعبادة، وكنا شباب الحي معجبين به أشدّ الإعجاب، ورع وخجول، لا يهمّه من أمور الدنيا غير مرضاة ربّه، كنت قد أصبحت طالباً في الكليّة العلميّة الوطنيّة الملاصقة لحي العقيبة، ثانوية ذات شهرة علمية في المدينة، بسبب ما عرف عنها من تفوّق أثناء الإمتحانات على بقية الثانويات الرسمية والخاصة، أبي يريد لي أن أتعلّم ما فاته أن يتعلّم هو. فكان يتابع تعليمي خطوة خطوة، وإذا قصّرت بمادة ما، جلب لي معلّمين خصوصيين لأجل تجاوز هذا التقصير، كان يتوسّم لي مستقبلاً زاهراً. كأن أُصبح طبيباً أو محامياً شهيراً أو مهندساً معمارياً. أمّا بالنسبة لي فقد كنت أتمنّى أن أصبح طياراً أو قائد سفينة سياحية، كنت أحبّ أن أعرف العالم وأكتشف الحضارات، لا أن أكون أسير مكتب مغلق، طبيباً أو محامياً أو مهندساً. في هذه الثانوية، نشأت صداقة عميقة بيني وبين أسامة، ذلك الفتى الأشقر الذي يشبه أخواته البنات إلى حد لا يستطيع المرء أن يدرك إن كان بنتاً أو صبياً، خصوصاً أنّه يترك لشعره الحريري أن يسترسل على كتفيه، كان جميلاً حقاً، أزرق العينين، فارع الطول، متغاوياً بنفسه، كما يصفه الأصدقاء والمعارف. وكان يتصوّر أنّه سيصبح نجماً سينمائياً، ليس في مصر، بل في هوليود، ولم لا، فهو لا يقل جمالاً عن النجم الأميركي ألان لاد أو جيمس دين أو مارلون براندو، ويتمنّى ما إن ينتهي من الدراسة الثانوية حتى ينتسب إلى معهد سينمائي ليتقن العمل في هذا الفن الجميل. لم أنتبه إلى مزايا أسامة هذه، إلا عندما لفت زين العابدين نظري إلى ذلك: يا سبحان الله ما أجمل هذا الفتى؟!

زين العابدين لا ينقطع عن الصلاة، ويحضر دروس الأئمّة دون انقطاع. ويشارك في الحضرات عند قبور الأولياء، كنا نلقّبه بالشيخ ويطرب إلى هذا اللقب، إلى حد أنّه أطلق لحيته ذات يوم وحنّاها بالحنّاء تمثّلا بالنبي، يا صلاة على النبي، كان زين العابدين مهووساً بقصص الأولياء

الصالحين، يتبرّك بقبورهم ويرمي نقوده في نوافذهم، وإذا ما جالسناه على كأس شاي شعرنا أننا في حضرة ملاك. الشيخ أمين إمام مسجد التوبة كان ينصحنا بأن نتزوّد من إيمان زين العابدين، ونسعى للتشبّه به بمثل هذا الرضى والتواضع والزهد وعيش الحياة البسيطة. لكنّ الشيطان الذي تجسّد فيما بعد، تجسّد بأسامة. فانقلب كلّ شيء رأساً على عقب، كان يتردّد على الحي بحكم صداقتي وزمالتي له، وكنا معاً في صف البروفيه. في عمرين متقاربين، شابين، نبصبص على الفتيات ونلاحق الجميلات منهنّ. كان أشطر منّي في اصطيادهنّ ومداعبتهنّ دون أن نتجاوز هذه الحدود، لأننا كنا حذرين من أسرنا ومديرينا وأساتذتنا ورجالات الحي، كنت أشعر أنني أكبر من عمري بسنوات، فأرافق شباناً أكبر سنّاً، وألعب نرد الطاولة معهم في مقهى الحي. وكان في داخلي طموح لم يتوقّف، كي أصبح قبضاياً مثل أبي، وأن يصبح لي مريدون وأزلام أطلب منهم - كما كان يفعل أبي - أي شيء فينفّذونه دون تردّد. أسامة كان يجيد لعب الورق، وخصوصاً لعبة الـ١٤. فيجلس ساعات في المقهى يلعب مع هذا أو ذاك، كأنّه صار واحداً من أهل الحي، وإذا ما جلسنا مرّة على رصيف المقهى نشرب الشاي، ألمح زين العابدين ينظر بخفر إلى أسامة، حتى أنّ أسامة قال لي ذات يوم: ترعبني نظرات هذا الرجل، فأقول له لائماً: هذا شيخ يا أسامة. فيردّ: لا تخف إلاّ منهم يا نبيل.

«لست أنا الذي يرى، أو يسمع، أفتح الكتاب فأجد وردة النرجس في وضع قلق: لا يستطيع الإنسان أن يسيطر على عواطفه دائماً مهما حصّن نفسه، ومهما حاول أن يتجاهل ما هو فيه. فزين العابدين أصبح شغوفاً بأسامة. إلى حد أنّه إذا تغيّب عن المقهى يسأل عنه، وإذا جاء لا يستطيع مفارقته. ينتظره أمام الكليّة، يدعوه إلى الغداء، يهديه أقلاماً وقمصاناً، وصار يفعل المستحيل لإرضائه، وأسامة بما جبلت عليه نفسه، كان يستغلّه أبشع استغلال. ألومه، أحاول أن أمنعه من الإستمرار في هذه اللعبة القذرة، يضحك: ماذا أفعل له؟. هو الذي يركض ورائي ...

ـ ماذا يقول لك؟

ـ لا يقول شيئاً. دائماً يواجهني بصمت خاشع.

ـ ألا يطلب منك شيئاً؟

ـ لا.

ـ ألا يحاول الإستفراد بك؟

ـ أبداً... أبداً. والغريب أنّه يحاول أن يُقنعني أن أصير مثله مهبولاً.

ـ لكنّ زين العابدين ليس من هذا النوع يا ولد.

ـ كيف... مرّة اصطحبني إلى حضرة دينية في ركن السيدة رقية حيث تحلّقت مجموعة من الرجال. وراحوا يدورون حول أنفسهم إلى حد الجنون والهلوسة وهم يردّدون اسم الله، كانوا يهزجون باسم الخالق كأنّهم في حالة من التبتّل الشديد. بربّك... من أين جاءت هذه الطقوس الغريبة؟

ـ ليست غريبة يا أسامة. فلا يمتنع هؤلاء عن ذكر الله.

ـ إسمع يا نبيل. لقد سألت أبي ذات مرّة عن هذه الطقوس فقال لي: في الإسلام، ليس مطلوباً منك سوى الصلوات الخمس، والتقيّد بتعاليم القرآن والشرع.

ـ ولكن هذه حلقات ذكر.

ـ تستطيع أن تذكر ربّك إذا شئت دون هذه المظاهر الغريبة. والله أنا مؤمن يا نبيل، لكن لا أفهم هذه الأمور. لا أفهم كيف يتحوّل الدين إلى ما يشبه الوثنية، التعامل مع الله ليس بهذه الطريقة!

ـ ولكن هذه صوفية يا ولد. اندماج في حضرة الخالق سعياً وراء مرضاته.

يجادلني أسامة، فأبوه دكتور في الفكر وأستاذ جامعة، وأمّه مديرة مدرسة. وأخته تعلّم في الثانويات. وتحمل شهادة ليسانس في الآداب. بقية أخواته طالبات متفوّقات، عدا عن أنّه من أسرة ثريّة. لأبيه بيت يشبه القصر في حي الصالحية:

ـ أفـهـم من أبي أن الإسـلام دين مـعـاصـر ولكل عـصـر . إنّه يتطوّر مع الحضارات . الإسلام هو الذي بنى حضارة الشرق وحضارة الغرب . في الصـيف الماضي اصطحـبنا أبي إلى الأندلس، تركنا نرى بأم أعـيننا هذه العظمة التي خلّفها لنا الأجداد . أبي دائماً يحدّثنا عن هذا الماضي العريق، وهو أسير الماضي إلى حد كان يتمنّى لو أنّ الله خلقنا في ذلك العصر وليس في هذا العصر الذي اصبحنا فيه أردأ الأمم .

ـ من أين لك هذا الكلام يا أسامة؟

ـ من أبي، فهو يحدّثني كلّما التقينا، عن تلك الأمجاد الغابرة، حتى حفظتها عن ظهر قلب أكثر من دروس المدرسة .

ـ دعنا الآن من زين العابدين!

ـ ما هذا الجنون الذي يمارسه زين العابدين؟ ... إذا كان عاشقاً للذات الإلهية، لماذا إذاً يعاملني ويتصرّف معي كأنني امرأة يعشقها؟

فأضحك ممازحاً :

ـ تُضرب! . إنت مثل المرا .

ثمّ أسأله جاداً :

ـ إلى هذا الحد؟!

ـ أكثر وأكثر ... عندما يمسك بيدي أحسّ بأنّه يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه، فيدبّ بي خوف .

ـ خوف من ماذا؟ هل تضحك عليّ؟

ـ لا والله يا نبيل ... أضحك عليك! أنت أخي وأقول لك كل شيء بصدق ... إنّه يحاصرني هنا وهناك . ينتظرني أمام الكلية مختبئاً منك . أُودعَك لأذهب إلى البيت، فأشعر أنّه يمشي خلفي . لا ألتفت، لكن ما إن نبتعَد عن الثانوية حتى يصير بجانبي هامساً بلهفة : أسامة ... أسامة . وأحتار ماذا أفعل ... ماذا أقول له؟

وسرعان ما يسحب أسامة شيئاً من جيوبه ويقول لي :

ـ أنظر هذه الساعة جلبها لي ... هذا القميص الذي أرتديه هدية منه ، ثمّ يرفع قدمه عن الأرض : هذه الجوارب هديّة منه ...

ـ ولماذا تأخذها منه؟

ـ يرغمني بشتى التوسلات ، فأخجل .

ـ ثمّ؟

ـ ثمّ كثيراً ما يطرق باب بيتنا ويسأل عني ... أحياناً يصادف أن يفتح الباب أبي ، فيقول له إنني لست موجوداً في البيت ، ويسألني أبي : لماذا يسأل عنك هذا الرجل ... ماذا يريد منك؟ فأكذب عليه ، وأقول له هذا خال نبيل ، يصلّي أحياناً في جامع المرابط ويعود مشياً إلى بيته ، فيخطر على باله أحياناً أن يسأل عني ويطمئن عليّ ، لكنّ أبي لا يبدو مقتنعاً ، وتتعزّز شكوكه كلّما زادت طرقات زين لباب بيتنا .

يصمت أسامة وهو يتأمّلني ثم يقول : إنني أروي لك كلّ شيء . والله لا أخبىء شيئاً .

فأكرّر سائلاً إياه .

ـ ولكن ... لماذا كنت تقبل هداياه؟

ـ وَلْدَنَة وخجل منه في الوقت ذاته ... أقبلها عن سخف . أقول في نفسي : لا يعرف زين العابدين ماذا يفعل بالمال ، لا يسكر ، لا يذهب إلى كباريه ، لا يعاشر امرأة ، ماذا يفعل بالمال إذاً؟ . كنت أظن في البداية أنّه يهدي كل أصحابه مثل هذه الهدايا ، كنت أشكّ في أنّه يهديك أيضاً ولا تقول لي .

ـ ما أسخف ما تشكّ به يا ولد!

ـ والله ، أقول لماذا لا يقول لي نبيل؟ . لكن بحدس القلب والروح ، أدركت بعد ذلك أنني أعني لزين شيئاً مختلفاً .

في الصيف ترحل أسرة أسامة إلى مصيف بلودان كعادتها كل صيف، بينما يكون الصيف جهداً وعملاً مضنياً بالنسبة لنبيل. ينصرف إلى مساعدة أبيه في متجره في سوق البزورية، فيتردّد زين إلى السوق عابراً لعلّه يلتقي بأسامة، ثمّ يسأل نبيل بإلحاح:

ـ ألا تراه... ألا يزورك؟

ـ أسامة مع أهله في بلودان يا سيد زين.

ويفاجأ نبيل، كما يفاجأ أسامة، أن زين حصل على وظيفة إدارة مقهى من مقاهي بلودان، مهنة أبيه في الأصل، يعرف أصحاب المقاهي الدمشقية، يتردّد عليها فلا يأخذون منه ثمن المشروب. «كنا أحياناً، ونحن نقترب من دور السينما، نرى زين العابدين على رصيف المقهى يدخّن النرجيلة، فيقف مرحّباً: «تفضلوا يا شباب، فلا نستجيب له، كنا في أعمار لا تسمح لنا بزيارة مثل هذه المقاهي الشعبية، باستثناء مقهى الحي الذي نعرف روّاده فرداً فرداً، فهم من السكان والجيران».

تعاقد زين العابدين على إدارة المقهى كلّ صيف. ولمدّة خمس سنوات، فإذا بأسامة يجد نفسه وجهاً لوجه مع زين، وشاء أم أبى يلتقي به كلّ يوم في ذاك المقهى الذي يطلّ من عل على وادي بردى الفاتن. إنّه أجمل مقهى، وكلّ المصطافين هناك، كانوا يفضّلونه على غيره. هكذا أصبح الفتى

والشيخ ملتصقين، فامتدّ هذا الحصار زمناً دون أن تختلف معاملة زين لأسامة ولو قليلاً، يجلس أمامه منصتاً لدقات قلبه. وأسامة يحاول الخروج من المأزق برواية النكات والحكايا. ومع الأيام أصبح وجود أسامة أهم ما في حياة زين العابدين، ولننتظر، قال نبيل لأسامة، لعلّ الرجل لا يبغي منك إلا الخير. فقد أدرك كلاهما ما يجيش في صدر زين من انفعالات متضاربة. وبدت لهما هذه العاطفة الهائجة والنارية، كأنّها تحوّلت إلى شيء إيجابي وجميل، إذ صار زين يقنعهما المرّة تلو المرّة بمباشرة الصلاة والعودة إلى الإيمان الجميل بكلّ طقوسه: «كنا فتياناً... وكنّا قليلي الإهتمام بأمور الدين، تغلب علينا مراهقتنا، وعدم تقديرنا عواقب الأمور، فصار زين يقنعنا تارة بالحسنى، وأحياناً بالضغط علينا للذهاب إلى المسجد. هكذا صرنا نذهب إلى المسجد. نركع ونسجد مثله دون أن نعرف شيئاً من طقوس الصلاة، ثمّ تعلّمنا، وعرفنا، بل إنني صرت أذهب إلى المسجد، دون أن يطلب مني أحد ذلك. وفيما أصبحنا نستعد لامتحانات البكالوريا، صارت الصلاة جزءاً من حياتي مستعيناً بالله على اجتياز هذه الإمتحانات بتفوّق، ثمّ تحوّلت الصلاة إلى راحة نفسيّة كلّما دخلت مسجد التوبة في الحي، فأندسّ مباشرة في حلقة الشيخ أمين لأسمع مساجلاته مع زين الذي كان كثير الأسئلة، وكانت الحلقة تكبر يوماً بعد يوم، ما بين الصلاتين كلّ مساء، بل إنّ رجالاً وفتياناً من أحياء أخرى صاروا يحضرون دروس الشيخ الذي اشتهر بسعة علمه ومعرفته بأمور الدين والدنيا. وفي أمسية يوم جمعة، فوجئنا، أسامة وأنا، بزين يسأل السؤال الذي خشينا سؤاله جميعاً، بل ذات يوم سألت أبي وأنا عائد من إحدى الصلوات: من هو الله يا أبت... فصرخ في وجهي: أسكت يا ولد... لا تسأل. هو الله خالقنا جميعاً وهو على كلّ شيء قدير. لكنّ زين كان سؤاله للشيخ أكبر، وشعوره أكثر خوفاً من الإقتراب منه:

ـ ما هو شكل الله يا شيخنا؟

ران صمت من الجميع. فكأن على رؤوسهم الطير ... من يجرؤ على السؤال عن شكل الله؟ فيكرّر زين:

ـ هل صحيح أننا خلقنا على صورته؟

فيقرأ الشيخ:

«ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم». ثمّ يلتفت نحو زين قائلاً:

ـ لا نعرف يا بني ... لا نعرف ... العلم عند خالق الأسرار ... إنّه على كلّ حال سميع بصير. إنّه بسمع واحد وببصر واحد يرى دبيب النملة في الليلة المظلمة.

يصرخ زين العابدين:

ـ الله ... الله يا شيخ ... ما أجمل ما تقول ... زدنا بربّك ...

ثمّ يميل يميناً ويساراً، وسبحته تطقطق بين أنامله عالياً: مدد ... مدد.

يطرب الشيخ أمين، عندما يلاحظ أن العيون كلّها شاخصة إليه بإنتباه شديد:

ـ سبحانه ... إنّه يقول للشيء كن فيكون.

فإذا بزين يعلو صوته بما يشبه البكاء: أهو عذابي الذي يحرق فؤادي بإرادته ... ؟ سبحانك يا رب.

يرفع الشيخ كفّه بوجه زين:

ـ اسكت ... اسكت ... ما أنت فيه أنت صاحبه وبإرادتك.

«خشيت أنّ الشيخ يعرف ما الذي يحرق فؤاد زين ... لأنّه وهو يقول له تلك الكلمات رمق أسامة بنظرة لم أفهم معناها» ثمّ إنّ الشيخ تابع موجهاً كلامه لزين:

ـ أعطاك الله العقل لتسترشد به وتعرف الخطأ من الصواب.

يحني زين رأسه ملامساً صدره بخشوع. وبكثير من التبتل والإيمان يعود صوت الشيخ كأنّه آتٍ من بطن الوادي، بصدىً يتردّد في الحرم بما يشبه

السحر: «إنّ أمره تعالى نافذ وواجب على جميع الخلق مهما أُخبر به من وعد ووعيد، فإنّه حق وأمره كلامه، وكما أنه عالم مريد قدير سميع بصير، فإنّه متكلّم وكلامه بغير حلق ولا لسان ولا فم ولا أسنان. والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة على الأنبياء... يقاطع زين: دعنا من التوراة يا شيخ، يرفع الشيخ يده مجدّداً: اسكت يا ولد، اسكت لا تقاطعني. ثمّ يجيل الشيخ النظر بمن حوله، فيجد الإصغاء في ذروته، يتشجّع على المتابعة:

ـ وكما أنّ الكلام عند الآدمي حرف وصوت، فكلام الله منزّه عن الأصوات والحروف، إنّ جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك ولا خالق، بل هو الخالق الوحيد، ومهما خلقه من تعب ومرض وفقر وعجز وجهل فعدل منه، ولا يمكنه الظلم في أفعاله لأن الظالم هو الذي يتصرّف في ملك غيره. والخالق تعالى لا يتصرّف إلاّ في ملكه. وليس معه مالك سواه. وكل ما يكون هو كائن فهو ملك له، وهو المالك بلا شبيه ولا شريك.

ـ ما هي الروح يا شيخ... ما هو الجسد؟. يصيح أحد الحاضرين.

ينظر الشيخ ناحية السائل، ثمّ يقول له: هل أنت جديد بيننا يا بني؟

ـ إي والله يا شيخ... شهرتك سبقتك إلينا... أطال الله في عمرك.

ـ إسمع يا بني... إنّه تعالى خلق العالم من نوعين جسد وروح، وجعل الجسد منزلاً للروح لتأخذ زاداً لآخرتها من هذا العالم. وجعل لكلّ روح مقدرة تكون في الجسد. فآخر تلك المدّة هو أجل تلك الروح من غير زيادة أو نقصان، فإذا جاء الأجل فرّق بين الروح والجسد، وإذا وضع الميت في قبره إعيدت روحه إلى جسده ليجيب على أسئلة أنكر ونكير.

يهتف زين العابدين:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

يرفع الشيخ يده:

ـ لا تكفـر يا بني ... لا تكفـر ، هؤلاء ملكان من مـلائكة الله للحسـاب الأوّل ، حمانا الله من الحساب الأوّل والأخير .

يعترض زين :

ـ ولكنّ اسميهما يا شيخ أمين ... اسميهما مرعبان!

الشيخ :

ـ دعني أتمم كلامي ... لا تقاطعني .

يطقطق زين بسبحته وهو يردّد :

ـ مدد ... مدد يا شيخ .

فيقول الشيخ :

ـ أنكر ونكير شخصان هائلان عظيمان ، يسألان الميت : من ربّك ... ومن نبيك . فإن استعجم ولم يجب عذّباه ، وملأ قلبه حيّات وعقارب .

ـ وفي القيامة يا شيخ؟!

ـ يوم القيامة يوم الحساب . والمكافأة والمناقشة والمجازاة ، يردّ الله الروح ثانية إلى الجسد وتنشر الصحف وتعرض الأعمال على الخلائق ، فينظر كل إنسان في كتابه ويرى أعماله في ميزان الأعمال ويشاهد أفعاله . ويعلم مقدار طاعته ومعصيته ، وتوازن أعماله في ميزان الأعمال . ثمّ يؤمر بالجواز على الصراط . •

ـ وماذا تعرف يا شيخنا الجليل عن الصراط؟ أمددنا ... أمدّك الله بالخير .

ـ إنّه أدقّ من الشعرة وأحدُّ من الشفرة ، يعبر هذا الصراط من كان في هذا العالم على الطريقة المستقيمة الصالحة ، فإن لم يكن على السيرة المحمودة والأعمال الصالحة الرشيدة يقع في جهنّم .

ـ قلت يا شيخ كل من في العالم؟

ـ نعم ... يا بني .

ـ وليس هذا وقفاً على المسلمين وحدهم؟

ـ أسكت يا زين ... اسكت لا تضيعني ... العلم عند ربّك على كل حال .

ـ يعني يا شيخ ـ ولا مؤاخذة على المقاطعة ـ هناك ناس أخيار من كل الأديان، يحبّون الله ويعبدونه . حتى وإن كانوا غير مسلمين!

ـ أنا أتحدّث عن المسلمين يا بني .

ـ كنت تتحدّث عن العالم كلّه يا شيخ .

ـ نعم ... نعم ... لكن يبقى العلم عند ربّك . فلا تدخلني بمتاهة يا زين .

ـ لا أفهم مثلاً ـ يسأل أحدهم ـ كيف يذهب مخترع البنسلين إلى جهنّم، وهو وغيره من الذين أعطوا البشريّة أعظم الإنجازات ولم يكونوا مسلمين، أمن المعقول أن يذهبوا إلى جهنّم وبئس المصير؟ .

ـ اسمعوا يا أبنائي جميعاً ... ربكم هو العليم ... الكل يُوقفون على الصراط . ويُسألون عن أعمالهم وأفعالهم . فيسأل الصادقون عن صدقهم، ويمتحن المراؤون والمنافقون ويفضحون ... فمن الناس قوم يدخلون الجنّة بغير حساب . وجماعة يحاسبون بالرفق والمسامحة، وجماعة يحاسبون بالصعوبة والمناقشة والمحاققة، ثمّ يسحب الكفار إلى جهنّم بحيث لا يجدون خلاصاً . ويدخل أهل الإسلام والمطيعون إلى الجنّة، ويؤمر بالعصاة إلى النار، وكلّ من نالته شفاعة الأنبياء والعلماء والأكابر عُفي عنه .

ـ هل ستشفع لي في ذنوبي . ما تقدّم منها وما تأخّر يا مولانا الشيخ؟

ـ أعوذ بالله يا زين العابدين . تقاطعني دائماً . وهؤلاء كلّهم يصغون إليّ .

ـ ألا تريدني أن أفهم . أن أتعلّم يا شيخنا ... أسأل لأصل إلى الحقيقة .

ـ أحياناً السؤال يؤدي إلى الكفر يا زين ... احذر ... احذر ... المتصوفة معظمهم كافر، لأنّهم يردّدون السؤال تلو السؤال ... أبو العلاء المعرّي وغيره ... كفروا لكثرة ما سألوا ... اسمع وتعلّم، فأنت مثل هؤلاء . ونحن العلماء سبقناكم إلى المعرفة بإذن الله ... إذا ظللت تسأل، أطردك من حلقتي ... هل فهمت؟

ـ عذراً يا شيخ ... ما أردت إغضابك والله .

ـ إذاً ... إسكت . إنّك تشتت أفكاري بأسئلتك .

ـ لكنني أُحاججك من أجل المعرفة يا سيّدنا ... وإلا ما معنى أن نتحلّق حولك لنفهم سرّ الكون؟!

يغمض الشيخ أمين عينيه ويطرق . فيسود صمت تتخلّله طقطقات السبحات المختلفة الألوان . يرفع رأسه وهو ينظر مباشرة في وجه زين العابدين :

ـ من حقّك أن تعرف يا بني ... من حقّك أن تعرف .

ثمّ يخاطب الشيخ الجميع :

ـ لقد أيقظني زين على شيء مهمّ ... أعتذر منكم ... نعم ، من حقّكم أن تعرفوا ، وأن تطرحوا الأسئلة ... إسألوا ... وعلى قدر معرفتي أجيبكم .

ـ مدد ... يا شيخنا ... مدد ...

يضع الشيخ أمين سبحته في حضنه ، ثم يشبك أصابع يديه ، يُطرق دون النظر إلى أحد ، يرفع رأسه ويتكلّم :

ـ آخر الأنبياء نبينا محمّد عليه الصلاة والسلام ، وبه ختم الله سيرة النبوة إلى أبد الآبدين . وجعل أصحابه خير أصحاب الدنيا . صلوات الله عليهم أجمعين .

فصاح واحد من الزاوية :

ـ لكن يا شيخنا ... فسد الدهر الآن ... وانتشر الكذب والنفاق .

وقال آخر :

ـ المال أصبح هو المعبود يا شيخنا . تموت أم من أجله ، وتنشب حروب .

يصرخ زين العابدين :

ـ أما من نبيّ جديد ينقذنا ... أما من مصلح آخر؟!

ـ يا أبنائي ... إنّكم تحرجوني بما لا أعلم ولا أعرف.

ـ ولكن، يا شيخنا إذا كان الله قد ختم الأنبياء بنبينا صلّى الله عليه وسلّم، ونحن نعرفه ولا نعرفه، ولسنا أشباهاً له ... فمن أين لك هذا العلم أطال الله عمرك؟

ـ إنّكم بحاجة جميعكم إلى العلم وقراءة كتب الأقدمين والأولين. كلّ ما قلته لكم ليس من عندي، ولا من تأليفي. إنّه عن حجّة الإسلام الإمام الغزالي الذي لا يعلو عليه مقام، والذي كان بقدرة الله يدخل بعمق المسألة الوجودية، فأدرك ببصيرته النافذة أن الله خالق هذا الكون، لا نعرف له شكلاً ولا طولاً ولا عرضاً. وهي إرادة الخالق سبحانه.

يصمت الشيخ لحظات. ثمّ يقف مردّداً: يا الله ... يا الله.

وقف الجميع تقدّموا من الشيخ ينحنون على يده لتقبيلها فيسحبها تباعاً، إلى أن وصل أسامة، فأمسك الشيخ بيده:

ـ أنت تجيء لأوّل مرّة ... أليس كذلك يا بني؟

ـ نعم يا شيخنا.

ـ هل أنت من هذا الحي؟

ـ لا يا سيدي.

ـ من دلّك علينا يا بني؟!

يلتفت أسامة نحوي أوّلاً، ثمّ نحو زين العابدين ويشير إليه.

ـ إنّه ذاك يا سيّدي.

فيلمح نبيل فرحاً طاغياً على وجه زين العابدين.

ـ حسناً ـ يقول الشيخ ـ وفيما هو يربت على يد أسامة يقول بصوت عال:

ـ أرأيت ... أسمعت؟

ـ نعم يا مولانا ... رأينا وسمعنا.

ـ إنكم تتزوّدون بعلم لا تعرفونه، لا في مدارس اليوم. ولا في جامعات الأمم. المسجد هو الأجمل يا أولادي.

ثمّ يلتفت نحو نبيل:

ـ المسجد قرب بيتكم، أتمنّى أن أراك دائماً هنا... إئتِ بكلّ أصدقائك إلى هنا تنل من الله الثواب.

يصمت، يطرق إلى الأرض، يسمع الجميع صوته:

ـ إرحموا أنفسكم يا أبنائي... إرحموا أنفسكم.

«ونحن ننسحب من المسجد يقترب زين العابدين من أسامة ويشكره لأنّه أشار للشيخ إلى من أقنعه بالمجيء إلى المسجد، ثمّ يقف ممسكاً بنا نحن الإثنين، تجول نظراته بين وجهي ووجه أسامة، يطرق قليلاً، نلمح اضطراباً وتعرّقاً في وجهه، وتخرج الكلمات بطيئة من فمه:

ـ من فضائل ربّي عليّ أنني أشعر بسعادة فائقة عندما أكون معكما.

ويلتفت نحو أسامة موجّهاً الكلام إليه:

ـ إنّك يا أسامة من نعَم الله. أكنّ لك عاطفة فوق ما أستطيع سترها. الله أمر عباده أن يتحابّوا ويَتواصلوا دون كره أو حقد.

فيسأله أسامة:

ـ لماذا لا تحب نبيل مثلي... لا تشتاق إليه كما تشتاق إليّ، لا تحاصره مثلما تحاصرني وتلاحقني أينما كنت. والله لا أحبّ ذلك يا زين.

يطرق زين العابدين وهو ممسك بيد أسامة:

ـ لا أدري... لا أدري. عواطفي تغلبني يا أسامة. تسيطر عليّ، وتخنقني. لا أستطيع أن أقول لك إلاّ أنّك الأقرب إلى قلبي. ويلتفت نحوي: لا تزعل يا نبيل من صراحتي هذه. أنا لا أكذب ولا أحب الكذب، الذي في قلبي على لساني. وما باليد حيلة.

فأشكر الله في سري الذي خلقني إنساناً عادياً، لا يملك وسامة أسامة. وزين ينظر إلى وجهه: إنني أرى فيك جمال الخلق، وجهك يذكّرني بعظمة الخالق الذي خلقك في أجمل تقويم، ما إن أراك حتى يدبّ الخشوع في أعماقي وأنا أردّد: يا سبحان الله!

فيقول أسامة ساخراً:

ـ أنظر إلى النساء يا رجل... النساء أكثر جمالاً وأكثر إيحاءاً!

ـ لا... لا ـ يقاطعه زين العابدين ـ النظر إلى النساء حرام. دائماً أغضّ الطرف عن كلّ عابرة طريق... من يصدّق أنّني لا أتذكّر حتى ملامح وجه أمي رحمها الله. لا أنظر إلى العورات. لا أسترق النظر إلى أي امرأة. خذني أخاً لك يا أسامة، إنّك أصبحت جزءاً مني، من روحي، من عواطفي.

وكأنّ أسامة أمسك برقبة زين العابدين بعد هذه العبارة مباشرة: قف. قف عندك يا زين... أإلى هذا الحد؟! خفّف من غلوائك أرجوك... إنّك لا تعرف ماذا تقول. وينفلت من يده. مبتعداً وهو يقول لي: أراك في الكليّة يا نبيل.

ظللت واقفاً في مكاني محرجاً، لا أدري ماذا أفعل. شعرت كما لو أنّ زين يختنق بالبكاء. أردت أن أقول له كلمة تخفّف من وطأة الموقف. لم أستطع، وهو ظلّ جامداً في مكانه كتمثال، مطرقاً على الأرض مغمضاً عينيه. إحترت ماذا أفعل. هل أتركه... هل أظلّ معه؟ لكن سرعان ما رأيته يتحرّك، يلتفت نحو الجهة المعاكسة التي ذهب منها أسامة، وانسحب من أمامي ببطء شديد. ظللت أرقبه من مكاني، كان يمشي وئيداً يخاف أن يؤذي الأرض بخطواته، أبتعد كثيراً، فمشيت وأنا أشعر بحزن وأسى، متسائلاً عن هذا النمط من الناس، عن هذا العشق الغريب الذي يعاني منه زين ولا يستطيع الفكاك منه».

ذلك أن الشيخ أمين نفسه صار يعرف. يرى زين العابدين يمسك بأحد أعمدة المسجد يصرخ بصوت باك مسموع: يا رب... نجّني من هذا الإحتراق... أسياخ نار في كبدي. إنكَسر قلبي يا ذا الجلال والإكرام، نجّني من عذاب الدنيا والآخرة. إغفر لي شطط القلب، أمتني يا رب. إريد أن أرتاح.

يسأل الشيخ أمين عابراً بنبيل: ماذا به؟ أنت صاحبه وخلّه الوفي، قل لي يا بني. زين العابدين يتلوى بنار جهنّم وما قامت القيامة... ألا تعرف... ألا تعرف؟

«هل يوحي لي أنّه لا يعرف...؟ ماذا أقول للشيخ وهو الذي يعتبر زين العابدين من أشد تلامذته إيماناً وأكثرهم مجادلةً ليعرف ويتعلّم ويغوص في أمور الدين والدنيا... هل أقول له إنه يعشق أسامة؟ لو فعلت سيحتقره. سيطرده من حلقته. كانت تربكني حيرة شديدة، كلّما حاول الشيخ أمين أن يعرف مني تفاصيل ما يحدث. وثمّة مناد بصوت وردة النرجس الرقيق في أعماقي: إياك أن تشوّه الصورة. أترك كل شيء على حاله. القدر وحده سيجد حلاً. أي حلّ كان.

بعد ذلك اللقاء العاصف، غاب أسامة عن الحي تماماً. وصار يتحاشى حتى الإتصال بي، وزين لا يكف عن السؤال تلو السؤال. وكأن مسّاً من الجنون ركبه. فبات يطوف الشوارع. ويقف على مزارات الأئمّة الصالحين. وهو يردّد بلا توقّف، بما يشبه الهذيان: الله... الله... الله».

«أخذته الحال» يقول الشيخ أمين. لم تعد له علاقة بالدنيا وأهل الدنيا. أصبح مندمجاً بالعالم الآخر. عالم الأخيار الطيبين... هكذا يدافع عنه الشيخ: إن زين العابدين أصبح من أهل الله.

«أسامة الذي غاب كل هذا الزمن يسألني عن أحوال زين. فقلت له عبارة واحدة: قتلته يا أسامة. فقد أهمل زين نفسه إهمالاً كبيراً، استرسلت لحيته، وطال شعره. وكان الناس الذين لا يعرفونه يضعون في كفّه الممدودة إلى السماء مالاً. فيسرع ويعطي المال لأيّ طفل عابر.

بات الشيخ أمين بعد ذلك. قلقاً عليه أشدّ القلق. وأصبح لا يفارقه إلاّ نادراً، يحاول أن يجمع عنه كلّ شيء ليعرف الأسباب التي أودت به إلى هذه الحالة، كان يقول لنا كلّما التقيناه: لا أسمع من زين العابدين إلاّ صرخة المتبتل بذكر الله ورسوله والأنبياء، مناجياً ربّه أن يأخذه إليه وينقذه من هذه الهلوسة المجنونة... أيمكن أن يتحوّل عشق الجمال إلى عشق إلهي... ربّما، حتى كانت ذات ليلة وأنا عائد إلى المنزل، من سهرة عند

أصدقاء، فإذا بمخلوق قابع بجانب الباب، مقرفص وغامر رأسه بين يديه دون حراك. توجست خيفة، وجمدت في مكاني بعيداً عنه خطوات. لكنّه لم يتحرّك، فسعلت مرّة ومرّتين. لكنّه لم يتحرّك، خلته نائماً، فتقدّمت من باب البيت، وأخرجت المفتاح، وما أن وضعته في الثقب، حتى سمعت صوتاً كأنّه من عمق بئر:

ـ نبيل... يا نبيل.

إلتفتّ إليه، فوقف. بدا لي شبحاً مخيفاً تحت نور المصباح الضئيل. للوهلة الأولى لم أعرفه، ثمّ أدركت أنّه زين العابدين. اقترب مني وأمسك بيدي ثمّ همس:

ـ أما من أخبار عن أسامة؟

طرح سؤاله كأنّه يستعطفني:

ـ نبيل... أما من أخبار؟

قلت:

ـ إنّه يسلّم عليك.

ـ أصحيح يسلّم عليّ؟

ـ والله يسلّم عليك.

أمسك بيدي وقال:

ـ تعال... إليّ...

ـ أين يا زين؟.

ـ أرجوك تعال...

مشيت معه، كانت يده المرتجفة باردة. بل خيّل إليّ كأنّه كلّه يرتجف. مشيت معه حتى اقتربنا من باب المقبرة الملاصقة للحي. سألته:

ـ إلى أين؟ قال:

ـ لا تخف... هل تخاف من المقبرة؟

ـ ولماذا ندخل المقبرة يا زين ... نذهب إلى الشارع ... إلى البستان المجاور ... ماذا لو رأونا معاً في المقبرة؟ همس:

ـ أتخشى على نفسك إلى هذا الحد ...

قلت له:

ـ إسمع يا زين، أحدّثك بيني وبينك، حكايتك مع أسامة صار يعرفها كثيرون.

ـ ما هي حكايتي مع أسامة يا نبيل؟

ـ حكايتك معه. ما أنت فيه الآن.

يطرق إلى الأرض لحظات، قبل أن يرفع نحوي عينين دامعتين. ثمّ يقول:

ـ أرجوك ... المقبرة أكثر أنساً، أريد أن أحكي لك شيئاً.

ـ أروه الآن يا زين.

ـ يا نبيل ... حتى أنت صرت تخافني؟

ـ أخافك! ولماذا أخافك ... ما الذي يخيف فيك؟

ـ آه ... صحيح. لا شيء يخيف فيَّ. لكنّ الناس تخافني، إنّهم يتحاشونني، صرت نكرة، حتى الشيخ أمين يكاد يطردني من حلقاته.

ـ الحق معه يا زين. الحق مع الناس أن يتحاشوك ... ماذا فعلت بنفسك يا رجل ... أين إيمانك بالله؟ أين اليقين العظيم الذي كان يسكن نفسك المطمئنّة؟ ما الذي أشعل النار في فؤادك؟.

ـ وتسأل يا نبيل ... هل أنت تتجاهل وأنت الذي يعرف كلّ شيء؟»

كانا قد عبرا الباب الصغير الذي يؤدي إلى المقبرة التي بدت مضيئة على الرغم من ظلمة الليل، بشواهدها البيضاء وبرخام قبورها، إلى أن اقتربا من شجرة الجوز الضخمة، التي كان يتظلّل بها ذات يوم ألماس[1] أسطورة الحي

---

(١) راجع رواية «مصرع الماس» للكاتب.

الشعبية، هناك حيث يترك حفارو القبور بضع كراسٍ واطئة، فجلس زين على إحداها بينما جلس نبيل على أخرى.

- إي يا زين... إصحَ. ألا يكفيك ما أنت فيه؟ يا رجل شرشحت حالك.

رفع زين يده المرتجفة عالياً:

- رويدك يا نبيل... رويدك... ما بيدي الذي حصل. أريد أن أخرج من هذا الشيطان الذي تلبّسني وقهرني وكسر قلبي. ليس أسامة. ما دخله أسامة؟ إنّما شيطان آخر يأكلني من داخل. ينهش كبدي بلا رحمة. ساعدني يا أخ نبيل. ساعدني في الخلاص... أريد أن أنجو فأغرق، أريد أن أبرد فأحترق، غابت الدنيا، وسوط هذا الشيطان يسلخ ظهري... أهو عقاب من الله؟!

- لماذا يعاقبك الله يا زين... ما فعلت إثماً؟

«أقول له وأنا أُدرك أنه فعل كالإثم، أحاول أن أخفف عنه مأساته»:

- كنت لربّك في العشي والصباحات، كنت له آناء الليل وأطراف النهار، فلماذا يعاقبك؟

- إذاً... ما هذا الذي يحصل لي الآن؟

- هذا ما صنعته يداك... وعوض أن تتجه هذه العواطف إلى مكانها الطبيعي، إلى الجنس الآخر، اتجهت إلى مثيلك. هذا هو الخطأ الكبير.

يلهث زين كأنّ آلاف الوحوش تطارده:

- ما باليد حيلة. إنّه الغلام الذي أراه في الجنّة.

- لا تخلط هذا بذاك. غلمان الجنّة لخدمتك... وليس لتعشقهم. إصحَ يا رجل.

- لا أستطيع يا نبيل، وحق أخوتك عليّ، لا أستطيع. أمشي فيمشي معي، أنام فيلتصق بي، أصحو فأراه أمامي. إنّه الشيطان بعينه، يظهر لي

بمظهر أسامة فتختلط عليّ الأمور، إنّه هو، بلمسة يده الدافئة، بوجهه الجميل. ما عدت أعرف ما أنا فيه. لا تظلموني، أذوب في عشق الذات الإلهية فيحشر هذا الشيطان نفسه بين فؤادي وعقلي، بين دمي وأعصابي، وما من فكاك منه... قل لي ماذا أفعل؟.

يقترب نبيبل منه. فيرى دموعه تلتمع في عينيه:

- لماذا لا تلجأ للشيخ أمين... إنّه شيخك. وعلى يديه تتلمذت، وتعلّمت أصول الدين. وحفظت القرآن والأحاديث، ومنه سمعت قصص الأوّلين والآخرين. ووحدك الذي يتجرأ في محاججته في هذه الأمور. إنّه إنسان تقي منصف منصرف بوجدانه وقلبه إلى الله، لعلّك على يديه تنجو يا رجل، إنّه قلق عليك أكثر من أي إنسان آخر، لا بد أن تجد عنده الدواء من هذا الداء.

نهض زين العابدين. ويمم عمق المقبرة، دون كلمة وداع. فتساءل نبيل في قلبه وعقله وأفكاره «هذا العشق... أهو العقاب... ما أفدح ما آلت إليه حال زين العابدين».

ويلتقي الصديقان ... .

يحدّق أسامة إلى وجه نبيل ثمّ يسأله :

ـ أترى زين العابدين رجلاً؟

لم يفهم نبيل السؤال :

ـ ماذا؟

ـ هل هو رجل؟

يضحك :

ـ على حد علمي ، إنّه رجل . يرتدي لباس الرجال ، يؤم المسجد ويصلّي مع الرجال . يجادل في الدين بالتي هي أحسن . صوته صوت رجل ، له شاربان ... ألا ترى شاربيه؟ انحسر شعر رأسه عن صلعة صغيرة . (يضحكان) .

عاد أسامة يحدّق من جديد في وجه رفيقه ، رفيق العمر حتى الممات (هكذا تعاهدا) قال :

ـ أتذكر عندما أصبح زين العابدين مديراً لمقهى بلودان؟

ـ طبعاً .

ـ أنت لم تكن معنا ، كنت مع السمن والزيت والبرغل والرز في سوق البزورية .

ـ إي نعم.
ـ ما حصل هناك يشيّب شعر رأسك.
ـ أخبرني.

يكفهر وجه أسامة، بدا في تلك اللحظة متغضّناً، شديد الخطوط والتعاريج، كأنّه استحضر شيئاً مرعباً شديد الأثر في أعماقه. ثم سأل صديقه:

ـ احزر ماذا طلب؟

أدرك نبيل خطورة السؤال. خاف أن يقول لا لا ... لا تقل لي شيئاً أرجوك. لا يريد أن يشوّه صورة زين العابدين أكثر ممّا هي مشوّهة الآن، زين العابدين ـ يقول نبيل لنفسه ـ زين رجال الحي. إنّه مقتنع أنّ إعجاب زين بأسامة إعجابه بالخلق الجميل الذي يضعه الله في عباده. لا يمكن لزين أن ينحدر، الإيمان يُحصّنه من كلّ سقوط، يحصّنه ضدّ كلّ ما هو خطيئة وكفر وإلحاد، هكذا يحاول إقناع نفسه، عكس الحقائق التي عرفها عن قرب وشاهدها.

«ظللت صامتاً... أدرك أسامة ماذا يعتمل في نفسي» قال:

ـ إسمع يا نبيل... سأروي لك كلّ شيء... أنت تعرف أنني أحبّ رياضة ركوب الدراجة، خصوصاً في الصباح الباكر، إنّها رياضتي المفضّلة، وقد اصطحبت درّاجتي إلى المصيف. وذات صباح ارتديت بدلة رياضية، وامتطيت الدراجة منطلقاً بها في شوارع بلودان التي كانت شبه خالية في هذا الوقت المبكر، وبطبيعة الحال مررت بالقرب من المقهى، الذي كان في ذلك الوقت فارغاً من رواده، لمحت زين العابدين جالساً على طاولة قريبة من الرصيف، يرتشف القهوة، ما إن رآني حتى نهض مرحّباً، ترجّلت وجئت مسلّماً. وبينما أنا أصافحه إضطرب اضطراباً كبيراً، تجاهلت ما رأيت. وسألته عن الصحّة والشغل. تلك الأسئلة التقليديّة. ما فكّ يده من

يدي. بل راح يضغط عليها ضغطاً مستمراً، تغيّرت ملامح وجهه تماماً، ذلك الوجه الأليف. الهادىء، الملائكي الحنون. تبدّل بسرعة غريبة. أصبحت سحنته صفراء مرعبة، كما لو كانت سحنة شيطان، كان ثقبا أنفه ينفرجان ثمّ يضيقان. وكان شهيقه وزفيره مسموعين. حاولت أن أسحب يدي من يده، فشدّ عليها أكثر. لا يريد أن تفلت منه قال: ألا تشرب القهوة؟ لن أترك يدك إلا إذا وافقت على شرب القهوة. بدا لي مصمّماً على ذلك فوافقت. أسندت الدراجة إلى الجدار، عندئذ شدّني من يدي إلى الداخل، مشيت معه حتى غرفة الإدارة. قال: لم يأت أحد من العمّال بعد. سأصنع لك القهوة بنفسي، دخل المطبخ وعاد بعد قليل بالقهوة، قدّم لي فنجاناً، ثمّ سحب كرسيّاً وجلس بجانبي. قلت في نفسي لا بد أن أعرف الآن ماذا يريد. بدأ يرتشف القهوة وهو يحدّق نحوي بوله عجيب، قال: أسامة... يا أسامة. أجبته: نعم... قل يا زين ما في نفسكَ، وضع راحته المرتجفة على فخذي المكشوف. فأحسست ببرودتها الصقيعية. نظر إليّ، واضعاً عينيه في عيني ثواني معدودات، أدركت أنّه متردّد فيما يريد قوله. صبرت. عاد وأطرق إلى الأرض، في حين راحت أنامله تضغط على فخذي. لحظات. رفع رأسه وقال بصوت خفيض: أحبّك يا أسامة... أحبّك. تجاهلت حرارة العبارة، وقلت له بهدوء: وأنا أيضاً أعتزّ بك كأخ، وأحترمك. صرخ فجأة: لا... لا... لست أخاك... أنت حبيبي وأنا أحبّك. اضطربت اضطراباً كبيراً، وخلت نفسي أنني سأضربه. بل تحفزت إلى ذلك. لا بد أنّه شعر بما كنت أفكّر فيه لا... لا... لا تفعل يا أسامة. ألا تقرأ القرآن والأحاديث. ألا تعرف أنّ الحبّ نعمة من الله. أُنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذا برجل يمرّ، فقال رجل من القوم: يا نبي الله، إنّي لأحبّ هذا الرجل. قال: هل أعلمته بذلك. قال لا. قال: قم فأعلمه. فقام إليه. فقال: يا هذا، والله إنّي لأحبّك. قال: أحبك الذي أحببتني له. هكذا أسامة. أحببني كما

أحبّك، لا تفكّر بي خطأ. ألا تؤمن بالحب. ألا تحب إنساناً يحبّك، يتمنّى أن تكون إلى جانبه لا تفارقه. هل هذا عيب؟ فأجبته: إذا كان ذلك صداقة وأخوّة فلا عيب فيه، غير ذلك عيب.. ما أرى فيه إلاّ شذوذاً، أقول لك صراحة، أنت رجل شاذ يا زين. صاح فجأة: لا تقل ذلك. لست شاذاً أبداً.. أنا أحبّك. وهل الحبّ شذوذ؟ أحبّك من كل قلبي. ثمّ خطف يدي وراح يقبّلها كمن مسّه خبل. حاولت سحبها من يديه. لم يفلتها، شدّ على أناملي بقبضة قويّة كادت تنهرس فيها. يا زين خلِّ يدي، صحت به. قال: لا.. لا، حتى تسمع كلامي إلى نهايته. قلت: ها أنا مصغٍ قال يجب أن تفهمني. أنا أتعذّب، أتحرّق شوقاً إليك، لا أنام الليل. صورتك تدهمني في اليقظة والأحلام، إنّك هذا الهواء الذي أتنفّس. أنا عاشق، نعم، ومجنون بك. لا تريم، لا تغيب عن البال. أراك في كأس الشاي وفنجان القهوة.. عندما أضع مبسم النرجيلة على فمي أتلمّس فمك. أنت المنى والطلب، أنت سيّد الفؤاد ودواء القلب. أنت السيّد وأنا عبدك المطاع. أأمرني أقطع يدي.

ينظر نبيل إلى أسامة مندهشاً: أصحيح هذا الكلام... لا أصدّق... زين العابدين يتكلّم بهذه الطريقة.. لا أصدّق... لا أصدّق.

ـ أنا أيضاً استغربت، يقول أسامة، لو كنت مكاني لطاش عقلك...

ـ ثمّ ماذا؟. بربّك هل تقول الصدق يا أسامة؟

ـ لماذا الكذب في موضوع من هذا النوع، وحق أخوتنا. لا أزيد ولا أنقص، بل أكثر من هذا، أخفف كثيراً من إيقاع كلماته والأسلوب الذي كان به ينطق. كلمات خيّل إليّ أنّه كان يكتبها. ثمّ يعيد حفظها عن ظهر قلب، لغة ما قرأنا مثلها. لا في الكتب، ولا في مصارع العشّاق، لغة عجيبة لم أتصوّر أنّ زين يستطيع أن يتحدّث بمثلها. لا أحفظ كل ما قال. ثمّة عبارات علقت بذهني، في الحقيقة ـ اعترف لك ـ أطربتني. وأشاعت

في نفسي غروراً أنكرته فيما بعد. أسمع هذه المناجاة التي لو سمعتها منه امرأة، لسجدت على قدميه: يا عشيقي وحبيبي ودرة قلبي. أهواك هوى أموت ولا يموت، أنت البعد والقرب، وفيك الخصام والحكم. نجّني من هذا العذاب الحارق الذي يولع النار في الفؤاد. كان يردّد هذه الكلمات بخشوع الصوفي المتبتّل... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. يغويني أنا الآخر. بل كأنّ سحراً مسّني. فبتّ محدّقاً به. كأنّ روحي انفصلت عني ودخلت في روحه. لا.. ليس إنساناً هذا الذي يخاطبني، إنّه ممسوس، جنّي من تحت الأرض، ليس زين العابدين أبداً. ليس ذلك الزاهد الذي حياته صلاة وابتهالات وحلقات ذكر في المقامات المقدّسة، إنّه مخلوق آخر. شيطان يتكلّم لغة أخرى، لها إيقاع ساحر: «يا مليك القلب لا تعذّبني، احمني من هوج العاصفة، وردُّ قلبي، يا نار الفؤاد كوني برداً وسلاماً عليّ كما كنت برداً وسلاماً على ابراهيم وآل إبراهيم. أسامة يا عذب الشفتين ارحمني.. ارحمني». ثمّ سجد على الأرض ووضع رأسه على ركبتي وراح يبكي، أثار في نفسي الشفقة والشجن في آن. أإلى هذا الحد يتعذّب زين؟ لم أعد أدري تلك اللحظة ماذا أفعل... هل أدفعه بقدمي وأبتعد؟ كيف أفعل ذلك، ورجل بطوله وعرضه يبكي على ركبتي كالأطفال. التراحم في الذات الإنسانيّة موجود يا نبيل. بربّك ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني. شخصيّاً اضطربت. وأمسك التردّد عنقي حتى الإختناق. كان زين العابدين يرتجف ويجهش كوحش مذبوح. ممسكاً بساقي، دموعه الساخنة بلّلتني، لم أعد أدري ماذا أفعل. ثمّ رحت أهدىء من روعه: كفى يا زين.. كفى.. بالله عليك كفى، لا يمكن أن أتصوّر أنّني أسبّب لك كل هذا العذاب. اهدأ يا رجل. إنّك في خطيئة لا يغفرها لك الله ولا الدين ولا الناس... إصح يا رجل... ما هذا الذي أنت فيه. لا أصدّق... لا أصدّق. أيمكن لرجل أن يعشق رجلاً. لا توقع نفسك في هذه البئر يا رجل وإلاّ مصيرك جهنّم. وكأنني أشعلته من جديد: «تقول لي جهنّم.. أنت جهنّم التي لا تعادلها أي جهنّم أخرى. لا تطفئها في فؤادي

إلا العناق. ما أجملك يا حبيبي وأحلاك. آه لعينيك الزرقاوين ولحمرة خدّك. آه لنعومة وجهك ولشعرك الذهبي. . يا لكَ من ساحر يا حبيبي».

وهنا، كان عليّ أن أحزم أمري. فصرخت به: مالكَ يا زين. . هل جننت؟ هل تتخيّلني امرأة لتصبّ على رأسي كل هذا الكلام المبتذل؟

صاح تاركاً دموعه تسحّ على وجنتيه: لا ... لا. لست أنت من جنس النساء ولا من جنس الرجال. . أنت شيء آخر ... مخلوق من الجنّة ... نعم ... نعم. أُصدق ربّي القول، أنت غلام من غلمان الجنّة.

ولعلّني وجدت في هذا الكلام مخرجاً من المأزق. فقلت له ممازحاً: طيّب يا زين. . لننتظر حتى نذهب إلى الجنّة. فقال من خلال دموعه: العلم عند الله. فماذا لو كان مصيري جهنّم فلا أجتمع بك ولا أراك. وهنا حبكت النكتة معي فقلت له: والله، ونحن في هذه الحال، أنا وأنت في جهنّم. ثمّ عدت أقول جاداً: يا مجنون. . أنت تفهم الأمور بالمقلوب ... إنّ غلمان الجنّة لخدمتك لا لأنّ تبادلهم الهوى الحرام ... هل أنت غبي إلى هذا الحد؟ تصوّرت أنّه بدأ يهدأ، لكنّه صاح فجأة: أينما تكن أكن. بل رجوت ربّي أن يكون مأواي بعد الموت حيث مأواك، جهنّم أو الجنّة.

صمت أسامة وقد انتفخت أوداجه. كان منفعلاً إلى حدّ العياء. ثمّ صاح بي: الحق عليك ... من أين جئتني بهذه المصيبة، مصيبة أرجو من الله أن ينجّني منها على خير.

«وأنا أنسحب من المقهى كان صوت أسامة عدّة أصوات تتردّد كالصدى في رأسي، فلا أنسى ما رواه. . . بل أستعيده حتى ضاقت عليّ دراستي والكتب بين يدي. يتعطّل عقلي ويهبط على ما رواه أسامة كالقدر. فالذي أراده زين من أسامة في النهاية لم يخطر على بالي. قال أسامة: ذلك اليوم الرهيب في حياتي. قد لا أشهد أكثر منه قسوة في أي زمن. قلت له: اسمع يا زين. . إنّني احترمك. وأعتزّ بك كأخ كبير. والمفروض أن تكون أكثر وعياً منّي. إنّك رجل مؤمن. ولك سطوتك في الحي، يهابك الكبار والصغار ويحترمونك، أرجوك يا رجل لا تسيء إلى نفسك، لا تسيء إلى صورة الرجل المؤمن المتصوّف والمنصرف عن أمور الدنيا. إنّك الآن تجعلني أراك بصورة معاكسة، أشكّ فيك. أراك عبداً لأهوائك وغرائزك. لست رجلاً طبيعيّاً يا زين. خف الله، ابتهل إليه أن ينجّيك من هذه المعصية، أدخل الرحمن إلى صدرك واطرد الشيطان. لا شك في أنّك ممسوس. هناك من مسّك بسحر ما كي يصرفك عن عبادة الخالق. إنّك تضعني في موقع الناصح وأنا الشاب الذي لا يجاريك في التجارب. . صدّقني، إنّك تثير شفقتي الآن. أكاد لا أصدّق أنّ الرجل المنحني هو أنت. زين العابدين زين الرجال، حتى اسمك الجميل يمنعك من تشويه سمعته. أنت اسم على مسمّى لولا ما أنت فيه الآن من خلل. . . حرام عليك يا رجل. . .

انهض. . انهض. أرجوك. . لم يتحرّك، فأمسكته من تحت إبطيه ورفعته ثمّ أجلسته على كرسيه المقابل، ظلّ ينظر إلى الأرض وهو يرتجف. كان صامتاً، معذّباً عذاباً رهيباً، تلوّن وجهه من الأصفر إلى الأزرق. بدا لي كأنّه سيموت للتو، هل كان مصغياً لكلماتي؟ لا أدري. والله يا نبيل كنت في حيرة من أمري، أنا الذي يجهل نفسه، ويصغي لأبيه في كل نصائحه كالطفل. ها أنا الآن في موقع الأب أمام رجل يكبرني بعشرين عاماً. كنت أشفق عليه أكثر بكثير من الإحتقار. لقد بدا لي في خشوعه وصمته إن أمرته أن يموت لمات من ساعته دون تردّد. قلت له: راجع نفسك يا زين. حاول أن تقتلع هذا الشيطان من أعماقك، إنني أستغرب كيف تسمح أن يجاور هذا الشيطان. الرحمن الذي هداك وما أنت بمهتد. إنّك ترتكب إثماً فظيعاً في هذا التناقض، استحِ يا رجل، عد إلى طبيعتك الإنسانية يا زين.

صمتُّ لأرى وقع ما قلت عليه، فرفع وجهه المضطرب، وراح يحدّق بي بنفس نظرات الهيام التي ما تغيّرت، أدركت أنّ كل ما قلته، لم يدخل قلبه ولا عقله، كان هو في واد، وأنا في واد آخر. شعرت بالغضب يجلدني في أعماقي، أردت أن أغادره، «ابق قليلاً أرجوك»، قلت في نفسي، ليكن إذا كان ذلك يحلّ المشكلة. قلت له: تعال، فأشرق وجهه بفرح طاغ. بل بدا لي وكأنّه لم يصدّق ما سمع، إذ بادرني بالسؤال: هل أصدّق ما أسمع؟. يا رب هل أنا في حلم. قلت له يائساً: لست في حلم يا زين، وفتحت له ذراعي فإذا به يرتمي عليّ ويشدّني إلى صدره بقوّة، وهو يجهش ببكاء جارح، وراح يردّد بهذيان فاجع: اغمرني يا أسامة. . اغمرني يا حبيب الفؤاد وحارق القلب. أشدد عليّ وامنحني حنانك الدافىء. طاوعته، فازداد غرقاً بي ومناجاة: يا أسعد لحظة في حياتي، أمتني الآن يا رب، أمتني الآن.

هنا يا نبيل، دبّ رعب في كياني، إذ تراخت يداه وسقط إلى الأرض دون حراك. فزعت، واضطربت، وظننت فعلاً أنّ الله استجاب إلى

دعائه، فخلّصه وخلّصني. احترت فانحنيت أجسُّ نبضه، دقّات قلبه ضعيفة. ارتعبت. تصوّر، كيف يكون حالي وقد تسبّبت بموته، أسرعت إلى مطبخ المقهى وأحضرت ماء ورحت أرشّه على وجهه. بدأ يستيقظ ببطء. أردت شيئاً أكثر فاعلية، عثرت على زجاجة من ماء الزهر، فرحت أرشّ وجهه وأجعله يستنشق ما في الزجاجة. كنت مضطرباً، جلست على الأرض. رفعت رأسه ووسدته ساقي. رحت أمسّد جبينه وعنقه بضغط خفيف. إستيقظ، نبضات قلبه قويت. فتح عينيه، ثمّ انتبه إلى وضعه، رأسه على ساقي، يدي تعانقه، والأخرى تمسّد جبينه. فاستيقظ يردّد: ما أروعك يا أسامة. ما كنت أعرف أنّ ضعفي سيشدّك إليّ. ما أطيب قلبك وأبهاك. كأنّه لم يعد يريد أن يرفع رأسه عن ساقي وهو يخاطبني، فسايرته، وقلت له: انهض. . انهض. . الحمد لله على سلامتك. قال: سلامتي أنت. أحببني. . أحببني حتى أعطيك كل ما أملك. حياتي وروحي وقلبي.

رحت أهدئه: لا أريد شيئاً يا زين، اعقل وتوكّل على الله، أخرجْ هذا الشيطان من فؤادك. أرجوك، أتعبتني. وما عدت أحتملك على هذه الصورة.

جلس، ثمّ عاد إلى مقعده وهو يتأمّلني من جديد، كان وجهه هذه المرّة ينبيء عن يأس كبير، إذ تغضّن وتجعّد كأنّه كبر دفعة واحدة مائة عام. كان مستسلماً وقد ترك يديه تسقطان إلى جنبيه كأنّهما يدا رجل ميت، كنت أتعذّب من أجله يا نبيل، كنت أريد من كل قلبي أن أساعده. لم أعرف ماذا يريد، لم يوح لي. لم أدرك. كنت أنظر إليه ثمّ أغضّ الطرف، لقد شعرت فعلاً أنّني قتلت هذا الرجل، وما باليد حيلة. وقفت. فلم يتحرّك عن مقعده، ابتعدت عنه بخطوات هادئة، وخشيت أن ألتفت إلى الوراء. كنت أشعر وأنا أبتعد، أنني أخرج من مأساة رهيبة، أترك إنساناً أنا سبب كل عذاباته. وعندما وصلت إلى دراجتي سحبتها بيدي وابتعدت، مشيت

مذهولاً، جلت شوارع البلدة وأنا لا أعرف إلى أين أذهب . . ندمت، كيف تركت الرجل بمثل هذه الحالة، خشيت أن يفعل بنفسه شيئاً، أن يقتل فؤاده بطلقة مسدّس . كنت سأعود ثانية لأطمئنّ عليه . ولكن ماذا لو بادرني بنفس الحكاية . . ومنذ تلك اللحظة لم أقرب ذاك المقهى أبداً، بل تحججت أمام أسرتي بأنني مضطر للعودة إلى المدينة، فقد باتت الإمتحانات على الأبواب» .

«كلّما تذكّرت هذه الرواية التي رواها أسامة أهتزّ ألماً وعجباً. ما هذا الحبّ الرهيب؟ لقد ظننت أنّ غياب أسامة الطويل سوف يعيد زين إلى نفسه فينجو من هذا العذاب وينسى. ما ظننت أبداً - يا سيّدتي الوردة - أنّ غياب أسامة سيقتل زين، أو ما يشبه القتل. . أليس زين العابدين الآن قتيل هوى، ما زال فيه بعض رمق من روح؟».

تقول وردة النرجس: ووحيد

وحيد عاشق لمياء، هو الآخر. بات لا يقلّ ولعاً بتلك الجميلة، نَحُلَ، وصار كعود خيزران، جاءت أمّه إلى أخيها تبكي بحرقة: وحيد يموت يا أخي. . ماذا أفعل. هذه الشيطانة لمياءأخذت عقله. أرجوك إفعل شيئاً من أجله. أنا أختك من أمّك وأبيك. أنا أحقّ من الجميع باهتمامك. يا ليتني ما رأيت. يا ليتني ما فتحت الباب. كأنّني فتحت باباً على عذابي، وحيد ابني البكر. كان نعمة الحبّ في أعماقي قبل أن يتحوّل أبوه إلى رجل خامل، بارد العواطف. لا يهمّه إلاّ الحصول على المال، ما عدت أعني له شيئاً. . لا أنا ولا وحيد. وحيد كان ذروة العرس الأوّل عندما كان لأبيه قلب من عواطف، ولفمه حرارة الأشواق. ارحمه يا أخي، ائت بلمياء لأعتذر لها وأبوس يديها ليلاً نهاراً من أجل وحيد، وحيد يذوي كالشّمعة. وأنت خاله ليس له سواك.

قبّل أبو نبيل جبين أخته وقال لها: اتركيها عليّ يا أختي. وإن شاء الله لا يصير إلاّ الذي في بالك.

وعندما التقى الخال بابنة أخته لمياء، ظنّ أنّ حبّها له وهيبته عليها سيجعلانها تقول أمرك يا خال. لم تقل أمرك، وقفت في وجه خالها عالية الهمة مشدودة القامة: لا يا خالي.. لا أريده.. لا أريده.. صفعتها أمّها على وجهها وصرخت بها: صار عمرك اثنين وعشرين سنة ولا تريدين الزواج. هذا ابن خالتك زين شباب الحي، وتاجر ناجح، ونشأتما سويّة في بيت واحد.. أمّا إنّك حمارة.

لم يثن هذا الكلام عزم لمياء: لا.. لا أريد الزواج الآن. فتصرخ أمّها ثانية: التي في عمرك عندها الآن عرّ ولاد[1].. قد يكون في بالك رجل آخر؟! فتنفي لمياء ذلك، ثمّ تعقب: كل الرجال إلاّ وحيد بالذات. فتدخل أمّ وحيد التي لحقت بأخيها على عجل: اتركوني معها بضع دقائق. تسحبها من يدها إلى غرفة جانبيّة وتغلق الباب خلفها: تقبريني لمياء.. والله نسيت كل الذي شاهدته.. صدّقيني لم ولن أقول لأحد. وحيد يحبّك، أنت تعرفين ذلك، وكنت تشجّعينه، وهو الآن لا يريد امرأة غيرك. سامحيني عن كل ما بدر منّي، والله نسيت. والله لم أفتح فمي لأحد. لو أردت أن أقول كلمة يذبحني خالك، إبني وحبيبي يريدك زوجة له، وأنا أتمنّى أن يتحقّق ذلك، أعرف أن ما رأيته منك ومن نبيل كان نزوة وطيش شباب، ونبيل لا بد أنّه نسي كل شيء.

ـ هل كنت تتصوّر يا نبيل، أنني في تلك اللحظات كنت أفكّر فيك، كنت أقول في نفسي، عندما يصير نبيل شاباً سأتزوّجه. ليس بيني وبينك سوى سنوات عديدة. وعندما تكبر وتصير رجلاً سأكون في ذروة جمالي، لم أنس أبداً عندما كنت تصرخ في وجه عمتك: أريد أن أتزوّجها. أحبّها يا

(١) عر أولاد: مجموعة كبيرة من الأبناء.

عمّتي. . أرجوك لا تفضحينا. ما غابت عنّي هذه الكلمات البريئة. . . كلمات أحيت في قلبي أحلاماً جميلة. كلمات جميلة كانت تصبّ في حياتي كما يصبّ النبع في النهر. . . لمياء فازت بجائزة الشعر في الثانوية بين عشر متباريات، وعندما نالت البكالوريا. صارت صبيّة البيت بانتظار الزوج العتيد. لكنّ ما حصل بعد ذلك، قلب كل هذه التوقّعات رأساً على عقب. ضربت الفوضى حياتها. كان في ظنّها أنّ من مارست الحب معه لأوّل مرّة، سوف يحفظ لها هذا السر الجميل. ثمّ يضع قلبه بين يديها. وكانت، كلّما التقت نبيل تقول له: أنا معلّمتك الأولى... كنت أوّل جسد لامرأة بين يديك. أعطيتك لذّتك الأولى التي لن تتكرّر أبداً.

«كانت تقول الصدق، ففي زهوة الشباب الأولى عانقتُ أجساد نساء بعدد أصابع اليدين، وعشقت فتيات بعمري بدءاً بصاحبة الوردة وانتهاء بالحب الأخير، ما ذقت مثل طعم فمها، وما انتشيت كما انتشيت بين أحضانها، لم أنس أدقّ التفاصيل. لم أنس دفء جسدها الأسمر ولا لهاثها العطر، وهي تحملني بين ذراعيها، من حقّها أن تقول أنّها معلّمتي الأولى. وما حصل، بعد ذلك، أنني كلّما لامست امرأة ولم أجد فيها ما كنت قد وجدته في لمياء، أصاب بخيبة أمل، لقد شكّلت لي هذه الحالة تعاسات لا حصر لها، لأنني لم أدرك أن اللذّة الأولى لها طعمها الذي لن يتكرّر أبداً. وأن الفم الأوّل الذي منحني دفئه، لن أجد له مثيلاً مهما تكرّرت التجارب وتنوّعت. كنت مهووساً بالحصول على ما يشبه تلك الليالي القديمة «أنا معلّمتك الأولى» ويا ليتها ظلّت، دون غيرها، تمنحني هذا الشغف الجميل. ولا أريد إزاء ذلك، أية امرأة أخرى. لكنّ لمياء في النهاية ما كانت لي أبداً. وكذلك لم تكن لوحيد الذي صارت حياته غصصاً ووجعاً».

ذلك اليوم لم تتراجع أمام إلحاح خالتها أمّ وحيد، فأمسكتها من شعرها صارخة بها: يا كلبة. . أنت مصرّة إذاً... والله لأذبحنّك وأُعلم القاصي والداني ما رأيت. والله لأعلمنّ أمّك وأباك وأخاك وكل الأهل. لأعلمنّ

وحيداً حتى يحتقرك ويبصق عليك ويخلعك من ذاكرته. يا مجنونة.. يا عاهرة، فتبكي لمياء وتتذكّر لحظة أمسكت بها مع نبيل وهي في ذروة لذّتها: افعلي ما يحلو لك.. لن يكون وحيد رجلي وسيّد بيتي ولو أطبقت عليّ الأرض. أقبل الموت ولا أقبل به.

تمسك لمياء بكتفي وهي تنظر إليّ تلك النظرات الدافئة ذاتها: أما أحببتني يا نبيل.. أما أحببتني؟ أحببتك كثيراً. ما زال طعم ريقك في فمي. لم لا تتزوّجني؟ كيف أتزوّجك وأمّك وأمّي أعلنتا أنني رضعت من أمّك وأنّك رضعت من أمّي. كنّا إخوة ولم نكن نعرف. سيعذبنا الله يا لمياء. لا.. لا لم نكن نعرف. عرفنا فيما بعد... كان هو ذلك الحنين الذي يشدّنا إلى بعضنا».

«أم وحيد وقد فشلت في جعل لمياء زوجة لابنها، كرهتنا جميعاً. كرهت أخاها وأولاده، وخصوصاً أنا، كانت تعاملني قبل الفضيحة كأحد أولادها، بعد ذلك، صار حقدها يتأصّل عليّ يوماً بعد يوم. صارت تتحاشاني. وإذا ما التقينا مصادفة صاحت بي: يا أزعر، فأشتمها، وأهرب من وجهها، تحوّلت إلى امرأة تكرهنا جميعاً، حتى أمّها العجوز المقيمة في الغرفة العلوية، ما عادت تزورها.

تلك الجدّة الساحرة، التي أعطتني ذات يوم سراً من أسرارها، كنت أقضي معظم وقتي عندها، تروي لي حكايات كلها هي بطلتها، تضمّني إلى صدرها فأقبّلها من فمها المتجعد، تضحك وهي تردّد: تقبرني.. تقبرني، ومرّة قالت لي: اسمع يا ولد.. إنت كبرت، أصبح عمرك خمسة عشر، صرت رجلاً. وأنا على حافة قبري. سلامتك يا جدّتي.. سلامتك. تضمّني: تقبرني ما أحلاك. كأبيك في صغره.. لأ. لأ.. إنت أحلى، تنظر طويلاً نحو الباب. ترهف السمع. ثمّ تقترب من الباب وهي تدفع أذنها إلى الأمام لعلّها تسمع صوت خطوات لسكّان البيت، كانوا يفاجئونها بزياراتهم.. ثمّ تقول:

ـ إسمع يا بني . . في بيتنا كنز .

ـ كنز ماذا يا جدّتي؟

ـ لا ترفع صوتك . . كنز ذهب . جرّة ملأى بالليرات الذهبيّة مدفونة تحت الأرض .

ـ جرّة ملأى بالذهب؟! ماذا تخرّفين يا جدّتي!

ـ عشرة آلاف ليرة عثمليّة دفنها زوجي الأوّل تحت غرفة عمّتك آمنة . . إياك أن تقول لأحد .

ـ وأنت يا جدّتي كيف عرفت؟

ـ هذه الليرات كانت ثمن البستان الذي باعه زوجي قبل أن يذهب إلى حرب السفر برلك ولم يعد . بستانه اشتراه واحد من آل الشلاح . ودفع له كل هذه الليرات ، دفنها جدّك تحت الأرض ريثما يعود . ولكنّه لم يعد . . إياك يا ابني أن تقول هذا السر لأحد . لا تقله لا لأبيك ولا لأمّك . ولا لأحد من أهل البيت . هذا الكنز لك . عندما تصير شاباً ، ويصبح هذا البيت لك ، احفر ذراعاً أو ذراعين عند مدخل أوضة آمنة تجد الجرّة ملأى بالذهب . تكون لك حلالاً زلالاً ، وتعيش بها حياة هنيئة وتتزوّج عشر نساء وتنجب خمسين ولداً وتذكرني بالخير .

هل كانت جدّتي تخرف؟ إذ كثيراً ما كانت تختلط عليها الأمور ، تقول عن زوجها الأوّل صاحب الكنز المزعوم إنّه جدّي ، ثمّ تتحدّث عنه أنّه كان باشا من باشوات العثمانيين ، وأحياناً تقول عنه إنّه كان ضابطاً كبيراً ، وأحياناً تقول إنه قاتل مع يوسف العظمة ومات في ميسلون ، في كلّ مرّة تختلق عنه أساطير تمجّده ، ويبدو أنّها كانت تحبّه أكثر من كلّ أزواجها الآخرين . وغير ذلك ، كثيراً ما روت لي أساطير وحكايات لن أنساها ، روت عن الخرزمي الذي قبره في قلب حارتنا أنّه من أصحاب الكرامات ، وفي متابعتي لتاريخه فيما بعد ، أجده عالم رياضيات ليس إلاّ ، لكنّ جدّتي أحاطته بهالة سحرتني وأنا فتى ، حتى خيّل لي أنّ علاقة ما قامت بينها وبين

روحه التي كانت تتجسّد في حضرتها. رواياتها لم تكن: «كان يا ما كان في قديم الزمان» كما الحكايات التي كانت ترويها عمّتي نهى صاحبة الصوت الجميل وعازفة العود، كانت، دائماً، هي بطلة الحكاية. خرج الخرزمي من خروم الشباك، واصطحبها ليلاً إلى عالم الجن تحت الأرض، فرأت نساء بقرون، ورجالاً بقرون أيضاً، كلّ شيء فيهم يشبهنا ما عدا قرونهم. يؤمنون بأديان متعدّدة كعالم البشر، حضرت جدّتي أعراساً، ورأت موتى تعود إليهم حياتهم، هل هؤلاء فعلاً يسكنون تحت الأرض؟ أسأل بطفولة. تحتار ماذا تقول، لكنّ الخيال يلعب عندها بصور متعدّدة تجعلني مشدوهاً وأنا أصغي إليها. فهي تارة أم لعلي بابا. وهي التي ربّت رفاقه الأربعين حرامي بنفسها من يوم ولادتهم حتى صاروا رجالاً، وهي تارة ابنة ملك، تحكي عنه أنّه ذو مملكة واسعة وجند كثير. وكان شجاعاً، تقول جدّتي: أراد ملكاً آخر خطبتي عليه. عندما علم بجمالي الساحر، فامتنع أبي قائلاً: لا أزوّجها إلا لملك عربي، فقام هذا الملك الفارسي بغزو مملكة أبي، حيث قتل أبي وسائر أهله ومساعديه ما عداي. وعندما طلب إحضاري إليه سحر بجمالي، وبُهت، ونظر إليّ مندهشاً حتى صاح بأحد وزرائه ما كنت أتصوّر أنّها جميلة إلى هذا الحد، فقلت له: أيّها الملك إنني ابنة الملك الفلاني. ولست إبنة هذا الملك الذي قتلته، فقد غزا هو أيضاً بلدنا، وقتل أبي، وأسرني وأتى بي إلى هذا القصر. فلمّا رأتني ابنته التي أرسلت أنت تخطبها، أحبتني، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني عندها، وصرنا روحين في جسد واحد، فلمّا أرسلت تخطبها، خاف عليها أبوها منك. فأرسلها إلى بلد بعيد عند بعض أقاربه من الملوك، فقال الملك لي: وددت لو أني ظفرت بها فأقتلها شر قتلة، ثمّ أخذ يتأمّلني فرآني فائقة الجمال، فمالَ إليّ وملت إليه فتزوّجني. وعندما حملت منه كتمت هذا السر إلى أن رأيته يوماً منشرح الصدر. فقلت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك. فقال: ومن أبوك. قلت: هو الملك الذي قتلته، وأنا ابنته التي خطبتها منه. والآن هذا ولدك حملت به في بطني فلا تستطيع الآن قتلي،

عَظُم على الملك أن أقهره وأنا المرأة الضعيفة التي احتالت عليه، فصمّم على قتلي.

- ماذا يا جدّتي؟ كيف قتلك وأنت هنا الآن؟

- اسكت.. دعني أكمل قصّتي يا ولد.

أسألها متلهّفاً:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- أمر وزيره بقتلي، فقال له الوزير: رأيك عين الصواب، والستر في قتلها أولى. وأفضل ما نفعل أن نغرقها في النهر، فاستحسن الملك رأي الوزير، ووكّل أمر إغراقي إليه.

- وهل أغرقك الوزير؟

- كيف أغرقني يا ابني وأنا أتكلّم معك الآن؟

- إذاً ماذا حصل؟

- أخفاني الوزير عنده. وعند الصباح أخبر ملكه أنّه أغرقني في النهر، وبعد مدّة، وضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الخلقة، فسمّاه الوزير شاه بور.

- شاه بور؟

- نعم، ومعناه ابن الملك، ورباه إلى أن بلغ سن الرشد، فعلمه الفروسية وركوب الخيل، وهو يوهم الملك أنّه مملوك له، ولم يكن للملك ولد، وقد طعن في السن. وأقعده المرض وأشرف على الموت. فقال لوزيره: أيّها الوزير قد هرم جسمي. وضعفت قوّتي، وإنّي أرى أني ميت، وهذا الملك سوف يأخذه من بعدي من تؤول الأمور إليه. قال الوزير: لو شاء الملك أن يكون له ولد لكان وليّ الملك. ثمّ ذكّره بأمري وبحملي، فقال: يا ليتني لم آمرك بإغراقها، يا ليتك أبقيتها حتى تضع، فلعلّ حملها يكون ذكراً، فلمّا رأى الوزير من الملك الرضا قال: يا أيّها الملك، إنّها عندي حيّة، ولقد وضعت ولداً ذكراً من أحسن الشباب خَلقاً وخُلقاً. فقال الملك أحقاً ما

تقول؟! قال الوزير نعم. ثمّ قال: أيّها الملك. إنّ في الولد روحانية تشهد بأبوّة الأب، وفي الأب روحانية تشبه بنوة الإبن. ولإثبات فكرته هذه أتى الوزير بإبني بين عشرين غلاماً في مثل سنّه وهيئته ولباسه، وكلّهم من آباء معروفين. وأعطى لكلّ واحد منهم صولجاناً وكرة، وأمرهم أن يلعبوا بين يدي الملك في مجلسه. فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وخرجت من مجلس الملك أخذته الهيبة، أما ابني فلم تأخذه الهيبة منه، لاحظ الملك ذلك فقال له: أيّها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور. فقال له الملك: صدقت أنت ابني حقاً. ثمّ ضمّه إليه، وقبّله بين عينيه. فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيّها الملك. ثمّ جئت إليه، وقد تضاعف حسني وجمالي، وقبلت يديه فَرضيَ عني. كما أنّ الملك دهش لما أبداه الوزير من الإخلاص في الخدمة وشَدّة مناصحته. فزاد سروره، وتضاعف فرحه لأنّه أبقى عليّ ولم يغرقني في النهر، وهكذا، بعد وفاة الملك. صار ابني ملكاً. وعشت في كنفه راضية مسرورة سعيدة إلى أن قضى الله أمراً كان مقضياً.

- يعني أنت أم ملك يا جدّتي!

- كان هذا من زمان.. من زمان.. من مئات السنين.

فأنظر إلى وجهها المتجعّد، وأتصوّر أنّ عمرها ألف عام، فأسألها:

- كم عمرك يا جدّتي؟

فتقول لي:

- لا تسأل.. لا تسأل.. الأرواح تتناسخ، أنا حفيدة تلك الأم التي أصبح ابنها ذات يوم ملكاً بملك واسع لا حدود له.

هكذا كانت جدّتي، بطلة كل الحكايا، حتى خلت أنّ حكاية الكنز المدفون تحت غرفة عمّتي آمنة أم وحيد مثل بقيّة حكاياهاوأساطيرها.

قالت لي إنّها لم تحب سوى الرجل الأوّل الذي تزوّجته، ولم تنجب منه سوى أم لمياء، وتروي أنّها ذات يوم رأته يصفّق معجباً لجنية شقراء في ساحة المقبرة.

ـ جنيّة يا جدّتي!

ـ إي نعم.

ـ وبقرون؟

ـ تضرب شو بتسأل. نعم.. بقرون ولكن صغيرة.

ـ والله يا جدّتي أحب أن أرى عفاريت وجان.. ألا تدليني..؟

ـ اسكت.. اسكت.. إنت ولد.. لا يظهر الجن على الأولاد حتى لا يرتعبوا.

فأكرّر سؤالي القديم:

ـ وأين عالم الجن هذا يا جدّتي.. تحت الأرض.. أم في السماء؟

ـ لا أحد يعرف يا ولدي.. العلم عند الله.

ـ وماذا حصل عندما رأيته مع الجنية الشقراء؟

ـ أمسكت بعنقه وصرت أصرخ به: حتى متى تخونني مع جنية، وولولت فوق رأسه، فهرب منّي، لكنّ الجنيّة الغيورة كانت لسوء الحظ ساحرة. تقدّمت منّي وسحرتني حمامة بيضاء. ثمّ أرادت أن تقتلني، فطرت بعيداً عنها، ثمّ تابعت الطيران وأنا أظنّ أنّ الجنية تلاحقني.

ـ إلى أين رحت؟

ـ لم أترك مكاناً وبلداً إلاّ زرته.

ـ يعني كل الدنيا؟

ـ كل الدنيا.

ـ ياه!

ـ إي نعم.

ـ وماذا رأيت يا جدّتي؟

ـ رأيت كلّ شيء، رحت مكّة المكرّمة وطفت حول الكعبة، زرت قبر النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة المنوّرة، قالت هذه العبارة وهي تمسح وجهها بكفّيها.

ما تركت بلداً ـ تتابع ـ بغداد، ومصر، والسودان. سافرت إلى بلاد ما بعرف أهلها شو بيحكو.

ـ ماذا كان شكلهم يا جدّتي؟

ـ سودا وبيضا وشقرا وحمرا. رأيت ناساً عيونهم صينيّة الشكل. زرت غابات رأيت فيها أسوداً ونموراً وفيلة، غزلاناً وجياداً مخطّطة. نمت ليالي وراء ليال على ظهر فيل. وعششت بين أغصان الأشجار سنوات وسنوات. تزوّجت وأنجبت طيوراً مثلي. هل ترى كل هذه الطيور عند جارنا أبو أحمد كشّاش الحمام؟ كلّها أولادي.. وتقلّد جدّتي هديل الحمام: «غُوءْ.. غُوءْ.. غُوءْ» ليست حمامات أبو أحمد وحدها. كل الحمامات التي تسبح في السماء أولادي يا ابني لا تقل لأحد، خلّي هذا السر بيني وبينك.

أضحك مسروراً بهذا الخيال الجميل، أدرك بطفولتي أنّها تبالغ، وأنّها في النتيجة تروي لي حكايات. بعدما وعيت وكبرت، تمنّيت لو سجّلت كل هذه الحكايا، لبزّت ألف ليلة وليلة، لم تكن تقرأ.. لم تتعلّم، فمن أين لها كل هذا الخيال الشاسع، وهذا العالم الأكثر شمولاً من أي متعلّم آخر؟

أحياناً أمزح معها:

ـ ألا تكذبين عليّ يا جدّتي؟!

ـ لعنة الله عليك.. أنا لا أكذب.

ـ ألا تبالغين؟

وتؤكّد أنّها لا تبالغ، فتهدّدني أنّها لن تروي لي بعد اليوم شيئاً، أخاف، في الحقيقة، تمنّيت من كلّ قلبي أن أعيش في عالمها الساحر هذا. تروي لي بجديّة أنّها متقمّصة عشرات الأرواح، ومخاوية لملوك وأمراء من الجان،

فهي تارةً زوجة ملك، وأحياناً سيّدة جميلة ترقص في الأفراح، وقالت لي مرّة إنّها كانت ملكة تدمر.

ـ ومن هي ملكة تدمر؟

أستغرب الآن أنّها روت لي ما عرفته فيما بعد من التاريخ، من أين لها كل هذه المعلومات؟ لا بد أنّ أحداً ما روى لها التاريخ. ولكن لا أجد في العائلة أحداً اهتمّ بالتاريخ، كان كل همهم الحاضر وبؤسه وعذاباته، جدّتي كانت غير ذلك أبداً، كأنّها تعرف كلّ شيء، كأن كتاب العالم كلّه، ماضيه وحاضره، مفتوح أمام عينيها، كأنّها قرأت عشرات المرّات حتى باتت تروي بمثل هذا الذكاء.. كان بقيّة الأهل يضحكون عليّ، إنّك معجب بخرافات جدّتك.. يا لها إذاً من جدّة عظيمة عالمة بالأسرار، أم إنّ خيالي يشدّني إلى وردة النرجس، فلا أنا أروي، ولا جدّتي، بل هي الوردة؟!

أدخل إلى غرفتها خلسة فأسمعها تدمدم «حطيت على القلب إيدي وأنا بودِّع وحيدي». يا لصوتها الجميل الساحر، غرفتها نظيفة دائماً، بل أنظف غرفة في المنزل، حريصة على ترتيب الأشياء بشكل جميل، المرآة في الزاوية، وابور الكاز تحت سريرها، تصنع طعامها بيدها، لا تريد أن تأكل لا من عند هذا ولا ذاك، الجميع يمدّونها بالمال وبكلّ ما تحتاجه، لكن لا تأكل من عند أحد إلاّ في الولائم. ظلّت حكاية الحمامة تشغل بالي، وأنتظر، مشغوفاً، أن تتمّ الحكاية لأعرف مصيرها، إلى إن سألتها:

ـ كيف، بعد كلّ هذا عدت إلى البيت؟

ـ عدت بعد أن ماتت الجنية. فانزاح السحر عنّي، وصرت امرأة حلوة، فجاء جدّك أبو أبيك وتزوّجني. وهذا أيضاً مثل الأوّل، أصحو من النوم فأسمعه يحكي. مع من، لا أعرف. دائماً تأتي جنية وتأخذ منّي رجُلي..

ـ ولكنّهم إخوتك تحت الأرض!

ـ ربّما بسبب ذلك تحصل معي هذه الحكايا.. عالمهم مثل عالمنا، غيرة وحب وقتل، وحروب. ربّما أكثر شراً من حياتنا.

في كل مرّة، أشجّعها على أن تروي الكثير عن هذا العالم العالم الخفي، الذي إذا سألت أمي عنه، تحاشت الحديث فيه، أما أبي فيحيلني من جديد على جدتي وهو يضحك: إذهب إليها، إنّها تعرف أكثر منّا جميعاً. وعندما ألحّ ينهرني بلطف: إنتِ ولد كتير الغلبة.. رح لعند جدتك. أنا لا أعرف شيئاً عن هذا العالم»

«عشر سنوات بعد المائة عاشت جدّتي، يوم ماتت كانت حزناً غمر، ليس البيت وحده، بل الحي والأحياء المجاورة، لم يكن أبي قد تجاوز السادسة عشرة من عمره عندما كانت جدّتي ترافقه إلى الغوطة وعلى رأسه فرش التوت الشامي، يقطفانه من الأشجار دون أن يعترضهما أحد من أصحابها، لأنهما في الواقع كانا يهرّبان الرصاص والقنابل تحت أوراق التوت للثوار، أصيبت ذات مرّة برصاصة في كتفها. وعولجت في مكان ما في الغوطة، ثمّ أصيب أبي في ساقه برصاصة ما زالت إلى الآن في العظم، اعتاد على ألمها، وإذا مشى عرج قليلاً، وهي فخره حيث يروي لنا البطولات التي قام بها وهو في هذا العمر. أمّا جدّي فقد استشهد في إحدى المعارك. واختفت جثّته، وكما كانت تقول: لا بدّ أنّ جنية من تحت الأرض أخذته، وتزوّجت منه.

ـ لكنّ الذي يموت لا يعود إلى الحياة يا جدّتي!

ـ إنت ولد مفلسف.. الأرواح لا تموت يا ابني.. والجن تتزوّج من الأرواح أيضاً.

ـ كيف.. أنا لا أفهم.

ـ الجن عندها وسائل وطرق.. ثمّ إنّ جدّك.. كان شهيداً والشهداء لا يموتون، إنّهم أحياء عند ربّهم يرزقون.

عندما شُيِّعت جدّتي، حُمل نعشها عل الأكف. وصاح الشيخ أمين إمام جامع التوبة: ترحّموا يا ناس على هالحرمة زوجة الشهداء.. فأتذكّر أنّ زوجها الأوّل استشهد في الحرب العالميّة الأولى، وزوجها قبل الأخير استشهد في الثورة السورية، كما أنّها أصيبت مع ولدها بالرصاص أثناء الثورة، سيّدة غير عادية، أسطورة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، كنت أهرب من أبي عندما كان يريد أن يعاقبني على ذنب اقترفته فأشعر بالأمان وأنا في حضنها، حيث لا يجرؤ أبي على أخذي من بين يديها. حكاياها مرسومة بالذاكرة لا تغيب.. ومراراً اتذكّر حكاياها. من أين التقطت هذه الحكايا؟ ليس لها مثيل في القصص الشعبي الآخر، ولا حتى في ألف ليلة وليلة.. ما أجمل ذلك الخيال الخصب، جنّ وعفاريت، وحروب فوق الأرض وتحت الأرض. وعندما كانت تحدّثني عن العالم السفلي تصيبني هيبة، فأشعر بالخوف من الظلام، لأنّها كانت تقول أنّهم لا يظهرون إلاّ في الظلام. الجن يشبهوننا يا ولد، لكنّ العفاريت يشبهون الشيطان، العفاريت قوم فاسدون، يؤذون كلّ من يصادفونه من البشر والحجر. وعندما تلاحظ أنني بدأت أخاف. تقول لي: لا تخف. كلّ هؤلاء يحسبون لي حساباً، فأنا مخاوية لملكهم، لن يعترضوا طريقك أبداً. وإذا صادفتهم في الطريق، أو في المقبرة، أو في الصباح الباكر وأنا ذاهب لأجلب الخبز للبيت ماذا أقول

لهم؟ فتردّ واثقة من نفسها: قل لهم جدّتي خانم، عندئذ سيساعدونك في كلّ أمر، أعود لأسألها من جديد وكيف تكون أشكالهم يا جدّتي؟ تجيبني: إنّهم قادرون على أن يكونوا بالشكل الذي يريدون. تارةً صغيرون جداً كالدمى، وتارةً كبيرون جداً كالأشجار القديمة، كما يريدون يصيرون، قروداً، غزلاناً، ضباعاً، ذئاباً، وأحياناً يظهرون بشكل مرعب ليرعبوا من حولهم. وإذا أرادوا، يظهرون كالملائكة. أم حسن جارتنا جُنّت، عندما أخذوا لها زوجها. قبضوا روحه، ثمّ رموا جثّته في البئر، وتزوّجت جنية حسناء روحه، لأنّه كان رجلاً قوياً، له هيبة، وصوته جميل، وهل الروح تتزوّج؟. إي.. إي.. ما هذا الخلط يا جدّتي. اسكت. اسكت. إنت ما بتعرف شي.. بعدك ولد».

«تركت جدّتي بعد رحيلها فراغاً كبيراً، صرت شاباً، وكلّما تذكّرتها بكيت كالأطفال، كانت عالماً مليئاً بالحكايا والأساطير والبطولات، بل، وهي امرأة، خاضت حروباً. وانتصر الذين كانت إلى جانبهم. بعد رحيلها. أصبحت الحياة بالنسبة لي سأماً ومللاً. نفس الوجوه، نفس الحكايا المكرورة، بلا أي خيال أو جمال. غالباً ما كنت أتسلّل إلى المقبرة وأجلس أمام قبرها وأبكي، تشفق عليّ فتخرج من القبر وتمسّد بيديها المعروقتين شعر رأسي.. لا تتكلّم، حدثيني يا جدّتي، تشير لي أنّها ميتة، والميتون لا يتكلّمون، فأبكي، وأبكي، تختفي، يخيّل لي انني أسمع صوتها. فأتخيّل أنّني أحلم، وأنّ ما أسمعه ما هو إلاّ صدى لذاك الماضي، الذي كانت تملأه بحضورها الجميل. أين أنت الآن يا جدّتي؟ هل تزوّجك جنّي ما.. أم أنّ هذا القبر الذي أغلقوه عليك حوّلك رماداً وتراباً وهيكلاً عظمياً؟ وأفكّر أحياناً أن أحفر القبر، لأتأكّد أنّها ماتت، لكنني كنت أخشى أن لا أجدها، فتثير في نفسي كثيراً من التساؤلات: ما هي الحياة؟ هل هي حلم نعيشه دون أن ندري، وأننا في النهاية لسنا سوى هذا النمل الذي يدبّ فوق الأرض؟ كانت جدّتي تكره النمل، تضع خرقة مبلولة بالكاز وتحرقها

في أعشاشها التي كانت تملأ ثقوب السطح، وتنصحنا جميعاً ألا نترك زفراً في الأرض، وألا نهدر سُكّراً من بين أيدينا. لئلا يخرج النمل ويدبّ من حولنا. وكادت ذات يوم تحرق غرفتها بكل ما فيها، إذ أكثرت من مادة الكاز قبل أن تولع الخرقة. وبلّلت ثوبها به. وما أن أشعلت عود الثقاب حتى راحت تصرخ وتولول. فيصعد إليها كل سكّان البيت ويطفئون الحريق الذي كاد يمتدّ إلى كلّ الغرفة. لم تنتصر جدّتي على النمل، على الرغم من كل محاولاتها للقضاء عليه، وكانت تعرف أنّه سيلتهمها بشراهة ذات يوم، فأوصت أبي أن يبلّل كفنها بالكاز، بل أصرّت عليه أن يترك ثقباً مفتوحاً في القبر، يضع فيه، كلّما زار قبرها، كميّة من الكاز. وصف البعض أبي بالجنون عندما نفّذ وصيّتها حرفياً، كان زوّار المقابر يجيئون بالماء ليسقوا أصص القبور، بينما أبي يأتي بالكاز، وكانت رائحة الكاز تفوح من القبر باستمرار، وانتبهت دائماً إلى أنّها كانت على حق.. فبينما كان النمل يخرج من بقيّة القبور، لم نكن نرى ولو نملة واحدة تخرج من قبرها. كانت قبل ذلك لا تريد أن يدفنوها في قبر، واقترحت على أبي وأنا أستمع إليها مدهوشاً، أن يضع جثّتها مفتوحة الكفن على محفة فوق شجرة، لأنّها كانت تريد ما تبقى من لحمها لجياع النسور والطيور. لا أن يلتهمها النمل. ويقول لها أبي: النمل أيضاً يزحف إلى الأشجار، أرجوك يا أمّي لا تصعّبي موتك عليّ. فتقول له: هناك شعوب تترك جثث موتاها على أغصان الشجر. وعندما كبرت صدّقت حكاياتها القديمة، وأنّها عندما سحرتها الجنية زارت بلاد الهنود الحمر وعاشت معهم ورأت كيف يتركون موتاهم لجياع النسور، وتأكدت لي زيارتها عندما كنت أحضر أفلام السينما الأميركية التي كنا نشاهد فيها كيف كان الهنود يضعون أمواتهم على محفات بين أغصان الشجر ويتركونهم نهباً للطيور الجوارح. من أين أتت تلك الصورة إلى خيال جدّتي، التي لم تعرف السينما في حياتها ولم يحدثها أحد عنها، فتختلط عليّ الأمور بين مصدّق وغير مصدّق».

«ظللت أزور قبرها كلّ أسبوع مرّة دون توقّف، أسقي فستقية الماء وأزيّنها بالآس والورود أحياناً، فتحضر بكلّ قامتها الضامرة الصغيرة، وبعينيها اللوزيتين المليئتين بالذكاء والخبث في آن معاً، وتدور حولي كالشبح دون أن تتكلّم، أتأمّلها ملياً فتدمع عيني، وأشتاق لها، أشتاق لتلك الليالي الشتائية وهي تروي لي تلك الأساطير الجميلة. أحاول أن أسألها شيئاً، أسألها أين هي الآن؟ مع أي ملك، وفي أي مدينة تتزوّج أميرها، لا تجيب، وإذا ما سمعنا معاً وقع خطوات قريبة، تختفي فجأة، تاركة على تراب الأرض أثر قدميها الحافيتين».

«في موسم زيارة القبور. في الأعياد والمناسبات الدينيّة، يزور أبناء جدّتي قبرها تباعاً، أمّا أبي فيحلو له زيارتها قبيل المغرب، ويصطحب معه دائماً أخته آمنة أم وحيد. وقليلاً من الكاز في قارورة يرش به القبر كما أوصته. في إحدى المرات كنت معهما، وبعد قراءة الفاتحة شكا أبي لأخته تدهور التجارة في السوق، وشكت هي له ضيق الحال مع وحيد بعد رحيل زوجها، فتذكّرت حكاية الكنز. وقلت في نفسي سأبوح بسرّ الكنز لأبي، وأشترط عليه أن لا تستفيد منه عمّتي، فأحسست فجأة كأنّ أحداً لكزني من جنبي. التفتّ فلم أجد أحداً، وسألت نفسي هل هي جدّتي تمنعني من البوح بالسر؟ فقلت بصوت عال: ولكن وضع أبي سيء.. فماذا أفعل..؟ التفت أبي نحوي: ماذا تقول يا ولد؟ قلت له لا شيء.. لا شيء. وعندما قرّر أبي ترك المقبرة، قلت له اتركني قليلاً هنا يا أبي.. أريد أن أقرأ عشراً من القرآن على قبر جدّتي. قال لي: بارك الله بك يا بني.. لا تتأخّر. ابتعد أبي، فقلت مخاطباً جدّتي: أعرف أنّك هنا الآن وأنّك تسمعيني، ولا بد أنّك سمعت الأزمة التي يتحدّث عنها أبي.. فأرجوك دعيني أبوح بسرّ الكنز له.. فإذا كان هذا الكنز لي كما وعدتني.. فأنا أريد أن أساعد أبي بجزء منه. جاءني صوتها واضحاً وضوح الشمس: إفعل ما يحلو لك، ولكن لا تدع عمّتك تأخذ منه ولو ليرة واحدة، هذه امرأة شريرة، أذاقت زوجها مرّ العذاب، إنّه يزورني في كلّ يوم يشكو لي ما

فعلت به . . ما هذا الكلام الذي أسمعه منك الآن يا جدّتي . . ألهذا الحدّ عمّتي شريرة؟ . فقالت : شريرة فقط ! . . إنّها عفريتة إبنة عفريت .

سررت لأنها سمحت لي كشف سرّ الكنز لأبي ، وعندما عدت إلى البيت ، وعلى بساط العشاء سمعت أبي يكرّر لأمّي أنّ السوق واقف ، ويخشى أن تطول هذه الحالة ، ليس هذا في سوق البزورية فقط ، البلد كلّها في حال يرثى له يا أم نبيل ، والإفلاسات على قدم وساق . فتأخذ أمّي يده وتقبّلها بخشوع : الله لا يقطع أحداً يا ابن عمّي . والبركة فيك . إنت سيد الرجال ، ولا نخاف عليك . يطرب أبي لهذا الكلام . ويقول : مهما ساءت الأحوال ، على الأقل البيت ملكنا ، ،من كان عنده سقف بيت يا أم نبيل لا يخاف من غائلة القدر . إن شاء الله سأبذل جهدي كي لا يطالنا أي سوء . أنت وأنا ونبيل تكفينا الخبزة والبصلة ، وبناتك مستورات والحمد لله عند أزواجهن وسعيدات ، فتردّ أمّي : إي والله يا أبو نبيل ، نعيش على الخبزة والبصلة ولا يمسّ كرامتنا أحد . كانت تلك الأيام أيام الحرب العالمية الثانية ، وكانت دمشق تعيش وطأة الإحتلالين ، الإنكليزي والفرنسي ، وكان الجوع يدقّ كل الأبواب . ردّ أبي على أمّي بالقول : معاذ الله أن يدهمنا الجوع . أقتلكم وأقتل نفسي ولا نحتاج أحداً .

كان لا بد لي في هذه اللحظة من أن أكشف سرّ الكنز . متأكّداً أنّها سمحت لي بالبوح ، وأنّ صوتها بالذات هو الذي خيّرني بين البوح وعدمه ، هل أستمر في ستر السر ولا أكشف الغطاء عنه؟ ! محال أن أفعل ذلك . فانتحيت بأبي جانباً . استغرب ذلك وقال بوجه عابس : ماذا بك يا نبيل؟ !

ـ أريد أن أكشف لك سراً يسر خاطرك .

فتح عينيه محدّقاً نحوي :

ـ ماذا تقول . . سراً يسرّ خاطري؟

ـ نعم . . سرّ جميل يزيل هذه الغمامة عن قلبك الطيب .

قال بحدّة :

ـ ماذا تنتظر . . هيا قل ، بح .

فقلت له :

ـ هات أذنك .

قال :

ـ هل تريد أن تخبـئـه عن أمّك يا ابني؟ . . قل بصـوت عـال . . هذه أمّك . . وليست أم الجيران .

ـ يوجد في بيتنا كنز يا أبي!

لم يفهم للوهلة الأولى ، ولم تبد الدهشة على وجهه . فقلت له :

ـ ألم تسمعني . . في بيتنا كنز . كنز . كنز . .

ـ وأين هذا الكنز . . في المكمورة[١]؟

ـ لا يا أبي . . والله كنز .

ـ قال بلامبالاة وبسخرية :

ـ وأين هو هذا الكنز؟

قلت :

ـ إنّه تحت أرض غرفة عمّتي أمّ وحيد .

فازدادت سخريته :

ـ هكذا . . إذاً . . وتحت أرض غرفة عمّتك . . من أين لك هذه الأخبار؟ أنت شاب في أوّل العمر وبدأت تخرف .

ـ لا . . لم أخرف . إنّه كنز مؤلّف من عشرة آلاف ليرة ذهبيّة .

ـ وتعرف كم المبلغ أيضاً ـ ملتفتاً نحو أمي : إبنك يجنّ يا أم نبيل حدّقت أمي نحوي ثمّ ردّت على أبي :

(١) المكمورة : وعاء صغير من الفخار يدخر الولد قروشه فيها ، وهي القجة باللهجة اللبنانية .

ـ إسم الله عليه . . إنّه يخاطبك بثقة وبكامل وعيه .

فإلتفت أبي نحوي

ـ بالتمام والكمال عشرة آلاف؟!!

ـ عشرة آلاف ليرة عثمليّة إذا رنّت استيقظ الحي كلّه .

بدأ أبو نبيل ينتبه إلى أنّ ابنه يتكلّم جاداً وواثقاً فسأله :

ـ قل لي الحقيقة . . من أين لك هذه الأخبار؟

ـ من جدّتي .

ضحك أبو نبيل حتى كاد ينقلب على قفاه :

ـ من جدّتك الخرفانة الله يرحمها . من جدّتك التي اختلطت عليها الدنيا في آخر عمرها . وما عدنا نعرف أين الصح وأين الغلط في كلامها . جدّتك التي عاشت عالماً آخر خلال الثلاثين سنة الأخيرة تخرّف وتروي ما حدث وما لم يحدث، ثمّ ها هي تريد أن تسحبنا إلى عالمها السحري، حتى بعد وفاتها؟! أوف يا نبيل . . أهذا هو سرّك الذي يفرح القلب؟ . . اغرب عن وجهي .

«تألّمت كثيراً لأنّ أبي لم يصدّق حكاية الكنز . وندمت أشدّ الندم لأنني بحت بالسر، وظننت فيما بعد أنّ أبي نسي قصّة الكنز، وفاجأني ذات يوم وأنا جالس على بساط العشاء يخاطب أمي مشيراً نحوي : قصّة الكنز بدأت تشغل بالي يا أم نبيل . ألا تظنّين أنّ أمّي كانت تخرّف على الولد؟ قالت أمي : ها هو أمامك، إسأله، تأكّد منه . التفت نحوي : ماذا تقول يا نبيل؟!

ـ إنّه كنز . . ولكنّك لم تصدّقني .

ـ كنز من الليرات الذهبية؟!

ـ نعم . . إنّه مرصود لي كما أخبرتني جدّتي . . وكان عليّ ألا أبوح به الآن، لكنني اضطررت إلى أن أبوح به من أجلك يا أبي . . بل من أجلنا .

إلتفت نحو أمي قائلاً :

ـ ما رأيك؟ .

قالت :

ـ الرأي رأيك يا إبن عمي . . لعلّ الله أراد أن ينقذنا من هذا الإنهيار .

ـ نعم يا أبي . . إنّ الله يريد أن يساعدنا .

ـ ماذا سنفعل؟

ـ لا أدري . . الكنز في غرفة عمّتي .

ـ إذاً يجب أن نخبرها أولاً .

ـ لا . . يا أبي . . الكنز لي وحدي ولا أريد أن تشاركنا فيه عمّتي .

ـ الكنز في غرفتها . . فكيف لا نقول لها . ثمّ إنّها أختي . منذ وفاة زوجها وهي تشكو وتتشكّى .

قالت أمي :

ـ كل هذا حكي يا أبو نبيل . ها هو ابنها وحيد ينجح في أعماله ، سمعته مرّة يقول لأمّه : آن لنا أن نبحث عن بيت آخر ننتقل إليه ، كفانا محشورين في هذا البيت كالسردين .

ـ مسكين . . كان يريد الزواج من ابنة آختي لمياء . . فخذلته وخذلتني أيضاً .

فتجيب الأم :

ـ هذا من حقها . . ولا نريد أن ندفنها كما دفنّا بناتنا . .

صرخ أبي :

ـ هذا ليس وقته يا أم نبيل . . اقلبي الغطاء .

ثمّ التفت نحوي :

ـ لا حل . . إلا إذا قلنا لها . . فلنتّكل على الله»

التقى أبو نبيل بأخته آمنة : تعالي إلى غرفتي . . أريد أن أطلعك على أمرٍ مهم .

ـ خير يا أخي.

ـ قولي خير إن شاء الله، إسمعيني جيّداً، أمّك قالت لإبني إنّ زوجها الأوّل دفن تحت أرضية غرفتك كنزاً يحتوي عشرة آلاف ليرة ذهبية فما هو رأيك؟!

فوجئت آمنة، وارتسمت دهشة كبيرة على وجهها. ثمّ قالت وهي شبه مسحورة.

ـ ماذا تقول.. عشرة آلاف ليرة ذهبية؟ ثمّ استدركت. وهل صدّقت يا أخي.. ألا تعرف أنّ أمي كانت تخرّف في أواخر حياتها، وتروي حكايات ما أنزل الله بها من ميزان. أشكّ في ذلك، لا بدّ أنّها كانت تضحك على إبنك، وتزرع في رأسه أوهاماً وحكايات من وحي خيالها المريض.

ـ لماذا لا نجرّب.. لن نخسر شيئاً؟

ـ أخشى أن يهبط البيت فوق رؤوسنا.. أنت تعرف أنّه بيت متهالك وقديم، هزّة صغيرة تسقطه وتحيله إلى أنقاض.

ـ لن نحفر قبل أن نتأكّد.

ـ كيف؟

ـ نجلب الشيخ نصر الدين أبو الجمل. هذا شيخ من أهل الكرامات، ومخاو للجان يساعدونه في كشف السر وإحضار الغائب وعوده الزوج الضالّ.

لم تجب آمنة، ظلّت تنظر إلى وجه أخيها لحظات، ثمّ قالت:

ـ الشيخ أبو الجمل حقّق معجزات كثيرة.. أتذكر قصّة زينب التي عشق زوجها عليها وتزوّج من فتاة بعمر ابنته.. أي والله.. لجأت إليه وروت مأساتها وهي تبكي والشيخ قلبه لله، اقتنع بأنّها مظلومة، فصنع لها حجاباً، وأحرق شعرات من شعر زوجها جلبتها زينب من المشط الذي كان يمشّط شعره فيه، ولم تمض أيام، حتى شاعت في الحي سرقة الزوجة

الجديدة لأموال زوجها، فعاد إلى زينب يطلب غفرانها، وهو الآن في المحاكم مع زوجته اللصة.

ـ أي والله أتذكّر يا آمنة. . وليس لنا سواه.

ـ إسمع يا أخي. . لنكن صريحين، أنت أخي، وأعظم رجل في الحي، وأنا حرمة ذهب عنها زوجها إلى رحمة الله. طالما أنّ الكنز في غرفتي فأنا أريد الثلثين.

ـ عيب تحكي هالحكي يا آمنة. أنا وأنت واحد.

ـ لا يا أخي. . أوّله شرط وآخرته سلامة. . أنت أحوالك أحسن من أحوالي.

ـ أنت تعرفين أن الحالة واقفة الآن!

ـ ليس من خطر كبير عليك والحمد لله.

صمت أبو نبيل لحظات وهو يتأمّل أخته التي استبدّ بها الطمع، وقال في نفسه المال يكشف ويعرّي، ثمّ التفت نحو أخته قائلاً لها بحزم:

ـ اسمعي يا آمنة. . لم أتوقّع أن تخاطبيني بهذه اللهجة. . فإذا جئنا للحق، فالكنز من نصيب إبني نبيل، أمّك الله يرحمها، نصحته أن لا يبوح بسرّ الكنز إلى أحد. حتى يصير رجلاً قادراً على حماية وصيّة جدّته، لكنّه، والحرب تأكل العالم، رأى من واجبه أن يبوح لي بالسر، فجئت أشاركك فيه من كلّ قلبي. وإلاّ أعطيتك بعض المال لإستئجار بيت، ثمّ استأثر بالكنز وحدي.

ـ هذا، إذا كان صدقاً أن في البيت كنزاً.

ـ إذاً. . طالما أنّك تشككين بوجوده. . فلماذا نختلف؟ لنتأكّد أوّلاً، ولكلّ حادث حديث.

لم تجب آمنة، أطرقت لحظات وهي تهرش رأسها:

ـ لننتظر ماذا سيقول الشيخ أبو الجمل.

كان يوم جمعة، حرص أبو نبيل وأخته آمنة على إرسال أهل البيت جميعاً إلى سيران على شاطىء نهر بردى. إذ كانا على موعد مع الشيخ أبو الجمل. وكان نبيل نفسه الوسيط، في الوصول إلى الجني الذي يخاويه الشيخ. واسمه وهدان، وإنّهما، الشيخ ووهدان، التقيا في الحج وهما يطوفان حول الكعبة. قال أبو الجمل: نبيل أصغر أولادك، وهو الذي باحت له الجدّة بمكان الكنز. وأولى به أن يكون الوسيط، وسوف يرى بأمّ عينه، أين الحقيقة من الخيال. وقبل أن يشرع في ضرب المندل سألهم إن كانوا جميعاً طاهرين. «في الحقيقة كلنا طاهرين، إذ اغتسلنا قبل قدوم الشيخ بدقائق» فأجابوا بالإيجاب.

«أجلسوني أمام وعاء فيه ماء، ثمّ وضعوا فوق رأسي غطاء أبيض، فلم أعد أرى شيئاً إلا الماء والوعاء. وراح الشيخ أبو الجمل يقرأ شيئاً ما، بهمهمة لم أعرف محتواها، وما إذا كانت طلاسم أو قراءات دينيّة. لم أرفع رأسي حسب تعليماته، بينما كان أبي وعمّتي يقفان إزاء الشيخ صامتين، دون أن تبدر منهما أيّ حركة. وظلّ الشيخ في قراءاته المبهمة نحو نصف ساعة أو أكثر، فيما راح العرق يتصبّب منّي وأنا أحدّق في الماء، ولدهشتي رحت أرى أشياء فوق سطح الماء لم أفهم كنهها. وأخذ الشيخ يردّد: ماذا ترى يا ابن حياة ابن عبد المولى الشماس؟ قل لي. . ولا تخف، وراح يربت

على كتفي وأنا لا أرى شيئاً محدّداً فوق سطح الماء سوى أشكال لا يشبه الواحد منها جرّة . . ماذا ترى إذاً؟ . قل بسرعة وإلا غابت عنك الرؤيا وانمسحت الأشياء . لا أفهم يا شيخ ما أرى؟ وهل سطح الماء رائق . . أم ترى فيه شيئاً محدّداً؟ هناك أشياء، لا شيء واحد، لا أستطيع أن أسمّيها .

علا صوت الشيخ صارخاً : وضّح الصورة للفتى يا وهدان . بحقّ من جمعنا معاً حول الكعبة المشرفة، وآخانا عند الحجر الأسود، ساعدني يا وهدان، حدّد الصورة كي نعرف ماذا تحت هذا المكان . . ازددت تعرّقاً وخوفاً وأنا أحدّق بالماء، خيّل لي أنّه يموج كأنني أرى بحراً، وراحت أمواج البحر تتلاطم، أسمع هديرها واصطدامها بالصخور . فيما راح صوت الشيخ يزداد صراخاً أشبه بالتوسّل : أنجدني يا سيد الجان وكبيرهم وهدان، أنا أخوك وأنت أخي فلا تخذلني . . ساد صمت إلى حد، ظننت أن أبي وعمّتي والشيخ انسحبوا من الغرفة وتركوني وحدي لمصيري، خشيت أن يحصل لي شيء ما، فوقفت فجأة رافعاً عنّي الغطاء الأبيض وأنا أرتجف . فصاح بي الشيخ : لعنة الله عليك لقد أفسدت كلّ شيء . وكاد يصفعني لولا أن أبي هدّأ من خاطره : إنتظر يا شيخنا أصلحك الله . . لنسأل الولد ماذا رأى بالضبط، فإتخذ كلّ منا مجلسه، بينما أخذ الشيخ يطقطق بسبحته غاضباً إلى أن استعاد هدوءه ثمّ قال : هل ارتحت يا نبيل؟ . قل لي ماذا رأيت؟ فقلت : لا أستطيعَ أن أحدّد لك ما رأيت، ما من شيء كان يشبه جرّة .

- ماذا كان يشبه إذاً؟ صندوق مثلاً، كيس؟

- لا هذا ولا ذاك، إنّما أشياء مختلفة لم أرَ مثلها في حياتي .

قال أبو نبيل : لا بدّ يا شيخ إذاً أن يكون هناك شيء غريب مدفون تحت الأرض . . فهل تعيد ضرب المندل ثانية لعلّ الصورة تتوضّح أكثر؟ .

قال الشيخ : - لا . . ليس اليوم يا أبو نبيل . . ليس اليوم، لقد تعبت . . كما أنّ أخي وهدان لن يحضر ثانية إلا بعد زمن لا أدري متى يكون، اتركوا

الأمر بضعة أيام أخرى، لعلّنا نصل إلى حلّ يرضيكم ويرضيني. ثمّ وقف قائلاً: السلام عليكم.. وخرج من البيت بخطوات واسعة. رافقه أبي إلى الباب ثمّ عاد وسألني:

ـ قل يا نبيل ماذا رأيت بالضبط؟

ـ ما رأيته كان يشبه البحر. ثمّ صحت فجأة: نعم.. نعم رأيت بحراً.. والله يا أبي رأيت بحراً.

قال أبي: حيّرتني يا نبيل.. هل تريد أن تقول إنّ كنز جدّتك المزعوم مدفون في البحر أم هنا تحت هذه الغرفة؟

ـ هذا ما قالته جدّتي.. نعم.. تحت هذه الغرفة، لكن ما رأيته في وعاء الماء، كان بحراً تتلاطم فيه الأمواج.. فضرب أبي كفاً بكف وهو يردّد:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.. ما زال بأوّل عمره وراح يخرّف كجدّته.

وبينما كانت عمّتي تهزّ رأسها موافقة. انسحبت من الغرفة وأنا أشعر بالندم لأنني بحت بسرّ الكنز. وقرّرت أن لا أتكلّم في هذا الموضوع أبداً. ليت جدّتي ما زالت على قيد الحياة، لكانت أنقذتني من هذا الموقف الحرج واعترفت أنّها هي التي قالت لي هذا السر. لكنّها ماتت ودفنت معها الحقيقة.. كان لا بد أن أسأل وردة النرجس التي غاب عن بالي سؤالها. فتحت الكتاب فإذا بها تتشكّل مثل وجه طفل فوق السطور، اقتربت منها وتأمّلتها ملياً، خيّل لي أنّ فم الطفل يتحرّك بكلمات مبهمة من لغة ما لم أدرك كنهها، ولكن سرعان ما أيقظتني على ذكرى ذلك الإحتفال الجميل الذي عشناه نحن شباب الحي عند الأستاذ كامل بعد عودته من القامشلي، حيث عمل معلّم مدرسة لمدّة سنتين، بعد تخرّجه من دار المعلّمين. كان صديقي الأقرب إلى قلبي. وإن كان الأكبر سناً، ولم نكن نسمع عنه إلا أنّه شاب آدمي، لا يعرف من الدنيا غير الدراسة والصلاة، والطموح لأن يصبح معلّماً يعلّم الأولاد التاريخ واللغة العربية التي يعشقها. كانت

علاماته في اللغة العربية هي التي أهلته لتدريس هذه اللغة. يقول لي: إنّها لغة القرآن يا نبيل. ولولا القرآن، ما كنّا نعرف الآن بأيّ لغة نتكلّم.. السريانية، لغة سوريا الأساسية، أو العبرية والله أعلم. كنا نتحدّث أمامه عن مغامراتنا. نبالغ أحياناً، ونكذب بعض الأحيان، مع فتيات جميلات، نحبّهن ويحببننا، فيفتح فاه دهشة أو يتساءل لماذا لا يحدث معه مثلما يحدث معنا؟ فنضاحكه قائلين، لأنّك خجول تستحي حتى من أمّك، فيردّ علينا مفاخراً: الخجل مكرمة من مكرمات الأخلاق.. أمّا أبو عرب وهو أكبر منّا جميعاً، فقد كان يتباهى أمامنا بعلاقاته مع مومسات عابرات، متفلسفاً أنّ المرأة وعاء لا تستحق أن يعطيها الرجل كلّ وقته، وأنّه من ناحية أخرى، يجد في المومسات تعاطفاً أفضل ألف مرّة من امرأة تدّعي العفّة، بينما لا يعرف أحد من أهلها أين تذهب ومع من تلتقي:

- حرام عليك يا أبو عرب - يقول الأستاذ كامل - إنّ بعض الظنّ إثم.

- بلا ظنّ.. بلا إثم، المرأة بنصف عقل يا أستاذ.

ألغينا اسم كامل وبتنا لا نناديه إلا بالإسم المحبّب إليه: الأستاذ.

يقول أبو عرب:

- تلعب بعقلها.. كما تلعب بعقل طفل.

يرفض الأستاذ هذا المنطق، فالمرأة إنسان مثلنا. بل عقلها أرشد من عقولنا. يغريه أبو عرب بلقاء المرأة التي تزوره بين الحين والآخر، فيرفض ويعلن لنا جميعاً أنّه لن يقرب امرأة إلا بالحلال بإذن الله.. جميعكم زعران. وسوف يحاسبكم الله حساباً عسيراً.

نضحك، فيردّد: يا جهّال. لا أدري كيف أسمح لنفسي بالجلوس مع جهّال.

يقول أبو عرب:

- ولو يا استاذ.. جرّب مرّة.. تعلّم.. حتى إذا ذهبت إلى بنت الحلال وجدتْكَ أستاذاً في كلّ شيء.

وأدافع أنا عن نفسي:

ـ كيف تعتبرني جاهلاً وأنا على وشك أن أنال البكالوريا؟

يبتسم الأستاذ:

ـ هل تتصوّر أنّ العلم هو بتحصيل الدرس؟ . . أنت تتعلّم القراءة والكتابة والكيمياء والرياضيات في المدرسة . . ولا تتعلّم الأخلاق. أخاف عليك يا نبيل من أبو عرب وأمثاله ـ ويشير إليه بيده ـ إنّه مدّع وكذاب. ويروي لنا قصصاً من بنات أفكاره المريضة.

يحتجّ أبو عرب ويتظاهر بالغضب:

ـ والله لو لم تكن إبن الحارة لأريتك نجوم الظهر.

ـ يا سيدي أنا أقول الحقيقة، كل يوم تقول لنا التقيت بتلك وهذه، ولم نرك مرّة واحدة مع امرأة.

ـ وهل تريدني أن أتمختر معها أمامكم من أوّل الحارة إلى آخرها؟ إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا.

ـ وها إنّك تعترف بأنّك ترتكب المعصيات.

يلتفت أبو عرب نحونا وهو يتهكّم:

ـ انظروا . . الأستاذ يعظنا بالأخلاق . . كأننا تلاميذه ـ ثمّ يلتفت نحو الأستاذ ـ وفّر هذا الكلام لطلابك واتركنا بحالنا. وإذا كانت أحاديثنا عن النساء لا تروق لك لا تجلس معنا بعد اليوم.

يبتعد الأستاذ عنا وهو يرمقنا شزراً واحتقاراً، فيصيح به أبو عرب: ولِكْ شو محسّب حالك ولُي.

لم يلتفت الأستاذ، بل إبتعد عنا بخطوات هادئة، فقال أبو عرب:

ـ سأفعل ما لم يخطر ببالكم وأريكم كيف ينهار عند أوّل غمزة من امرأة . . هذا الدّعي، إن أبشع إمرأة إذا أرادت، سحبته من حضن أمّه.

ـ اترك الرجل بحاله يا أبو عرب، ودعك من هذه الأساليب، إنّه صديقنا ولا يجوز أن نؤذيه.

ـ ألا ترون هذه النظرة المتعالية التي ينظرها نحونا؟ يتظاهر بالتعفف وفي أعماقه ألف اشتهاء لأي عابرة طريق».

«الغريب، أنّ الأستاذ كلّما غضب منّا، عاد إلينا مسامحاً كأنّ شيئاً لم يكن، فيكرّر أبو عرب حكاياه مع النساء ويحاول الإعتذار ضمناً: ليس كل النساء مثل بعضهن. هناك محصّنات لا يغرّهن المال ولا الجاه.. لكن البعض منهن يتهاوين، المال ابن حرام، تسقط أمامه كل الكرامات سواء في الرجال أو في النساء.

ـ أنت تبالغ يا رجل.

ـ يا عمي.. والله بالمال تشتري كل شيء حتى الجنة..

ـ لا تكفر.

ـ معاذ الله من الكفر.

ـ طيب.. اسمعوا يا سادة: إذا امتلك الواحد منكم مالاً فابتنى مسجداً، وأعطى الفقير والمسكين واليتيم دون منّة، ودفع الزكاة بدون انقطاع، وحجّ إلى بيت الله الحرام، وتبرّع ببناء المستشفيات، وعالج المرضى المحوجين، كل هذه الأمور ألا تجعلك تحمل كتابك بيمينك؟

يجيب الأستاذ:

ـ طبعاً.. مآلنا الجنّة إذا فعلنا ذلك.

ـ إذاً يا أستاذ ألم أقل لك إنّك تشتري بالمال كلّ شيء؟

ـ لا أريد أن أحاججك في هذا الموضوع، إنّك يا عدو الله تقودنا للكفر من حيث لا ندري.

ـ يا جماعة.. ما علينا غير حضور حلقات الشيخ أمين.. هو وحده القادر على قول الحقائق.

يقول الأستاذ :

ـ بالنسبة لي لا أرى ما يرى أبو عرب . إنّ فقيراً بسيطاً إذا أدى واجبه ، ولم يكذب ولم يزن ولم يأكل مال اليتيم أو يسرق ، مآله الجنة ، أنت تخلط في الأمور يا أبو عرب ، وتظنّ نفسك تعرف وأنت لا تعرف . إذا أردت الحقيقة فأنت إلى جهنّم وبئس المصير .

يضحك أبو عرب ساخراً :

ـ هذا ما أتمنّاه . . هناك سأجتمع بملكات جمال العالم اللواتي يتعرّين أمام الألوف من أجل الحصول على التاج . هؤلاء النساء الجميلات سألقاهنّ في جهنّم . ولن تتمتّع يا أستاذ بالنظر إليهنّ ، لأنّك ستكون في الجنّة . . والعلم عند الله .

يقهقه أبو عرب عالياً : يا عالم . . ماذا نحكي . . كأننا نهذي بما لا ندرك كنهه ولا نعرف سرّه .

ما أراده أبو عرب حققه، كشف لنا سراً لم نصدّقه، طرق باب بيت الأستاذ الذي يعيش فيه مع أمّه العجوز، بعد وفاة والده، وزواج أخواته:

ـ مساء الخير أستاذ.

ـ أهلا أبو عرب.. تفضّل.

ـ لأ لأ. أنا داعيك على كاس عندي في البيت.

ـ أنت تعرف أنني لا أقرب الخمرة.

ـ حسناً.. اشرب شاياً أو قهوة.

ـ وما مناسبة هذه الدعوة يا أبو عرب؟

ـ لا تسألني.. اذهب معي، وسترى ما يسر خاطرك.

ـ قل لي الآن أو لا أذهب معك.

ـ أنا أحبّ المفاجآت. وستكون مفاجأة جميلة صدّقني.

ـ حلال أو حرام.

ـ دعك من ذلك سترى شيئاً عجيباً.

تردّد الأستاذ، وبعد لأي قال: سألحق بك.. اسبقني.

ـ هل تأتي أم لا؟

ـ سآتي بالتأكيد.

أدرك الأستاذ في هذه اللحظة أنّه سيرى مشهداً غير مألوف، ولم لا؟ ليرَ. حلق ذقنه، وارتدى بدلة جديدة لا يرتديها إلا في المناسبات.. ثم خَرج متّجهاً إلى بيت أبو عرب. وعندما دقّ الباب، فتحه أبو عرب، ففاحت منه رائحة الخمر. استعاذ الأستاذ بالله، لكنّ أبو عرب سرعان ما شدّه من يده: أدخل يا رجل.. أدخل.. لا تخف. دخل الأستاذ بخطى متردّدة إلى غرفة ملاصقة لسلّم البيت، وهي غرفة أرضية وحيدة، بينما بقية الغرف يصعد إليها المرء على سلّم حجري من اثني عشرة درجة، بحيث باتت الغرفة منعزلة تماماً عن بقية الغرف، وتتيح لأبو عرب أن يفعل «السبعة وذمتها[1]» دون أن يدري أحد به. فما إن وطأ الأستاذ أرض الغرفة، حتى لمح امرأة في الثلاثينات من عمرها، تميل إلى السمنة، متبرّجة، جالسة على القاطع[2]. تعلك اللبان وتطقطق بها كأي مومس. رحّبت بالأستاذ بلهجة مغناج يا أهلاً.. أهلاً بالأستاذ. حاول الأستاذ أن يتراجع. لكن أبو عرب وضع يده على ظهره ودفعه حتى وجد نفسه بجانب المرأة التي فاح منها عطر رخيص «تقبرني.. لماذا إنت خجلان؟». قالت المرأة، ثمّ عانقته وشدّته إلى صدرها. خلّص الأستاذ نفسه من عناقها. وانزاح قليلاً، بينما راح العرق يتفصّد من جبينه بغزارة. صاح أبو عرب مداعباً: شو أستاذ.. عمرك ما شفت مرا.. قرّب خذ لك بوسة، هذه الست سعديّة ملكة جمال كازبلنكا. فيردّد الأستاذ خجلاً: فاجأتني يا أبو عرب. فاجأتني. فيقول له ساخراً: حاجه سحب ولوو[3]. صمت الأستاذ مطرقاً إلى الأرض، فغمز أبو عرب سعدية التي أسرعت وعانقت الرجل من جديد: تقبرني.. ريحتك حلوة.. شكراً.. شكراً.. أسرع أبو عرب وأعدّ كأساً من الخمر وقدّمه لضيفه: خذ.. اشرب. يردّ الأستاذ الكأس بعيداً عنه: أنت تعرف أنني لا

---

(١) تعبير شامي عن أشياء كثيرة محرّم القيام بها.

(٢) كنبة من الخشب عليها طراريح ومساند من القش.

(٣) أي لا تكذب.

أشرب الخمرة. مرّة واحدة يا أستاذ. . شو جايين نصلّي هون. بس. . بس لا تخلط أبو عرب. حسناً. . خذ شفّة[١]. .

تمنّع الأستاذ بإصرار، لكنّ سعديّة أخذت الكأس من يد أبو عرب وقربتها من فم الأستاذ: تقبرني. . شفّة واحدة. . ما بيصير شي. . والله عمري ما شربت خمرا. . . جرّب. . جرّب. ستشعر بنشوة جميلة. ثمّ إنّ سعدية وضعت الكأس على فم الأستاذ وراحت تضغط حتى تسرّبت بضع قطرات إلى فمه. أحسّ بلذعة حادة وكاد يبصق ما في فمه. لكنّ المرأة استمرّت بالضغط حتى ابتلع الأستاذ كمية من العرق الممزوج بالماء. فراح يسعل بشدّة. صاح أبو عرب: وُلكْ هادا حليب السباع. . هلأ بتشوف حالك مثل النار. رضخ الأستاذ وهمس: لنجرّب. . ولن أعيدها مرّة ثانية.

استسلم الأستاذ لسعدية ومداعباتها. وبعد وقت قصير، خلع الجاكيت وفكّ ربطة العنق، وفكّ زرّين من قميصه، فظهر للمرأة شعر صدره الكثيف: أوه. . رجّال حق وحقيق[٢]. شعر الأستاذ بالزهو. وتباسط في جلسته. لم يكن قد تأمّل المرأة من قبل، لكنّه الآن راح ينظر نحوها بشغف واشتهاء. تاركاً نفسه لمداعباتها كأي امرأة تريد إثارة رجل. أدخلت كفّها إلى صدره وراحت تداعب الشعر الأسود الكثيف ثمّ سألته: بشرفك. . كم امرأة عرفت في حياتك؟. قال: لم أعرف أي امرأة. أبداً! قالت المرأة مستغربة: معقولة. . قال: والله أقول لك الصدق. . لم أعرف امرأة في حياتي. . . داعبته سعديّة قائلة: ألم تقرأ. . ألم ترَ. . ألم تتلصص على بنت الجيران. كل هذا حرام يا سعدية. . كل هذا حرام. . وماذا أنت فاعل الآن؟ أستغفر الله لا أدري. . والله لا أدري. وكأنّ شيئاً استيقظ في أعماقه فابتعد عنها وهو يهمس بصوت محموم: دعيني. . دعيني. لكنّ أبو عرب

(١) أي قطرة من الشراب.

(٢) أي رجل حقيقي.

شدّد على المرأة بغمزاته المتتابعة. فاقتربت منه من جديد وضمّته إلى صدرها بقوّة، راحت تقبّله قبلاً محمومة كأنّها ستأكله، بل فعلت أكثر من ذلك. . إذ أخذت تعضّه من شحمة أذنه. ثمّ من شفتيه، وبسرعة مذهلة، فكّت له أزرار قميصه وأبو عرب يشجعها أن تستمر. ولم تكتف سعدية بذلك، بل أخذت تملأ فم الأستاذ بالخمرة فيشرب بلا وعي إلى أن صار بين يديها كالخرقة المبلولة، فاستسلم. خلعت عنه ملابسه قطعة قطعة. فأطفأ أبو عرب النور، وأشعل مصباحاً أحمر في الزاوية، فخيّل للأستاذ أنّ أبو عرب لم يعد في الغرفة، فارتاح وترك للمرأة أن تفعل ما تشاء، ثمّ بدأ الإحتراق في جسمه، صار جمراً يحرق ذاته بذاته، زحف نحو المرأة وهو يرتجف. وبدا أنّه لا يستطيع تمالك نفسه. وما أن حاول الجلوس حتى هوى. وعندما أدرك أبو عرب أنّ لا حاجة له بعد ذلك، انسحب من الغرفة. فقد التصق جسد المرأة بجسد الأستاذ حتى أصبحا عجينة واحدة، وتحوّل فم الأستاذ إلى ذئب شره.

عندما عاد أبو عرب وأشعل النور القوي، راح يضحك بصوت عال. بينما الأستاذ بدا مذهولاً، فاختطف إحدى الوسائد ورماها على بطنه. . وغطى وجهه بكفّيه. وأخذ يردّد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أخذ ملابسه وراح يرتديها على عجل. دون أن ينظر إلى أيٍّ من أبو عرب أو سعدية: فصاح أبو عرب: على مهلك يا رجل. . لماذا أنت مستعجل؟ فقال الأستاذ: لعنة الله عليك وعلى الخمرة. . ماذا فعلت بي يا أبو عرب؟ فأجابه: هذا درس يا أستاذ. . درس كنت بحاجة له كي تعبر الحياة بسلام.

وقف الأستاذ يحاول الخروج. منعه أبو عرب في البداية: انتظر يا رجل. . ألا تريد أن تتفرّج علينا أنا وسعدية؟ فصاح الأستاذ بغضب: لا. . لا. . أيّها الشيطان اللعين. . ضحك أبو عرب، ثمّ انزاح جانباً ليترك الأستاذ الذي خرج لا يلوي على شيء».

حقاً إنّك شيطان، قال نبيل لأبو عرب.

ـ اسكت. . اسكت يا نبيل. . لقد أخرجته من قوقعته. . العما بقلبه لا يعرف شيئاً. ما قبّل فمه غير أمّه كما يقول المثل. العما. . سعدية هي التي اغتصبته. كان بين يديها كالعجينة، تقلبه عالياً سافلاً وهو جمرة من نار. . ليتعلّم يا أخي. . أقول، بيني وبينك، إنّ كامل كان ناقصاً وأصبح الآن كاملاً. . يضحك ثمّ يتابع: كان بنتاً وصار رجلاً. شتمني ووصفني بالشيطان. . غداً سوف يعرف أنني علّمته الخطوة الأولى لمواجهة الحياة.

ـ تضرب إنت وها الفلسفة. . الخطوة الأولى عبر مومس؟!

ـ نعم. . نعم. . لقد كسرت له هذا الخجل المتلبّس به والمعجون فيه. . خجل كان سيفوّت عليه الكثير من الفرص. هو، بعد ذلك اليوم، سيواجه الحياة بشجاعة. المهم الخطوة الأولى. . فما بالك إذا كانت الخطوة الأولى على جسد امرأة. لو لم أُتح له هذه الفرصة فلن يتزوّج أبداً. . ما كان يستطيع أن يقطع ذنب القط. في ليلة العرس.

ـ أما فلسفة عجيبة. .

ـ رح. . رح. . إنت أيضاً بحاجة إلى مثل هذه الدروس.

ـ لا. . لست بحاجة لها أبداً. .

ـ يعني. . يا ملعون تخبىء علينا أخبار مغامراتك. . لا أشكّ في ذلك. .

ما كان أبو عرب يعرف أنني تلقّيت أوّل درس ولمّا أتجاوز الرابعة عشرة من عمري. لمياء السمراء، الدعجاء، فارعة الطول على جسد مشدود ونهدين مليئين، خرجت من حياتي الآن، ومن حياة وحيد، متسللة إلى حبّ امتلك عليها قلبها، حبّ سرّي لم أكتشفه في البداية، بل اكتشفته قبل أن تبوح لي به، اكتشفته من وجهها الذي صار أكثر جمالاً وحيويّة وسعادة، اكتشفته من فرحها، وإقبالها على الحياة، من غندرتها الغريبة والملفتة

للنظر. أصبحت أكثر نضوجاً وتألّقاً. مشتهاة تلتقطها العيون وهي عابرة فيتنهد أصحابها. وحدي من بين الجميع لفت نظري هذا التبدّل، ومع ذلك لم تَبح لي بالسر، ولا حتى وردة النرجس. قالت الوردة أبوح لك بأسرار مضت.. لا بالأسرار التي نعيشها الآن.

كانت قد بدأت حياتها العملية مربية ومعلّمة في مؤسّسة لحضانة الأطفال، واختيارها لهذه المهنة نابع من حنينها الدائم إلى طفل من صلبها، من رجل تحبّه. عندما يقول لها خالها: متى نفرح بك يا خال؟ تقول له فرحة: قريباً.. قريباً. لكنّ الخطّاب طرقوا بابها مراراً دَون أن تقبل بواحد منهم، كانت تتعلّل بأنّ أختها الكبرى لم تتزوّج بعد.. وهي ستنتظر زواجها أولاً. حتى وحيد عافته بعد مقتل أمّه في ذلك اليوم الفاجع. لا تريد أحداً من أقربائها، تريده بعيداً عن وسطها، جميلاً وغنياً وابن عيلة. صارت لمياء أكثر حرية، منذ راحت تعمل في تلك المؤسسة، تذهب صباحاً إلى أقصى حي المهاجرين حيث يقع مبنى المؤسّسة، وتعود في المساء. وإذا ما صادفتها، قبّلتني من فمي ضاحكة: أنت حبيبي الأوّل. يعني في حياتك الآن حبيب ثان. سأقول لك ذات يوم يا حبيبي.. سأقول لك. ويشرق وجهها بفرح طاغ. وأتلفّت حولي فأتذكّر أنّ حبّي الحقيقي الذي عاش أشهراً كان لمها، ثمّ تعرّفت على فتيات. وضحكت عليهنّ وادعيت أنني أحببتهن، وربّما أحببتهن فعلاً، لكن ما إن يمرّ خيال المها في ذاكرتي وأعماقي حتى أنساهن، وأركض إلى القبر الرخامي أبكي دون أن يراني أحد.. وكأنّها تنده عليّ من أعماق الأرض: لا تجزع.. ستحب.. ستحب.. ستحب.. لا نهايات سعيدة للحبّ الجميل.. هل هذا معقول؟ كل العشاق يتمنون نهايات سعيدة.. الزواج.. الزواج مقبرة للحب، الحب نيزك يضيء لحظات ثمّ ينطفىء وينهار. احذر يا نبيل.. احذر.. فالمخفي أعظم».

«أشتاق لأسامة، باتت لقاءاتنا نادرة، إذ حصل أسامة علي وظيفة في مصلحة عين الفيجة، بعد نيله البكالوريا. نلناها معاً وبامتياز، وكان من المفروض أن نذهب إلى الجامعة. تكاسلنا معاً، هو اختار الوظيفة وأنا اخترت محل أبي في سوق البزورية، وأبي التاجر الذكي شامي أباً عن جد، إذ أخفى، ودون أن نعلم جميعاً، بمن فيهم أنا، أطناناً من الأرز والسكّر، وكانت هاتان المادتان مفقودتين في السوق، بسبب الحرب العالمية الثانية، وخصوصاً في الفترة التي اصطدمت فيها القوات الإنكليزية والفرنسية التابعة للجنرال ديغول، مع قوات فيشي الفرنسية التي هادنت الألمان النازيين قبيل انتهاء الحرب، وفي عزّ الأزمة كان هذا التاجر الشامي يبيع بضاعته المخفية بأضعاف أسعارها الحقيقية. دون أن ننتبه إلى أنه أخفى هذه البضاعة في بيت متهدّم في الغوطة يمتلكه مع بستان صغير نقصده في أيام الصيف الحارة. لنبترد قليلاً تحت أفياء أشجاره. ومنذ انخراطي بالعمل في محل الوالد، تكشّفت أمامي هذه الأسرار دون الإستعانة بوردة النرجس، فقلت في نفسي كم كان هذا التاجر ذكياً. يتشكى من سوء الحال، ثمّ يخفي ما خبّأ من بضاعة ليبيعها بأسعار فاحشة، وتذكّرت في الوقت نفسه، عدم اهتمامه بالكنز المخفي تحت أرض غرفة عمّتي أم وحيد. صحيح أنّه أحضر الشيخ أبو الجمل لضرب المندل، ولكنّه حتى تلك اللحظة، لم يأخذ

موضـوع الكنز جدياً. وهو منذ ذلك الحين يسـخر مني: قلت لي كنز تحت الأرض، فـأقـسم له أنّ جدّتي الراحلة هي التي أكّدت لي على وجـوده. فيضحك وهو يقول: وأنت رأيت في طشت الماء بحراً؟ في البحار يا ولد كنوزاً لا حصر لها. ولكن من يستطيع أن يغطس تحت الماء. بوارج وبواخر غرقت في هذه الحرب، ولا أحد يعرف ماذا تحتوي.. أكل هذا رأيته في طشت الماء؟.. ويقهقه عالياً: خيالك واسع مثل خيال جدّتك التي كانت تنقلنا إلى أقصى الأرض بلمح البصر. فأنتبه بعد كل هذا الزمن إلى أنني، فعلاً، رأيت في طشت الماء ما يشبه البوارج والبواخر والطائرات الغرقى، فيؤكّد أبي لي متحسّراً: يا حرام عليك.. بعدك شاب، وأصبحت مثل المرحومة الخرفانة، إصحَ يا ابني.. إصحَ من هذه الخزعبلات. فأنصرف عن ذكر الكنز، إلاّ إنّ عمّتي أم وحيد كانت وحدها مقتنعة بوجود هذا الكنز، فراحت بمساعدة ابنها وابنتها المعوقة تنكش أرض غرفتها ليلاً وسرّاً، دون أن يدري أحد في المنزل ماذا تفعل.. كانت تنقل التراب إلى الخزانة المحفورة في الجدار، وترمي على الحفرة سجادة لتموّه على سكان البيت، ما كانت تفعل، ثمّ تهيل التراب على هذه الحفرة لتحفر غيرها إلى أن وقعت الكارثة، إذ انهار الجدار الرئيسي في الغرفة فوقها ودفنها تحت الأرض. تعالى صراخ ابنتها المهووسة بعالمها الآخر، ولم يكن وحيد في البيت، صارت تصرخ: خالو.. خالو.. وتبكي وتولول، ولكن بعد فوات الأوان. كانت قد دفنت تماماً في حفرتها. حاول أبي وأمي والجيران إزالة الأحجار الضخمة التي سقطت فوقها وهو يصرخ عليها بلوعة. عندما وصلوا إليها، وجدوها جثة هامدة، وهي تقبض بيدها على حفنة من التراب.. ضرب أبي كفاً بكف وهو يردّد لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. الطمع ضرّ ما نفع، بدأ بصاحبه فقتله. الكارثة خيّمت على البيت الذي تضعضعت جدرانه، وأصبح آيلاً للسقوط. وكان همّ أبي بعد ذلك ترميم البيت. في أثناء ذلك، حاول أن يتأكّد من حكاية الكنز، فطلب من أبو فهد المتخصّص في ترميم المنازل أن يبحث عن شيء ما في باطن الأرض، قبل أن يقيم ما

تهدّم. بعد أيام، جاء أبو فهد إلى أبي وقد حمل بين يديه جرّة محطّمة وموزّعة بقاياها تحت التراب. وناداه ضاحكاً ساخراً: هذا كنزك يا أبو نبيل.. أمسك أبي بالجرّة مشدوهاً. فقال أبو فهد وهو يتصهصه: الجرّة فارغة والكنز مفقود. لا شك أنّ الجان والعفاريب قد استولت عليه.. حدّق أبي بالجرّة وعلى وجهه حيرة كبيرة ثمّ قال: «ولكن لماذا كانت هذه الجرّة تحت الأرض؟! ولم يحر أبو فهد جواباً».

اثنان من العائلة فرحا بعبّهما[1]. نبيل ولمياء. فها هو سرّهما الكبير دفن مع آمنة إلى الأبد، أبو نبيل نادى على ابنه وقدّم له بقايا الجرّة قائلاً: خُذ.. هذا هو كنزك المفقود، وعمد بعد ذلك إلى ترميم البيت، وتقوية جدرانه وأعمدته، حتى عاد بيتاً شامخاً قوياً سيعيش مائتي عام كما قال له أبو فهد الذي تقاضى أجراً عالياً دفعه أبو نبيل بكرم وأريحية. وإذا التقى بنبيل يقول له: الكنوز تحت البحار يا ولدي، إذهب وتعلّم الغطس.. ثمّ أغطس في الطشت ذاته، لعلّك عاثر على كنز جدّتك. وكان أبو نبيل كلّما اشتاق إلى ممازحة ابنه يقول له: هات الطشت ولنناد على الشيخ أبو الجمل.. فيخجل نبيل، ويلوم جدّته التي كانت السبب في هذه الكارثة، وفي هذه التكاليف الباهظة التي دفعها أبو نبيل لترميم المنزل وإعادته أجمل ممّا كان بنقوشه الجميلة التي زيّنت جدران الباحة الرئيسية. لكنّ الغطس في الطشت أصبح من أحلام نبيل الجميلة، إذ رأى فيه ذات يوم حلماً عجباً، أسامة يزفّ إلى زين العابدين مثل عروس وعريس، فلم يستغرب ذلك، وهمس هامس في الحلم كالصدى: إنّ الحب يفعل المعجزات. في الصباح التالي ذهب نبيل إلى أسامة قبل أن يذهب إلى المحل وروى له ما رأى في الطشت. ضحك أسامة، وقال له: لعنة الله عليك.. ما هذا الحلم السخيف.. ثمّ لا تنسَ أنّ العرس في الحلم يعني الموت، معاذ الله هل بات موتي قريباً؟ ثمّ يسأله عن زين العابدين وأخباره فيقول له: إنعزل عن الناس تماماً. وإن رأيته أجده

(١) فرحا بعبّهما: أي أنّهما فرحا سراً بموت العمّة.

يهرول مثل القرد، راخياً ساعديه، وقافزاً فوق الأرض قفزات غير متوازنة، كما لو أنّه أبله لا يعرف ماذا يفعل، ثمّ يلتفت نحو صديقه قائلاً بحسرة:

ـ لقد قتلت زين العابدين يا أسامة.

ـ حرام عليك يا رجل.. ما ذنبي أنا.. هو الذي فعل بنفسه ما فعل.. دعك منه الآن، سيصحو.. ويعود إلى طبيعته.. المهم ما عدت أراه.. وما عاد يضايقني أبداً.

انتبه نبيل إلى البزة الراقية التي كان أسامة يرتديها، وإلى ساعة فخمة تزيّن معصمه.. فقال له:

ـ شو.. مرتّبات مصلحة الفيجة عالية جداً!

ـ بالعكس.. شحاذة بشحاذة..

ـ ولكن، يبدو عليك وكأنّك أمير ابن أمراء.

اقترب أسامة وهمس بأذن نبيل بضع كلمات جعلته يحدّق فيه مستغرباً:

ـ ماذا تقول؟!

ـ نعم.. إن أردت.. سوف آخذك معي ليلة ما وتكتشف هذا العالم الذي يمور بالعجائب والغرائب.

ثمّ سحب من جيبه جزداناً من جلد الأفعى وفتحه أمام عيني نبيل، فَشُدِهَ إذ رأى دستة كبيرة لأوراق نقديّة من فئة المئة ليرة.

ـ ما هذا.. من أين لك هذا المال؟

ـ قلت لك ستعرف لاحقاً. ولا بدّ أن أجد لك طريقة مماثلة، فتصرف من المال على كيفك، وتعيش عيشة راضية مثيرة في آن.

ـ إلاّ المال الحرام.

ـ ليس مالاً حراماً يا رجل.. بالعكس.

«لم يخطر ببالي أنّ أسامة كان جاداً، فمزاحه دائماً يدور في إطار الأحلام والتمنّيات، مثل السطو على بنك، وخطف ممثّلة سينمائية،

ومهاجمة سفارة أجنبية، وهو في الواقع لا يستطيع أن يؤذي فراشة، ناعماً كالنساء. بل متبرجاً يعتني بتسريحة شعره الأشقر، وبنعومة وجهه، حتى إنّه يعتني بأظافره وإلا كيف أصبح مهوى زين العابدين الذي أطلقنا عليه سراً «مجنون أسامة» فها هو زين قد تحوّل من رجل مهاب الجانب محبوب من أهل حيّه، إلى آخر مختلف، يستحق الرثاء، لكن الشيخ أمين ما فقد الأمل فيه، يروي أنّه يدخل المسجد لصلاة الصبح فيجد زين قد سبقه. إذ صار يفضّل النوم في المسجد عوض النوم في المنزل. يقترب الشيخ نحوه هادئاً وهو يظنّ أنّه نائم، فيراه يقظاً محدّقاً في سقف المسجد، متحجّر الدموع. فيمسك بيده ويقول له: قم يا بني. . لعن الله الشيطان الذي دخل فؤادك. ويحاول دون توقّف أو ملل إعادة زين العابدين إلى حاله الطبيعية، ويظنّ بعض الأحيان أنّه نجح بمحاججته في حلقات الدرس حول أمور الدين والدنيا كعادته، فيشجعه على ذلك، ثمّ سرعان ما يكتشف أنّ كل هذه المناقشات كانت تصبّ في تبرير عشقه المجنون لأسامة. أسامة غير حافل به، بل الذي ما عاد فيما بعد يذكره لا بخير ولا بشرّ».

قال أسامة لصديقه: ستذهب معي هذه الليلة؟

ـ ظننتك تمزح.

ـ أمزح؟ . . ألم أُرك جزداني المليء بالمال . . ماذا تظن؟

ـ لا أعرف.

ـ لا أكذب عليك، أنت أخي ورفيق العمر. أخرج قليلاً من السمن والزيت والبرغل والأرز، هل تريد أن تدفن نفسك حياً في محلّ أبيك؟ النهار للعمل والرزق، والليل للفرح والسرور . . أليس كذلك؟

ـ أخشى أن يعلم أبي بذهابنا إلى هناك.

ـ كيف له أن يعلم . . ثمّ إنّك أصبحت رجلاً . . وحياتك أصبحت لك . .

ـ أعرف . . أعرف. ولكن أبي يتأذى من هذه التصرّفات . . أموت ولا أجعله يزعل مني.

ـ اكذب يا رجل . . هذا كذب أبيض لا يؤذي ولا يضر . . لا تقل لأحد إنّك ذهبت إلى هناك، قل لهم إنّك تتردّد على المقهى وتلعب النرد مع أصحابك . . ولتكن هذه الليلة، بداية جميلة وسراً لا يباح . . سأعرّفك على المرأة التي لا تحبّ سواي في هذا العالم . . والتي إذا فقدتني تموت . .

كل هذا المال منها، كل هذه الملابس والقمصان وربطات العنق. . كل شيء منها يا رجل. . كل شيء.

أوقفنا سيارة أجرة، قال أسامة للسائق: الروبير[1] من فضلك. تأمّل السائق الشابين ثمّ قال: تفضّلا.

الروبير كان يقع في ضاحية ملاصقة لدمشق. وهوبناء كان في الأصل ثكنة عسكرية أو مستشفى للفرنسيين، وعندما رحلوا عن البلد، جمعت الدولة كل بغايا المحل العمومي الذي كان يقع بين حيي الشاغور والميدان في دمشق، ونقلوهن إلى هذا المكان، بعد احتجاج سكّان الحيين المذكورين المستمر، بل والتعدي على المومسات وتهديدهن بالقتل. وبانتقال هؤلاء المومسات إلى هذا المكان المنعزل. انقطع اختلاطهن بالسكان، وصار هيّناً على السلطات مراقبتهن أمنياً وصحياً، فلا ينقلن الأمراض الخطيرة إلى من يعاشرهن. كما أنّه ليس مسموحاً لهن بالنزول إلى المدينة، إلا لبضع ساعات للتبضّع وشراء حوائجهن. ومنذ ذلك اليوم تحوّلت هذه الثكنة إلى شبه خليّة من الشبان المندفعين لشراء اللذة العابرة، ومن نساء أعمارهن مختلفة وشاءت أقدارهن أن يهبطن إلى هذا الدرك.

ترجّل الشابان من السيارة، وما إن اقتربا من المبنى حتى رمقهما الشرطي المولج بالحراسة والأمن ثمّ طلب منهما تذكرتي الهوية. بعد النظر فيهما أشار إليهما بيده فدخلا. صاحت واحدة: سوسو. سوسو. لم يلتفت أسامة نحوها وقال لنبيل: ينادونني سوسو تدللاً. وهل أصبحت مشهوراً إلى هذا الحد؟ طبعاً. . سترى أكثر من ذلك. خذ هذه المعلومات الآن: هذا الطابق الأرضي لمومسات من الدرجة الثانية والثالثة. . أما الهاي لايف[2]، فهنّ فوق. نساء جميلات منتقيات على الصينية، يصلحن للتمثيل في السينما. صاحبتي تشبه بريجيت باردو.

---

(١) الروبير: المبغى، أو المحل العمومي باللهجة الشامية.

(٢) هاي لايف: أي من الدرجة الأولى.

راح نبيل يتأمّل هذا السوق العجيب، ممرّ ضيّق يفصل بين غرف صغيرة مصطفة على جانبيه. نساء متبرّجات وشبه عاريات يعلكن اللبان ويحاولن إغراء العابرين بمختلف التعابير البذيئة. وأحياناً غرف مغلقة يقف على بابها رجال يحرسونها، إنّهم قوادون يعملون عند هذه أو تلك مقابل عمولة لحراستهن، أو كانوا عشاقاً لهن دمّرهم عشقهم فيما بعد، فما طاقوا فراق عشيقاتهن. عالم غريب، خطا نبيل إليه الخطوة الأولى.. وما كان يعرف ماذا يخبىء له القدر.

عند مدخل الطابق الثاني، لمحت إحداهنّ أسامة، فصاحت: شهيرة.. شهيرة سوسو هنا. أسرعت امرأة نحو أسامة وارتمت على صدره معانقة إياه «تقبرني اشتقت لك». غمز أسامة نبيل مشيراً نحوها، سيدة في الثلاثين. جميلة متوسّطة الطول. تأمّلها نبيل. لا تختلف عن بقية النساء الجميلات بتبرّجها. سمراء، شعر فاحم، عينان نجلاوان. التفت أسامة نحو نبيل:

ـ أقدّم لك زوجتي شهيرة.

حدّق نبيل إلى وجه أسامة مستغرباً هذه الصفة، فغمزه أسامة غمزة ذات معنى. «لا شك أنّ أسامة يمزح على عادته»، لكنّ شهيرة رفعت كفّها في وجه نبيل فرأى خاتماً يتوسّط إصبعها: إنّه زوجي.. فلماذا الإستغراب. قال أسامة: نبيل أخي وصديقي ورفيق عمري.

رحّبت شهيرة بنبيل، ثمّ دعتهما إلى غرفتها، ولم تنسَ قبل أن تغلق الباب، أن تقول للرجل الواقف بالقرب من الغرفة: أنا مشغولة.. لا أريد أحداً. هزّ الرجل رأسه باستكانة وذلّ، فتذكّر نبيل وهو يلمحه، ما كان يقال عن هؤلاء الرجال، وتساءل: هل كان عاشقاً لها ذات يوم؟

أغلقت شهيرة الباب، داعية الرجلين إلى الجلوس. اتخذ نبيل ركناً في الغرفة وراح يتأمّلها: سرير عريض في الوسط، ملاءة حمراء مرمية عليه بفوضى. مشجب في الزاوية، خزانة ملابس مشقوق بابها قليلاً، لوحة رخيصة لامرأة عارية على الجدار المقابل، مرآة مستطيلة الشكل معلّقة قرب

المشجب، نافذة تطلّ على الممر تحجبها ستارة سميكة. طاولة يلتصق بها كرسيان، وعليها مزهرية بدون ورد، تواليت في الزاوية الأخرى ومغسلة إلى جانب بابها من الخارج، ورائحة عطر رخيصة تملأ أجواء الغرفة. صاحت شهيرة: هل أعجبتك غرفتي يا أستاذ؟

ردّ نبيل بخجل: طبعاً.. طبعاً.. سألت شهيرة أسامة وهي تشير نحو نبيل: أوّل مرّة! أوّل مرّة. نظرت المرأة نحو نبيل مستغربة: صحيح أوّل مرّة، هزّ نبيل رأسه إيجاباً، لا أصدّق.. شاباً مثلك لم يأت إلى هنا.. لا أصدّق.. هنا مدرسة تتعلّم فيها ما لم تكن تعلم، قاطع أسامَة شهيرة: هو ضيفنا، صديقي الوحيد في العالم. قالت شهيرة مطأطأة الرأس: ما أندر الأصدقاء هذه الأيام؟ استلقت على طرف السرير فانحسر فستانها الشفاف عن ساقين جميلتين، استرق نبيل النظر نحوها فقالت له مازحة: أتسترق النظر إلى ساقي زوجة صديقك؟ خجل نبيل وأطرق نحو الأرض. فقهقهت شهيرة عالياً. صاحبك لا يعرف تقاليدنا.. ألم تقل له؟ قال أسامة: دعينا من ذلك الآن؟ لا.. لا يجب أن نجد له زوجة هنا تليق بالمقام.. ثمّ حدّقت إلى عيني نبيل: ما رأيك يا أستاذ؟ ظلّ نبيل مطرقاً، فقال أسامة: لا يفكّر في هذا الموضوع الآن، بعد بكّير. تلتفت شهيرة نحو أسامة: جاءتنا زبونة منذ أسبوع.. مسكينة هذه أوّل مرّة تقع بالمحظور. هل هي جميلة؟ خارقة، قالت شهيرة، ولكن لا تسنّ اسنانك.. أقتلك إذا اقتربت منها. يا ستي إنت زوجتي ولن أرضى عنك بديلاً، إنّما، وأشار نحو نبيل، كلام معقول، لكن لا أعرف عنها شيئاً بعد، ثمّ ما زالت مرتبكة، إنّها جديدة على هذا الجو، غالباً، عندما تكون فاضية[1] نراها تبكي، نسألها عن سبب هذا البكاء، فلا تجيب، الدمعة دائماً بعيونها، لماذا لا تدعينها لنتعرّف عليها، تكرم عيونك، لكن أقلعها إذا حطّت عليها. قلت لك من أجل نبيل. حسناً

(١) فاضية: أي ليس عندها زبائن.

تركت شهيرة مكانها وفتحت الباب: شريف. . نعم سيّدتي، رح عند حسناء. إذا كانت فاضية، ادعها إلينا. حاضر مدام. أغلقت الباب ورمت نفسها مجدّداً فوق السرير، إذا جاءت، نطلب عشاء. ونتعشى معاً، تبقيان عندي الليلة. لوّح نبيل وجهه يميناً ويساراً: لا. . لا. . لا أستطيع، استغربت، فضحك أسامة: يضربه أبوه إذا تأخّر على البيت! أبوه، قالت شهيرة مستغربة. . ثمّ التفتت إلى نبيل: ألست رجلاً؟! إنزعج نبيل من الإهانة: ما رأيك لو تجرّبي؟ أوه يا نبيل بيك، أنا زوجة صديقك!

دقّت يد ناعمة الباب، ثمّ دخلت فتاة في أواخر العشرينات من عمرها: أهلاً حسناء أهلاً. . تفضّلي، فغفر أسامة فاه دهشة: حقاً إنّها حسناء. وبصوت هادىء حزين حيّت حسناء الموجودين. جلست على حافة السرير محاولة شدّ فستانها لتغطية ركبتيها. أهلاً حسناء أهلاً. هذا أسامة، زوجي، حدّثتك عنه كثيراً. تشرّفنا سيّد أسامة. وهذا صديقه نبيل، درويش مثلك. لأوّل مرّة يشرّفنا بزيارة. التقت نظرات نبيل وحسناء، فتكهربا، لم تكن لهجة حسناء تدلّ على أنّها من دمشق، فابتدرها بالسؤال: مدام. . أنت لست من الشام. . أليس كذلك؟ تدخّلت شهيرة: دعها يا نبيل هل أنت مصطفى بيك؟ ومن هو مصطفى بيك؟ إنّه رئيس الشعبة الأخلاقية يا رجل، كلّنا نخاف منه. هل هو قطاع رؤوس. قالت شهيرة: مصيرنا جميعاً بيده. ردّد نبيل: مصطفى بيك. . مصطفى بيك. . لعلّه مصطفى بيك النمر؟! هو بذاته. . هل تعرفه؟ صاح نبيل: أعرفه جيّداً. . وكثيراً جداً. . نظر الجميع إليه بدهشة: هل صحيح أنّك تعرفه؟. وربّما أراه أكثر منكن. صاحت شهيرة: يا للهول. . وكيف هي معرفتك به؟ فقال: إنّه صديق أبي. . ومن الروح للروح. حسناً. . ها قد عثرنا على الرجل الذي يسند ظهرنا. لا تتأمّلي خيراً. فلو عرف أبي أنني هنا لأطلق عليّ الرصاص. صمت قليلاً: وأنا الآن أكثر رعباً منكم. . سأحرص أشدّ الحرص على أن لا يعرف مصطفى بيك عن زيارتي هذه شيئاً. . بل أقول

لكم هذه الزيارة هي آخر مرّة أرى فيها هذا المكان. أإلى هذا الحد تخاف أباك؟ لست أخافه بل أحبّه، من الصعب جداً أن تسيئي إلى إنسان تحبينه، فكيف إذا كان هذا الإنسان أباك؟. صاحبك فيلسوف يا أسامة، إنه يقول الحقيقة. دعونا الآن من مصطفى النمر، نمر متوحّش ينتظر اللحظة التي يفترسنا فيها. نادت شهيرة شريف: نعم مدام. رح إلى البوفيه واطلب لنا عشاء، لحماً مشوياً ومقبلات. ولا تنسَ نفسك، خذ لك ما تحبّ. أحنى شريف رأسه ثمّ انسحب. التفتت شهيرة نحو نبيل: هل انتبهت إلى شريف؟ تقصدين البواب. ليس بواباً.. خجلتُ أن أقول القواد، وليس قوّاداً أيضاً. من هو إذاً؟ كان هذا ملكاً من ملوك المال. تاجراً قد الدنيا، ومن سوء حظّه تعرّف عليّ. كيف؟ عن طريق زوجي عندما كنت متزوّجة، لعب الشيطان برأس زوجي الذي يتلبّسه القمار كالشيطان، فترك له الحبل على الغارب، وأخذ يستغلّه أبشع استغلال، أحبّني حباً ملك عليه فؤاده. فكان يدفع لزوجي بدون حساب، وزوجي يرمي المال على موائد القمار. ويعود منها خالي الوفاض. وعندما أصبح على الحديدة[1]، شرع زوجي بتسويقي إلى رجال آخرين، ومن سرير.. إلى سرير حتى وجدت نفسي هنا. ورداً للجميل كان عليّ أن أحضر شريف معي، حارساً وعاشقاً صامتاً، لقمة خبزه من هنا، وأشارت إلى وسطها. يا حرام.. ضميري يعذّبني من أجله، تصوّروا، منذ أصبحت نزيلة هذا السجن، يرفض معاشرتي، أمنحه نفسي رداً لبعض جميله، يرفض. يعلّق أسامة: حكاية مكروره. تردّ شهيرة قائلة: اسكت يا أسامة.. أسكت، أخشى عليك أن تصبح ذات يوم مثله، فيقهقه أسامة بصوت عال ساخراً.

كان نبيل يتظاهر أنّه يسمع، ولم يكن يسمع. يسترق النظر إلى حسناء. واختيارها لهذا الإسم كان في محلّه، لم تفقد عذرية خجلها بعد، وسائل التجميل خفيفة على وجهها. عينان عسليتان، شعر طويل ناعم يميل إلى

(١) على الحديدة: أي أنّه لم يعد يملك شيئاً.

البني، جسد مشدود لم يترهّل بعد، حرام، ما الذي جاء بها إلى هنا؟ ستروي قصّة مماثلة لما روته شهيرة، كلّ قصصهن تتشابه.. أم ستكون مختلفة؟! وفيما هو يؤكّد أنّه لن يزور هذا المكان ثانية، كانت منه التفاتة نحو حسناء، فإذا بها تتأمّله. أطرقت من جديد وقد امتلأت ملامحها بحزن شفيف. قال لها: لم تقولي من أي بلد أنت؟ اعفني يا سيد نبيل من الإجابة. تدخّلت شهيرة: من لهجتها تعرفَ.. من لبنان يا أفندي. من أي بلد في لبنان. من لبنان وكفى.

دُقّ الباب، قالت شهيرة: جاءالطعام. تفضّل. تفضّل. لكنّ الطارق كان رجلاً في الخمسين وجّه كلامه إلى حسناء: جاء زبونك أبو سمير. قطّبت حسناء جبينها. ضحكت شهيرة: إذهبي.. إذهبي.. وعودي إلينا، عندما تنتهين منه. خرجت حسناء دون أن تنبس ببنت شفة، وما إن أغلقت الباب خلفها، حتى قالت شهيرة: هذا رجل عجيب، يجيء بين ليلة وأخرى. يطلب فنجان قهوة، ويدفع لها سخياً، كلّ ما يريده منها أن تجلس أمامه ليروي لها قصّة حياته، رواها عشرات المرات، نفس الحوادث والمشاكل، متاعبه مع أولاده، مع زوجته الثانية التي تضطهده على مرأى من الجميع. وفي كلّ مرّة يضيف حادثة جديدة ممّا يحصل له في البيت، أو المتجر الذي يملكه، هو في الخمسين تقريباً، تشفق عليه حسناء. وقالت مرّة: يا ليته أبوها لكانت ملأت حياته سعادة وحناناً. علّق نبيل: لو كنت مكانه لأخرجتها من هذه البؤرة وتبنّيتها. ردّت شهيرة: الذي يقع في المقدور لا يستطيع أن ينتقل إلى حياة أخرى. أنت مخطئة يا ست شهيرة. حسناء تبدو لي امرأة مسكينة، بحاجة إلى عطف ورعاية، بل أتمنى لو تعرفينني على هذا الرجل فأقنعه بستر حسناء والإبتعاد بها عن هذا المستنقع. التفتت شهيرة نحو أسامة: صاحبك يريد أن يقلب لنا حياتنا. ثمّ نحو نبيل: لن تستطيع أن تفعل شيئاً. قلت لك من تدخل هذا المكان، من الصعب أن تخرج منه وتبدأ حياة جديدة.. هنا، هنا حتى الموت.

غادر نبيل الروبير، تاركاً أسامة بين أحضان شهيرة. التفت نحو شريف الذي تكوّم على كرسي واطىء مستسلماً لنوم يرتفع رأسه ثمّ يسقط على صدره. ألقى نظرة سريعة على الممر، فبدت له جميع الغرف مغلقة. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً، فأسرع إلى الخارج، وما إن اجتاز الباب الخارجي حتى ملأ رئتيه بهواء نقي، شهيقاً وزفيراً عدّة مرات. لم يلتفت إلى الوراء. مشى بطيئاً وهو يفكّر بحسناء. ويحاول أن يزيح صورتها عن رأسه مصمّماً على عدم العودة مهما كان الثمن. أشار لسيارة أجرة ورمى جسده المتعب على المقعد الخلفي قائلاً للسائق: شارع بغداد. . إذا سمحت. انطلقت السيارة، أغمض عينيه فإذا بوجه حسناء يحتلّه فكراً وقلباً وأعصاباً. لن أعود، ما لي ومال هذا الجو، تذكّر شريف، أي مصير ينتظر أسامة. بل أي مصير ينتظره إذا خضع لهذه الإغراءات.

يطلّ على وردة النرجس. فترتسم أمامه لمياء بقامتها الفارهة، وجسدها المشدود، وشعرها الفاحم، وعينيها السوداوين. ماذا ستقول له حبيبته الأولى إذا علمت أنّه أصبح من زبائن المبغى؟ ما هي أخبارك يا لمياء: إنني أعيش حبّاً رائعاً، سوف تفرح لي إذا تعرّفت عليه. إنني أشكر الحضانة التي كانت سبباً لأتعرّف عليه، يصطحب ابنة أخته إلى الحضانة كلّ صباح، ويعودلأخذها بعد الظهر. من كلام إلى كلام، ومن نظرات خفية إلى نظرات خفية اشتبكنا يا نبيل. وتلتقيان. نلتقي سراً. لا أحد يعرف. وها أنت أوّل من يعرف. هذا سرّ بيني وبينك. إياك أن تقول لأحد. كيف أقول وأنا من كل قلبي أتمنى لك السعادة. ثمّ يضاحكها: ولكن هذه خيانة لي... تسأله مستغربة: خيانة! نعم خيانة، ألم نتعاهد أن نصبح زوجين. تشدّ لمياء نبيل إلى صدرها: تقبرني... تقبرني... إي والله ما زلت على العهد، ما زلت أتذكّر تلك الليالي الجميلة التي عشناها جسداً لجسد. لو لا خالتي، لو لا عمتك، ما حملنا من تلك الليالي إلا الذكريات الجميلة، نغّصت علينا حياتنا، ورحمنا الله ورحمها بموتها. ثمّ تأخذ موقفاً جاداً: أنا أكبر منك يا نبيل... بيني وبينك سنوات طويلة. فيسألها نبيل: ووحيد ابن خالتك، أحبّك ولم يتزوّج إلى الآن. لا تخف عليه، عندما أتزوّج سيتزوّج من امرأة أخرى وينساني. المهم ألا تنساني أنت. كيف أنساك وأنت معلّمتي

الأولى، يضحكان، تضمّه إلى صدرها: سأظلّ أحبّك أبداً، أنت الآن مثل أخي ... ألم تقل أمّك ومن ثمّ أمي إنّهما أرضعتانا؟! أريد أن أتعرّف على حبيبك هذا. قل خطيبي ... ستعرفه قريباً، إن قلت لي ألاّ أتزوّجه فلن أتزوّجه. أإلى هذا الحد يهمّك رأيي ... نعم. نعم. لن أتزوّج رجلاً أنت غير راضٍ عنه. تقبرني يا ابن خالي، صرت شاباً يأخذ العقل ... يا حبيبي الصغيرَ الرائع ... لست صغيراً. أنظري، ها هو شعر ذقني بدأ ينبت كالشوك، تضحك لمياء: ستظلّ بنظري ذلك الطفل الذي حماني من الشيطانة خالتي ... هل تذكر؟ أذكر. هل تذكر عندما تشبّثت بها، ورحت تعضّها من يدها لتكفّ عن ضربي؟ آه، كم كانت ليلة قاسية عليّ. ولولا أبوك، لكان أخي جميل قد حزّ عنقي بالسكين وأخرج روحي من جسدي، أبوك يحبّك، وأنت وحيده، لو كنت مع ولد آخر، لكان أوّل من ذبحني أبوك. الحمد لله أنّك أنت، وليس غيرك، وأنّ الحكاية التي عشتها كانت معك أنت. أبوك خالي. وعمّتك خالتي. وإلا ماذا كان سيحدث. كان يجب أن نكون أكثر حذراً. على كلّ حال الحمد لله أنّها تمّت على خير. والله أراد أن يسترنا، فأخذ روح الشيطانة، التي كانت ستنغّص عليّ حياتي في العمر كلّه. المهمّ الان يا حبيبي، يا سرّي الجميل أن أستقر، بعد بضعة أيام ستأتي أمّه وتطلب يدي من أهلي، وما هو اسمه؟! عاصم ... أليس إسماً جميلاً؟ المهم أن يكون يستحقّك، وأن يكون رائعاً ... أكيد. ستراه وتحبّه. هل هو أكبر منك؟ لعلّه بعمري. يجب أن يكون أكبر منك أليس كذلك، ليس هذا مهمّاً الآن. تبتسم لمياء فتبدو أسنانها البيضاء لآلىء في فم جميل ذي رائحة ذكية: ليس المهم العمر ... المهم الحبّ. أحبّه، وأتصوّر أنّه يحبّني. وأنا سأجعله أسعد إنسان في الوجود.

عندما طلبت أم جميل من أخيها أن يسأل عن عاصم الطحان، عن أخلاقه، عن أسرته. عن وضعها المادي، كان مصطفى النمر هو الذي جاءه بالمعلومات. وإذا بأبو نبيل يقرّر منع هذا الزواج بأيّ ثمن: لا أريد أن أغوص بالتفاصيل. الأفضل أن تتزوّج من ابن أختك وحيد. أنت تعرف يا

أخي عنادها. إنّها ترفضه باستمرار. لا أدري سبب كرهها له. بينما كانت في البداية تحبّه. ولم تكن تمانع أن يطلب يدها. المرحومة كان حلمها أن يكون وحيد زوجها وأن تكون زوجته. على كلّ حال سأحاول الآن أن أقنعها مجدّداً بوحيد. لكن، ما هي الأسباب التي جعلتك ترفض عاصم يا أخي، قال لها هو من عائلة معروفة، وثريّة، لكنّه منبوذ منها لأنّ سمعته سيّئة، كان ابن شارع في صباه وشبابه، ربّما أصبح رجلاً صالحاً الآن؟ لا ... لا ... ما زالت الألسنة تلوكه. هل أقول لك إنّه كان يبيع جسده مثل النساء العاهرات. تندهش الأم: ماذا تقول يا أخي؟ إي نعم ... فماذا تتوقّعين من شاب هذا هو ماضيه ... إسألي لمياء إذا كانت تعرف شيئاً عن هذا الماضي. لا أظنّ أنّها تعرف، إنّها ذكيّة، ومن الصعب أن ترتمي بأحضان رجل هذا ماضيه. شوفي يا أختي، إذا أردت رأيي، أكرّر، لست موافقاً على هذا الزواج. لكنّها تحبّه يا أخي ... ستتراجع إذا قلنا لها كل هذه المعلومات، أنا متأكّد من ذلك.

بكت لمياء بحرارة عندما كانت أمّها، تنقل لها على لسان خالها، هذه المعلومات، ثمّ قالت: ماذا يهمّني من ماضيه، المهمّ الآن ... إنّه رجل جيّد، يحبّني، ويريد سعادتي، وهو مستعد أن يضحّي بحياته من أجلي. تقول لها الأم: هذا كلام يكرّره كل الرجال للمرأة التي يريدون الحصول عليها، عاصم زطي[1] هل تفهمين معنى ذلك، يريك الآن من طرف اللسان حلاوة. ولا تعرفين ماذا يخبّىء لك، سيتحوّل ذئباً عندما تصبحين بين ذراعيه. تعترض لمياء: لست مقتنعة بكلّ ما تقولينه، إنّني أحبّه ويحبّني وأريد الزواج منه ولو أطبقت الأرض علينا. يا ابنتي لا خالك سيرضى ولا أبوك أو أخوك ولا أنا ... هل فهمت؟ لست أنت التي ستتزوّجين، هذه حياتي، وأنا مسؤولة عن حياتي. إسمعي يا لمياءَ، أنا أمّك، ولست أريد لك إلاّ السعادة، أمّا إذا تركت لرجال العائلة أن يقرّروا مصيرك، يقتلونك

(١) زطي باللهجة الشامية تعني: ابن شارع.

إذا أصررت على الزواج من هذا الرجل، هل فهمت؟ لا أحد يعرف مصلحتي سواي. جاءت أمّه، مثل العالم والناس، وطلبت يدي على سنّة الله ورسوله، وهو موافق على كلّ الشروط التي طلبتها من أمّه. ماذا تريدين أكثر من ذلك يا أمي. أنا لا أريد إلاّ مصلحتك... إذهبي إلى خالك، أعرف أنّك تحبّينه ولا ترفضين له طلباً، لعلّه يقنعك. لن يقنعني أحد. هذا الرجل أحبّه، هل تريدين أن أصبح عانساً؟ أنت فتاة جميلة ألف مين يتمنّاك... لكنّك عنيدة. لم يعجبك لا ابن خالتك ولا غيره. أكثر من عشرة رجال طلبوك ورددتهم جميعاً. وها أنت تختارين، على كيفك، هذا الرجل دون أن تعرفي شيئاً عنه. عن أخلاقه، عن ماضيه. إسمعي يا أمي، أقول لك باختصار، لن أتراجع عن الزواج من عاصم لو أطبقت الدنيا على راسي.

ترفع الأم يديها إلى السماء: الله يعدّمني إياك يا لمياء. طول عمرك وأنت تعذّبيننا، ما رأيت منّك إلاّ المر، والعذاب، والشجار مع أخيك وأختك... وها أنت الآن تفتحين لنا باباً على جهنّم. اعقلي... كلّنا نريد مصلحتك. وهذا الذي تسمّينه حبّاً سينقلب كرهاً في أعماقك... إنني أرى هذا اليوم الأسود بأمّ عيني، الآن، لا تستسلمي للكلام المعسول والإدّعاءات الفارغة. خالك، ونحن جميعاً نعرف مصلحتك، وأنت بالنسبة لخالك، مثل إحدى بناته، يحبّك. ويؤويك إلى بيته ساعة تشائين. ولو لم يتأكّد من ماضي عاصم، لما اعترض على زواجك منه، ابن خالتك أفضل لك. ما زال يحنّ إليك. وما زال يتمنّى على خالك أن يطلبك له، إنّه من عظم الرقبة، أفضل لك من أن ترمي نفسك في أحضان غريب.

عندما أغلق خالها الباب على غرفة من غرف البيت، حاول إقناعها بالحسنى، شارحاً لها ما نقله إليه مصطفى بيك الذي يعرف كلّ شاردة وواردة في البلد، أخبره عن عاصم أخبار تشيّب شعر الرأس، فقد ألقي القبض عليه مراراً، وتدخّلت رؤوس كبيرة للإفراج عنه. رضخت لمياء

لخالها، وفكّرت كثيراً حتى كاد عقلها يسيطر عليها، وبين الحين والآخر تتساءل لماذا يهوّلون عليها الأمر؟ وفي الصراع الذي عانته بين قلبها وعقلها، كادت تفقد توازنها، فصبرت أياماً وبعض الشهر، حتى ظنّ الجميع أنّها صرفت النظر عن الزواج بعاصم. تعمّدت أن تتغيّب عنه لتدرك إلى أي مدى حبّها له، لكنّ عواطفها كانت تتغلّب عليها أحياناً، فلا تنام، دون أن تحرق عينيها بالبكاء، وتتذكّر وسامة عاصم، هذا الشاب الذي تنفتل نحوه العيون والعقول، إذا عبر الطريق، صديقتها سهام، التي تعمل معها في الحضانة، كانت تحسدها عليه، ما أجمل هذا الشاب. وكانت قبل ذلك، تزداد زهواً به، عندما تمشي معه إلى الحديقة القريبة، أو تحضر معه فيلماً لعبد الحليم حافظ في سينما دمشق، فترى العيون تتحوّل نحوه من رجال ونساء على حدّ سواء... الآن تتذكّر، هل كانوا يعرفونه إلى هذا الحدّ. . . هل كلّ هؤلاء يعرفون ماضيه وكلّ ما يشاع عنه؟ أم أنّهم يجدون فيه الوسامةالتي تستحقّها؟ هي أيضاً جميلة، لماذا كان يلفت النظر قبلها؟ وأخيراً قرّرت مواجهة عاصم، وبالذات، عندما أمسك بيدها في الطريق بغضب صارخاً فيها: لماذا تتحاشينني؟ نظرت إليه فرأت في عمق عينيه هذا الشوق اللاهب الممزوج بالحنين والحب، بل ما إن شعرت بدفء يده وهو يقبض على ساعدها، حتى هبّ في قلبها وصدرها وأعصابها كلّ الحب الذي ظنّت أنّه بدأ ينحسر وتبرد لواعجه، وهما في هذا الموقف، نسيا معاً حراجة المكان، والعيون تنظر إليهما متطفّلة متسائلة. ما لهذين الشابين يمسك أحدهما بساعد الآخر، صامتين، يرمقان بعضهما بهذا الشغف الجميل؟ انتبهت لمياء، فقالت: تعال إلى الحديقة المجاورة، وهو ينظر إليها بخفر، حاول الإمساك بيدها، فسحبتها من بين أنامله بلطف، كان عطرها الجميل يملأ المكان، فيتأوّه بصمت، جلسا، أخيراً، على مقعد، تظلّله شجرة ياسمين، لم يتجرأ أن يسألها. لم تتجرأ أن تبدأ الكلام. كان بضعة أطفال يلعبون بالقرب منهم، بالكرة، وكان على المقعد المقابل عاشقان يتهامسان، وعلى وجهيهما معالم سعادة تكاد تنطق غناء وفرحاً، وكان كل

ما يوحي بالحديقة يسألهما عن هذا الصمت الثقيل، من أين نبدأ الكلام، سألها أخيراً. أحجمت، كيف ستحكي له ما نُقل عن لسان مصطفى بيك وعن لسان أمّها وخالها والعائلة كلّها؟ كيف تواجهه بما يجرح رجولته وأحاسيسه وفؤاده؟ تردّدت، فحثّها: هل هناك شيء خطير. قولي لي أرجوك؟ أحكمت نظراتها في عينيه مباشرة وبتحديق ثابت. ألا يعرف، إذا كان ما قالوه عنه صحيحاً، ألا يعرف؟ ألم يدرك أن ما يقال عنه، سوف تسمعه أخيراً. وسوف تتردّد، بل سوف تتّخذ قرارها نهائياً بالإبتعاد عنه؟ لماذا يتجاهل ذلك؟ أم أنّه بريء من كلّ ذلك الكلام، عاصم، خرجت كلمة اسمه من فمها على شكل سؤال كبير كبير، كأنّها ستسأله عن مصير العالم. أليس ما بينهما الآن قراراً سيحسم أمر العالم كلّه، ليست الحروب، ولا الكوارث، ولا القتل والحريق، والمذابح، أشدّ وطأة من فراق عاشقين وهما عاشقان، من فصل روح عن روح أخرى إمتزجت بها حتى أصبحتا روحاً واحدة، أي مصير ينتظرهما الآن إن قرّرت لمياء حسم الموضوع وقالت له كلّ شيء. كان ينظر إليها، يستعطفها أن تقول، أن تنطق تلك الكلمة، التي أحسّ الآن، وللوهلة الأولى، بأنّها قد تعني إعدامه، وأن تلكؤ لمياء لن يكون إلاّ عطفاً وخوفاً عليه. أحسّ عاصم بأنّ ثمّة جلاداً ملثّماً الآن، ينتظر الحكم الذي ستنطقه لمياء، ليفصل رأسه عن جسمه... في الواقع وبغير قصد، تحسّس رأسه... ولامس بأنامل مرتجفة عنقه ثمّ قال بصوت عال: ماذا بك يا لمياء... تكلّمي... أإلى هذا الحد الموضوع خطير حتى تتردّدي فَي الكلام. أرجوك، إنّني على نار، وأيّ حكم تصدرينه أنحنِ له. قالت وهي مطرقة إلى الأرض: ماضيك يا عاصم... وكأنّه لم يخطر بباله أنّ خطورة الموقف تتعلّق بماضيه، تساءل: ماضيّ... وأيّ ماض تتحدّثين عنه؟. لم تجب، هل يتجاهل ذاك الماضي، أم أنّه لا يعتبره سبباً للفراق؟ قولي، كرّر مرّة ثانية، قولي يا لمياء... عن أيّ ماض تتحدّثين؟ عن علاقاتك بالرجال. ماذا؟ كانت هذه الـ ماذا كأنّها صرخة فَزع. ماذا تقولين؟. نقلوا لي عنك أخباراً بشعة. فهل تريدني أن أتزوّج من امرأة؟. إمرأة... أخبار بشعة...

بماذا تهجسين يا لمياء. إنّك تحيّرينني، هل تنفي ما يقال عنك؟ طبعاً، طبعاً، إسمع يا عاصم لا دخان بلا نار، أعرف الآن، حتى إنّ عائلتك برمّتها تنبذك.

وضع عاصم رأسه بين يديه وراح يهصره بوجع وخذلان: حتى عائلتي... من قال لك هذا الكلام؟ ألم تأت أمّي بنفسها لتطلب يدك؟ لا أتحدّث عن أمّك، أمّك بطبيعة الحال لن تتخلّى عنك، أتحدّث عن أبيك، عن إخوتك، أعمامك وأخوالك، إنّهم يرفضون الحديث عنك، بل نصحوا أن لا يتمّ الزواج بيني وبينك.

خرج عاصم عن طوره: الكَذَبَة الحقيرون. كلّهم كذابون، كلّهم يعرّصون سرّاً ويدّعون العفاف علناً، من كان منكم بلا خطيئة فليرجمني بحجر، أعرفهم الواحد تلو الآخر، كلّهم يفعلون بالسر ما كنت أفعله بالعلن، نعم، كنت متورّطاً في أكثر من علاقة. لكنّ هذا كان من زمان... من زمان جداً يا لمياء، إنّني الآن أطهر من الملائكة، صدّقيني، كان ذاك الماضي نزوة مراهقة، وتورّطاً بعد تورّط، إلى أن نجوت والحمد لله... وها أنا أريد الإستقرار، أريد حياة أخرى، بعيداً عن كلّ ما عانيت. بدأت نزوة، ثمّ تحوّلت مرضاً لم أكن أستطيع الفكاك منه إلاّ بالحب، حبّك أنت يا لمياء. حبّك هو منجدي، هو الذي يحصنني، وإلى الأبد، إنّني أطلب غفرانك، وأطلب مساعدتك، أنت منقذتي، ومن دونك سأغرق من جديد، صحيح، كلّ ما قالوه هؤلَاء الحسّاد، هؤلاء الذين يتظاهرون بالنقاء، ونفوسهم ملأى بالخداع والكذب والإفتراء، يدّعون الأخلاق، وهم بالسرّ، أوّل من يطعن بهذه الأخلاق، أعرفهم جميعاً، أعرف خطاياهم وأسرارهم. دعيني الآن أواجه هذا الواقع، فأقول لك كنت... بل إنّني مت، ثمّ ولدت من جديد على يديك أنت. طاهر النفس والسريرة... ألا يتوب الإنسان عن المعاصي؟ ها أنذا أعلن توبتي على يديك يا أغلى من أحب. أحبّك. هذا الحب هو النار التي طهّرتني من كلّ ذنوب الماضي.

صمت عاصم فجأة، كان يرتجف بشكل مخيف، يهتزّ، كأنّ تحته زلزالاً ينهض فيحطّم كلّ شيء، ثمّ انخرط في البكاء، بكاء عال وصارخ كأنّه مطعون بخنجر، بكاء جعل كلامه في الحديقة. رجالاً ونساء وأطفالاً ينصتون إلى هذا البكاء، كأنّه بكاء ملايين الناس بصوت واحد، وهدير واحد، كأنّ السماء بسعتها الهائلة ردّدت صدى هذا البكاء إلى العالم كلّه. من أقصى الأرض إلى أقصاها. بكاء أوقف الريح. وجعل الطيور تهبط على أشجارها. ثمّة شيء غير طبيعي يحدث. ثمّة خلل في الأرض والأنهار والبحار والكرة الأرضية كلّها، رجل مدان من رجال دمشق يبكي؟ هل هذا معقول؟ كم بكاء الرجال مذلّ ومهين. في هذه اللحظة، هذه اللحظة بالذات، أخذت لمياء رأس الرجل إلى صدرها وعانقته بشدّة وحنان وحبّ، عند ذلك، عند ذلك فقط، عاد كلّ شيء إلى طبيعته، وراح الأولاد يركضون وراء كرتهم، بينما تعانق العاشقان المتواجهان بحنان، إنّه الحب. الحبّ الجميل، الذي يغفر، ويسامح، ويتحدّى الوجود كلّه. هكذا كانت مشاعر لمياء وهي تحاول تهدئة المرتجف بين يديها كأنّه سيقضي في هذه اللحظة مودّعاً العالم بلا أيّ أسف. وكان قرارها هذه المرّة حاسماً، لكنّها قبل ذلك سألت عاصم: من يؤكّد لي أنّك تخلّيت تماماً عن ذاك الماضي؟ قال لها من خلال دموعه: أنا... أنا أعدك... ألم أقل لك أنت منقذتي. وبك سوف أتحصّن من كلّ تلك الوساخة. نعم، لعن الله ذلك الماضي... كم أتمنّى أن أصاب بجلطة في الدماغ تجعلني أنسى كلّ شيء إلاّ أنت. أنت الأمل والمرتجى. وبك أولد من جديد.

لم تجد لمياء بعد ذلك سوى نبيل تلجأ إليه، تشكو له هذا الحب الذي يكاد ينقلب مأساة، تروي له كلّ ما حدث بينها وبين عاصم، فيطرح نبيل عليها السؤال:

ـ والآن... هل تشعرين أنّك ما زلت تحبّينه؟

ـ نعم ... أكثر من أيّ وقت مضى، خصوصاً عندما شعرت أنّه بحاجة إليّ... وأنّني وحدي من دون كلّ الناس، أستطيع إنقاذه من ذلك المرض البشع. وهذا ما سأفعل ...

ـ إذا كنت مقتنعة به إلى هذا الحد. فامضي في طريقك، لا تستمعي لأحد، ليرشدك قلبك وحده إلى الطريق الصحيح، وأنا معك، وسأدافع عنك ما حييت.

ـ كنت أدرك أنّك ستقف إلى جانبي ... والآن، أشعر بالأمان، على الأقل هناك إنسان واحد في هذه الدنيا يفهمني.

تصمت لمياء. فيمسك نبيل بيدها مشجّعاً، تبتسم، ثمّ تنظر نحوه وقد خطر ببالها سؤال:

ـ مصطفى بيك ... هذا الشبح الذي كانت كلمته عند أبيك كلمة الفصل ... من هو؟

ـ إنّه ذلك الرجل الذي يعرف الوجه الآخر للمدينة. عالمه عالم المومسات والشاذين والقوادين، كم هو عالم قذر ووسخ. إنّه السيف المسلّط على كلّ هؤلاء. والرعب الذي يواجهونه كلّ يوم، سألت أبي عنه مرّة، فأعطاني عنه صورة قدّيس. لأنّه حامي المدينة من الدعارة بأشكالها. لا أدري كيف يتطهّر مصطفى بيك من هذا المستنقع. عندما كان يزور والدي في المحلّ، كنت لا أرى إلاّ وجهه الآخر، الأليف، الصوت الهادىء. طقطقة سبحته بين أنامله، في الخمسين من عمره، أفندي بكلّ ما تعني هذه الكلمة من معنى. لم يكن يخطر ببالي أنّ هذا الرجل يعرف أسرار المدينة وخباياها، كلامه مع الوالد مبطّن، مليء بالرموز، ثمّ أعرف في ما بعد ما يقصد. يتحدّث عن سيّدة من سيّدات المجتمع، اللّه أمر بالسترة، يقول لأبي: أفعل المستحيل يا أبو نبيل كي أحمي الناس من الفضائح، لكنّه مجتمع فلتان يا أخي، تخرج الزوجة لتزور بيت أهلها، فنقبض عليها في بيت دعارة ... ماذا نفعل بها؟ إذا كانت المرّة الأولى، ونعرف أنّ لها زوج ولها أولاد، نستر عليها، ونعيدها إلى بيتها بعد أن نهدّدها بأنّنا إذا ألقينا القبض عليها مرّة ثانية

نخبر أهلها، مرّة ثالثة نقودها إلى المبغى، وكم من النساء كان مصيرهن في النهاية المبغى. فالمال مغر يا أبو نبيل، المال يجرّهن إلى هذا المصير، سواء أكنّ بحاجة إليه أم لا ... زَوجات لأزواج أثرياء وبنات عائلات يغرهن المال إن لم تغرهم المغامرة، وغالباً لا يصلن إلى المبغى، لأنّ سكّين الأخ أو رصاصة الأب تكون الفاصلة، جرائم الشرف تنتهي بمرتكبها إلى السجن المخفّف، لا يزيد عن ثلاثة شهور. والبعض من هؤلاء النساء يغبن عن مسرح الدعارة منذ المرّة الأولى، تبكي الواحدة منهن أمامنا معلنةً التوبة، وتصدق، وربّما لا تصدق، تكون أكثر ذكاء، فلا نمسك بها. والله يا أبو نبيل أستطيع أن أروي لك كلّ يوم حكاية تتمزّق لها نياط القلب. يصبحن كلّهن نادمات ولكن بعد أن يسبق السيف العذل. ثمّ نهايتهن الحتمية إمّا الموت بمرض أو الإنتحار، أو التحوّل إلى خادمات في المنازل عندما يشخن. هذا الطبيب المعروف ـ ويذكر اسمه ـ في ظنّه أنّ أمّه ماتت، يترحّم عليها ليلاً نهاراً، كان طفلاً عندما ماتت، والأب إذا سأله الإبن يروي عنها حكايا كأنّها قدّيسة، هي الآن خادمة في السبعين من عمرها في بيت فلان، بعد أن لفظها المبغى الذي قضت فيه أكثر من أربعين سنة من حياتها ... وقس على ذلك من قصص تصلح للسينما، بل نبع من القصص إذا دخلت السينما فيه لا تخرج أبداً.

ـ أإلى هذا الحدّ؟

ـ نعم وأكثر ...

ـ يعني كلامه كان صحيحاً عن عاصم!

ـ بالتأكيد ... لا يفتري الرجل على الناس. لا بد أنّه قال الحقيقة لأبي ... على كلّ حال أقترح عليك عدم الإستعجال في اتّخاذ قرار الزواج ... انتظري ... جرّبي الرجل. اختبريه ... أنت إمرأة ذكيّة لا تفوتك شاردة ولا واردة. فلا توقعي نفسك في بئر ثمّ يصعب عليك الخروج منه.

تمسك لمياء يد نبيل، ترفعها إلى فمها وتقبّلها بحنان «أنت صديقي وأخي وحبيبي، أئتمنك على هذا السر».

صار نبيل يتقرّب من مصطفى بيك، قائلاً في نفسه سأسأله يوماً عن حسناء، من هي؟ من قادها إلى هذا المصير؟ «ولكن كيف ... ماذا سيكون موقف أبي إذا أخبره أنني أسأله عن مومس، وهي ليست في منزل خاص، ولا في فندق، بل في المبغى نفسه الذي لا يرتاده إلاّ رجال الطبقة السفلى من عمّال وكسبة صغار ومشرّدين، فالطبقة الثريّة تعرف كيف تصطاد خارج هذا المستنقع الآسن. وكما يقول المثل الدارج: تعريص الغني وموت الفقير لا أحد يعلم بهما».

لكنّ الحنين إلى حسناء كان أقوى من كلّ هذه المخاوف، لقد تركت نظرتها المكسورة الحزينة بَصْمَتَها داخل القلب. وصار من الصعب إنتزاعها، فاتّخذ نبيل قراراً بزيارتها دون أن يُعلم أسامة، أخذ سيارة أجرة وصعد إلى هناك. إلى ذلك العالم المغلق المختلف كلياً عن أي عالم آخر. لم يجد لدى حسناء زبوناً، فوضع المبلغ المطلوب في يد حارسها ودخل إلى غرفتها. لم تتذكره للوهلة الأولى. فما أن أغلق الباب خلفه حتى شرعت في خلع ملابسها. جلس على مقعد قريب ينظر إليها وهي تخلع تلك الغلالات الشفافة قطعة قطعة، دون أن يخطر ببالها أنّ هذا الرجل الجالس قبالتها، مشدوه بها وهو يتأمّلها، يراها الفينوس التي تمتلك كلّ مقاييس القوام الجميل، جسد مشدود على خصر نحيل، وجه أهمّ ما فيه سمة

البراءة والطفولة، لم تدنّسه أفعال الرجال ولا قبلاتهم الشهوانية. ولا غرز أسنانهم الذئبية في هذه النضارة المذهلة، يتأمّلها نبيل ثواني إثر ثواني، إلى أن استلقت عارية على سريرها، ثمّ التفتت نحوه دون أن تحكم النظر في عينيه: ماذا تنتظر يا رجل؟ هيا... عندي شغل. لم يستجب لها، فجلست. أسندت ظهرها على مسند السرير. قالت بكثير من الدلع المصطنع: ماذا بك... هل أنت مسطول؟ اقترب وجلس على حافة السرير:

ـ ألم تتذكّريني؟

ـ من أنتَ؟

ـ ولو... التقينا قبل أسابيع عند شهيرة.

لملمت حسناء نفسها، وأغلقت جسدها الفاتن على بعضه:

ـ آ.. نعم.. نعم.. أنت صديق زوجها.. تذكّرت.. أنت.. آ.. شو إسمك؟

ـ نبيل.

ـ نعم نعم أنت نبيل.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ أنت يا حسناء.

ـ أنا!!

ـ أنت.. لم أنس وجهك لحظة واحدة، منذ ذلك اللقاء القصير وأنا أفكّر فيك.. حاولت نسيانك لم أستطع.

تأمّلت حسناء وجه نبيل ملياً ثمّ قالت:

ـ هذا الكلام أسمعه من الرجال كلّ يوم.. كلّ من ألتقي به يعود ويقول لي كلاماً من هذا القبيل حتى مللته، ثمّ ينبطحون فوقي ويرمون عليّ قذاراتهم.

ـ لستُ من أجل هذا جئت.

ـ من أجل ماذا إذاً؟

- زيارة . . فنجان قهوة .

- ها أنت أبو سمير آخر .

- أبو سمير . . من أبو سمير؟

- هكذا هو أيضاً . . يزورني ، يدفع مالاً . . ليشرب فنجان قهوة . . فيصبح فنجان قهوتي أغلى فنجان قهوة في العالم .

تذكّر نبيل أبو سمير الذي تحدّثت عنه شهيرة في الزيارة السابقة :

- حسناً وما الذي يزعجك في ذلك؟

- إسمع يا نبيل ، أنا امرأة عندها مشاكل كثيرة ، ولست على استعداد للتحادث مع الزبائن . . هيا ، انهض . . إخلع ملابسك وتعال .

- ألا تصبرين عليّ؟

- وقتي من ذهب . وهناك إشارة من «زلمتي»[1] أنّ زبوناً ينتظر في الخارج . . إمّا أن تخلع ملابسك . . أو تنهض من غير مطرود .

أسرع نبيل وخلع ملابسه . واندسّ إلى جانبها . راح يقبّلها قبلات محمومة حتى وصل إلى أنامل قدميها . وهي مستسلمة له ، باردة كالصقيع . إنتبه إلى نفسه كيف سيطرت عليه حيوانيته . انزاحت مشاعره الإنسانية جانباً ، وسرعان ما أحسّ أنّ هذه المرأة الجميلة التي سحرته نظرتها المكسورة ذات يوم ، ليست إلاّ دمية ، لا قلب لها ولا حسّ . وأنّ ما يصدر عنها من تأوّهات مفتعلة مزيّفة ، مجرّد همهمات تصدر عن دمية انفتل زنبركها إلى الآخر . . همهمات متشابهة ، كأنّها ، فعلاً ، تصدر عن آلة ليست من لحم ودم . بل من شكل مطاطي يشبه الأنثى .

«أيّها الحيوان» - قال لنفسه - ثمّ ابتعد عن المرأة وأسرع إلى ملابسه يرتديها . كانت حسناء قد عادت وتكوّمت على بعضها وسط السرير ، من

(١) زلمتها : تعني قوّادها .

جـديد، لـم تكن مندهشـة وهي تنظر إلى نبـيل، تماسكت، وتظاهرت باللامبالاة، بينما أدركت بحدث الأنثى أنّ هذا الجسد الرجولي أصبح يعني لها شيئاً آخر، وتوجّست بما يشبه النبوءة، هل أراه مرّة ثانية وثالثة ورابعة. أيّ رجل آخر، منذ شاءت أقدارها أن تجيء إلى هذا المكان، لم تشعر تجاهه بهذا الإحساس.

أنهى نبيل إرتداء ملابسه ثمّ التفت نحو حسناء محاولاً الإعتذار: لا تواخذيني. . حصل شيء أطفأ كلّ رغباتي. . سامحيني.

لم تجب بأيّ كلمة. ظلّت صامتة صمت الصحراء البعيدة، أحسّت لأوّل مرّة في حياتها، أنّها بحاجة إلى هذا الرجل، لكنّها لم تفصح. وهو خارج من الباب قال لها:

ـ لي رجاء عندك.

فأشارت بوجهها أي نعم.

ـ أرجو أن لا تبوحي لأحد أنني زرتك. . هل تعدينني؟

هزّت برأسها موافقة، فخرج نبيل، في الممرّ حاول إخفاء جزء من وجهه براحة يده متسلّلاً إلى الخارج، ومدركاً، وهو يتنشّق هواء الشارع البعيد أنّه أحبّها.

أصبح نبيل بحاجة إلى إنسان آخر غير أسامة، إنسان آخر يبثّه اللواعج الحارقة التي تركتها حسناء في القلب والأعصاب، فقبل ذات يوم دعوة أبو عرب على كأس، وكانت هناك المفاجأة الأكبر، بل الأشجع قال أبو عرب: الأستاذ المجنون.. هل تعرف ماذا فعل؟

ـ خير.. ماذا فعل؟

ـ تذكّر تلك المومس التي كنت أدعوها بين الحين والآخر إلى منزلي، أفشّ خلقي واحتباسي فيها؟

ـ أذكر..!

ـ غابت عنّي فترة طويلة حتى ظننت أنّهم ألقوا القبض عليها، وحمدت الله أنّ ذلك لم يكن عندي، بل في بيت آخر، أو تحت شجرة، أو في سيارة. إشتقت لها. كانت إمرأة لذيذة، تعطي معاشرها ما لم يخطر ببال أحد كلّ مرّة أشياء مثيرة جديدة، بل إعْتدتُ عليها، وما عادت أي مومس غيرها تغويني.. ومن سؤال إلى سؤال. وانتظار على مفرق الحي الذي تقيم فيه. حتى التقيت بأبو العز الذي كان صاحبها قبل أن تتدرّج على العافية[1]. فسألته عنها. قال لي: إنسترت والحمد لله، إدعِ لها بالتوفيق،

(١) تتدرّج على العافية: أي اعتادت حياة المومس.

ثمّ استدرك قائلاً: تزوّجت رجلاً من حارتكم. . أستاذ مدرسة. وتذكّرت على الفور الأستاذ كامل. . هل هو؟ ليس في الحي من أستاذ آخر نعرفه. . لا شكّ أنّه هو. . يا سبحان الله. . هل هذا معقول؟

- معقول جداً يا أبو عرب. . أرادت أن تنستر ووجدت من يقبل بها.

- نعم. . نعم. . هكذا انتظرت اللقاء به، سألته، فلم ينكر.

- ماذا قال لك؟

- خاطبني بهدوء: الله أمر بالسترة يا أبو عرب. . والحمد لله أن سترها كان على يدي. . إذهب عنّي واستغفر ربّك من هذه المخازي التي تعيشها. . إنفض عنك هذا البلاء. تطهّر. إغتسل. . واذهب إلى الجامع. تُب يا أبو عرب. . إنّ الله كان تواباً غفوراً. تصوّر لقّنني درساً أيضاً.

- والله إنّه رائع. .

- تقول رائع. . كنت أنوي الزواج منها.

- لا تكذب يا أبو عرب. . بعد أن تزوّجها الرجل. . حليت بعينيك. .

- إسمع. . إسمع ماذا قال أيضاً.

- هات لنر.

- قال: لن أخجل أبداً من هذا العمل الذي ألهمني إيّاه الله. هي في بيتي الآن سيّدة فاضلة تتعلّم أصول الصلاة من أمي. وتصلّي الصلوات الخمس بأوقاتها. . قل ذلك لمن تشاء من الحي. إنّ الأستاذ ستر مومساً بالزواج، أنا فخور بذلك. والله إني أراها الآن أطهر من ماء السماء، تصلّي باكية خاشعة لله أن يغفر لها. وتلعن الشيطان الذي قادها إلى هذا المصير، متطهّرة منه. ومحصّنة بذكر الله ليلاً نهاراً. لا أستطيع أن أصف لك سعادتنا. لا تطلب شيئاً، لا تريد سوى خبزتها وزيتونتها وغطاء الصلاة والعزلة التامة، أدعوها إلى نزهة أو حضور فيلم سينما تعتذر، تقول إذهب وحدك، دعني مع أمّك أتبرّك بها وأفرح إن الله هداني إليك وهداك إليّ،

لتنقذني من جحيم كنت أعيشه مرغمة معذّبة ضائعة، ولم أنس أنا الآخر أباها الكسيح الذي ما كان يسألها من أين لها المال. كان يعرف في دخيلة نفسه أنّ الجوع كافر، وأنّ المرأة تبيع عرضها من أجل لقمة خبز، وخصوصاً عندما تكون هذه اللقمة لرجل لا حول له ولا قوّة، هو أبوها. لقد اعتبرته أباً لي، وعندما وافق على زواجي من ابنته، بكى فرحاً، وظلّ يدعو لي بالخير والفلاح، وما من مرّة زرته إلاّ حاول تقبيل يدي صارخاً: الله يسترك بالدنيا والآخرة كما سترتنا يا ابني. لست نادماً على كلّ ما فعلت، ثمّ ربت على كتفي وقال: الفضل لك يا أبو عرب. . لولاك لما تعرّفت عليها. منذ التقيتها عندك لم أنسها. كان همّي أن أنقذها منك ومن غيرك. لا كرهاً بك، بل حباً بثواب الله ورضاه.

كان أبو عرب يروي الحكاية وعيناه تسحّان بالدموع، ثم أخذ يردّد أمام نبيل: لماذا لم أكن أنا من ستر عليها؟

ـ أسكت. . أسكت ـ مشيراً نبيل بسبابته ـ الآن. . بعد أن ذهبت إلى الأستاذ تعلن ندمك. . أردت إذلال الأستاذ، فإذا به يتحدّاك ويأخذها إليه إلى الأبد. والله إنّه رجل شجاع، ما كنت أتصوّر أنّه يملك قلباً شجاعاً إلى هذا الحد.

ـ كان الشيطان مسيطراً عليّ، لعنة الله عليه. أعاهدك يا نبيل لن أقرب امرأة بالحرام بعد اليوم.

لماذا لا يفعل نبيل الفعل نفسه مع حسناء؟ إذا كان الله قد أمر بالستر، فلماذا لا يستر تلك المرأة الجميلة التي ما زالت بعمر الورد؟ أجل، من الضروري أن يتّخذ قراره. ألمح بذلك إلى أسامة. ضحك هذا حتى انقلب على قفاه:

ـ تفعل مثلي. . هذا ما يجب أن تفعله.

ـ ماذا تقصد؟

ـ تشتري خاتمين ذهبيين. واحد لك وواحد لها، ويضع كلّ واحد منكما الخاتم بإصبع الآخر، ثمّ نقرأ الفاتحة. ونعلنكما زوجين. هكذا، ضمن تقاليد المبغى. تعيش حياتك معها، تأخذ من مالها ما تشاء، تضحك عليها تدّعي إنّك تحبّها.. سنة.. سنتان.. ثمّ تملاّن بعضكما. وكلّ واحد يذهب في سبيله هذا هو الحل عندي..

ـ لا.. لا.. ليس هذا ما أفكّر فيه.

ـ بماذا تفكّر إذاً؟

ـ بالزواج الرسمي.. كما فعل الأستاذ كامل تماماً.

ـ الأستاذ أبله وأجدب ومجنون. يبدو أنّك مجنون أكثر منه وأبله أكثر منه.. حسناء مومس مسجّلة في دوائر الأخلاقية أنّها عاهرة، وكلّ شهر تكشف عليها وزارة الصحّة حتى لا تلتقط مرضاً معدياً. كلّ ما هو مطلوب منك أن تجعلها تحبّك. فتدخل حياتها ومالها وجسدها. وتعيش كما أنا الآن في ذروة الإنبساط والسرور.

تظاهر نبيل بالقبول، لكن وأسامة يتباهى باستغلال شهيرة، يتذكّر استغلاله لزين العابدين في فتوّته عندما كان طالب مدرسة. ها هو زين العابدين يعود إلى رشده، منعزلاً حزيناً لا يكاد يكلّم أحداً، بل أصبح لا يرمي سلاماً على أيّ إنسان ما لم يكن رفيقه في المسجد، ويصلّي إلى جانبه، ويحضر دروس الشيخ أمين، حاول نبيل أن يفهم هذا الإنقلاب المفاجىء، فالتقاه خارجاً من المسجد، إقترب منه، وسلّم عليه بحرارة: ـ اشتقنا لك يا سيّد العابدين. ـ أشكرك.. ـ كيف أنت.. ما هي أخبارك؟ .ـ الحمد لله. العمل جيّد.. والصحّة جيّدة. فيقول: كلّ هذا يستوجب الشكر يا بني. «أوّل مرّة أسمع كلمة يا بني من فم زين العابدين، صحيح أنّه أكبر منّا سنّاً بخمس عشرة سنة أو عشرين، لكنّ كلمة بني لم نسمعه يقولها لواحد منّا أبداً، لا أنا ولا أسامة ولا حتى بقيّة الرفاق».

ينظر نبيل مجدّداً إلى زين، ذقنه مشذبة، ثيابه نظيفة، عكس ما كان عليه يوم لقاء المقبرة. متماسك، كلّ شيء فيه طبيعي، ما عدا انحناءة بسيطة في الظهر وعلامة بنية غامقة في قمّة جبينه من كثرة السجود لله تعالى، إنّه إنسان كلّ شيء يوحي فيه بالأمن والإطمئنان. وبدون قصد.. خرجت عبارة «أسامة يسلّم عليك يا زين» لكنّ نبيل ندم جداً عندما قال له هذه العبارة سائلاً نفسه: لماذا أوقظ فيه جرحاً قديماً: «فوجئت أنّ هذه العبارة لم تفعل فيه ما كنت أتوقّع. أجابني بهدوء: الله يسلّمك ويسلّمه.. ما هي أخباره، هل تابع دراسته أم اكتفى بالوظيفة؟ ـ يبدو أنّه اكتفى بالوظيفة يا زين. ـ وأنت يا نبيل ألم تتابع دراستك؟ ـ لا. أنت تعرف أنّ العمل في محلّ الوالد يستهلك كلّ وقتي. وأصبح الوالد نادراً ما يحضر السوق. تفرّغ لشراء البضائع اللازمة للمحل. وأنا من الصباح إلى المساء، واقف على قدمي، حركة السوق نشطة هذه الأيام. ـ وفّقك الله يا بني.. هل تصلّي... جامع الأموي قريب منك. خطوات قليلة وتصبح في محرابه. كذبت عليه فقلت: بعض الأحيان.. ولكنّ صلاة الجمعة لا تفوتني، لماذا أحياناً يا بني؟ لا تأخذ منك الصلاة سوى دقائق؟ لماذا لا تحضر دروس الشيخ أمين تتزوّد منه علم ما لم تعلم؟ ـ الحق معك يا زين. والله أتمنّى ذلك.. عندما كنت وصاحبك أسامة شابين، كثيراً ما كنت أراكما في دروس الشيخ أمين.. ما الذي حصل حتى انقطعتما؟ ـ الشغل يا زين.. أعود إلى البيت مرهقاً. ولا أكاد أتناول العشاء حتى أحسّ بحاجتي إلى النوم. ـ كلّ هذا لا يبرّر انقطاعك عن الصلاة وانقطاعك عن حضور دروس الشيخ. وهي عادة بين صلاة المغرب والعشاء».

يسكت زين، وعلى سيمائه ملامح الرضا والإستقرار النفسي، ثمّ يسأل نبيل: أسامة هل يصلّي؟ قليلاً ما أراه.. أحياناً مرّة في الأسبوع أو مرّتين.. أحياناً نسهر معاً. أين؟. في المقهى، أو نحضر فيلم سينما، وغير ذلك؟ لا شيء غير ذلك. عليكما أن تصلّيا يا نبيل، إنّ الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر «ماذا لو عرف زين العابدين أنّ أسامة يعيش الفحشاء

والمنكر، ولا يصلّي، ولا يحضر دروس الأئمّة والعلماء؟!» طبعاً. . طبعاً، سنفعل ذلك يا زين. وشكراً لك. لا تنسَ أن تسلّم على أسامة. قل له أرجوك إن زين ما أراد به شراً، وإنّ زين أحبّه محبّة الرسول والإمام علي والصحابة، قل له ذلك هل تعدني؟ ثمّ صافحني وابتعد.

أراد نبيل أن يتأكّد: هل إبتعد الشيطان عن قلب زين العابدين؟ دخل مسجد التوبة واقترب من الشيخ أمين الذي كان تلك اللحظة يقرأ القرآن.

« جلست قريباً منه دون أيّ كلمة، كان يقرأ القرآن بصوت مسموع. انتظرت حتى أنتهى من القراءة بعبارة: صدق الله العظيم. أغلق الكتاب. مسح وجهه بكفّيه. التفت نحوي: ولو يا نبيل. . ألم تشتق لنا؟. والله اشتقت كثيراً يا شيخنا. أسأل عنك أباك دائماً فيطلب الرضا لك ويقول إنّك استلمت المحل عوضاً عنه، وإنّك أصبحت تاجراً محترماً، أشكرك يا شيخ. . أين ترى أبي؟ هنا، في المسجد. يحضر الصلاة بأوقاتها، «أبي ما رأيته يوماً يصلّي». قلت مستغرباً: أبي يصلّي؟! نعم. . إنّ الله هداه، وعقبال عندك، والله يا شيخ العمل يأخذ كلّ وقتي، هذا كلام الكسالى يا نبيل. لو أردت لفعلت، لا تأخذ الصلاة من وقتك إلا دقائق. سكت الشيخ ينظر نحوي، وكأنّه عرف ماذا يجول في خاطري فقال: أرى في فمك كلاماً، إي والله يا شيخ، اسأل ولا تخف. أسألك عن زين العابدين. كان هنا منذ لحظات. حضر صلاة العشاء وذهب إلى بيته، نعم. . رأيته خارجاً. إلاّ إنني أريد الإطمئنان عليه منك يا شيخنا. أفهم قصدك يا بني. نجا زين والحمد لله. نجا من شيطانك الرجيم الذي اسمه أسامة. هل كنت تعرف يا شيخنا؟ كنت أعرف وعرفت أكثر فيما بعد. كاد يصل به ذلك العشق إلى الجنون، كنت أسمعه يرجو ربّه وهو يبكي أن ينجّيه من الشيطان الذي تلبّسه في غفلة من الزمن. كان يصرخ بصوت عال: أمتني يا رب أو نجّني من هذا العذاب، أجلس أمامه وأسأله، فيتردّد عن البوح، وبالحاح منّي يوماً بعد يوم وأنا أرى عذابه يشتدّ واحتراقه يزداد، وتطاحن الإيمان

والشيطان في أعماقه يقوى، اعترف: أسامة النار التي تحرقني يا شيخ، إنّها تلذع أطراف قلبي وأعصابي، لا تجعلني أنام، أتلوّى في الفراش مختنقاً سابحاً في عرقي، صورته في كلّ شيء أراها أقترب فأزداد اشتعالاً، أبتعد فأزداد شوقاً، إنّني بين نارين يا شيخ. أنجدني. دلّني إلى طريق النجاة، لا أريد الخطيئة، أريد حياتي للّه وحده لا شريك له. وحده الواحد الأحد، أريد حياتي للرسول ولصحابته الكرام. لا يدخلني الشك ولا العهر. أريد نفسي صافية كأديم الماء، نقيّة كدموع الأطفال. لا أريد للشيطان أن يدنّس حياتي. . أنقذني. دلّني يا شيخ، فأقول له: بمزيد من الإيمان. . بمزيد من الإيمان تنجو. اقرأ دائماً سورة إبراهيم «يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم» كوني برداً وسلاماًعلى زين العابدين. ثمّ إذا جلست قريباً من ركنه سمعته يردّد بصوت عال، وبإيمان عميق: «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوَجاً أولئك في ضلال مبين» آية كان يكرّرها دون توقّف وفي خشوع وبكاَء صامت: « ربّنا إنّك تعلم ما نُخفي وما نُعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء» ثمّ يرجو ربّه أن يبعد عنه الشيطان، وأن ينزل الرحمن في قلبه. أخيراً انتصر زين العابدين يا نبيل. لا أريد أن أحمّلك مسؤوليّة ما آلت إليه حاله عن طريق صاحبك. لكن برضاي عليك، إيّاك أن تأتي على ذكره أمامه، لئلا يختل ثانية. فاعترفت للشيخ أنني نقلت إليه سلاماً من أسامة كذباً. حدّق الشيخ نحوي شبه غاضب، ثمّ لانت نظراته: وماذا كان وقع ذلك عليه؟ كان عادياً جداً يا شيخنا كما لو أنّ أسامة لا يعني له غير الصحبة العادية. قد يكون ذلك صحيحاً. وربّما تظاهر أمامك بذلك. أنا متأكّد أنّه ما زال يحنّ إليه، ويضغط على نفسه بالإيمان كي لا تجرّه قدماه نحوه. أنت الآن، من حيث تدري ولا تدري حرّكت النهر الراكد. أرجو الله أن أكون على خطأ. إيّاك ثانية أن تأتي على ذكر صاحبك أمامه. أنصحك بذلك رحمة به. ورحمة بأسامة أيضاً. لكن، يا شيخنا، بدا لي كأنّه قد نسيه، وما حصل، كان من الماضي البعيد. لا. لم يكن من الماضي البعيد. هل تصدّق كاد

يتحر. كاد يجنّ إلى حد الخطر. الحمد لله أنّني كنت إلى جانبه بعد أن تخلّى عنه الجميع. . هل تصدّق يا بني أنّني بكيت عندما رأيت ذلك المشهد الذي اقتلعني من نفسي. وأيّ مشهد يا شيخنا؟! كنت خارجاً من صلاة العصر متّجهاً إلى المقبرة لقراءة الفاتحة على قبر الشيخ أبو اليسر عابدين، فإذا بزين يهرول بعيداً عن أولاد صغار يقذفونه بالحجارة وهم يصرخون به: يا عيبو يا زينو. . يا عيبو. استندت إلى الحائط وبكيت كالأطفال. . زين العابدين هذا الرجل المؤمن الذي كان يحاججني بالشكّ ليصل إلى اليقين، ويعرف في قرارة نفسه أنّ الله موجود، وهو الذي خلق كلّ هذا الخلق يصبح على هذه الحالة؟! تألّمت كثيراً، وقرّرت أن لا أبتعد عنه بعد اليوم أبداً. لازمته كظلّه. إلى أن اعترف لي نتفاً نتفاً، بحكاية عشقه لذاك الفتى صاحبك لعنة الله عليه. لا تلعنه يا سيدي، ما ذنبه، والله لم تبتدر منه حركة تشجّع زين. كان رافضاً هذا من أساسه. يعترض الشيخ: لا. . أنت لا تعرف الحقيقة. . يا سيدي أعرفها. أعرف كلّ شاردة وواردة فيها. روى لي أسامة كلّ شيء.

- وهل صدّقته؟!.

- ولماذا لا أصدّقه وأنا كنت الأقرب إلى الإثنين. وكنت معهما خطوة بعد خطوة.

- لا. . - يصرخ الشيخ - لا. . لستَ عارفاً الحقيقة كاملة. صاحبك تلبّسه الشيطان في كثير من الأحيان. كان يشجّعه بأساليب أين منها أساليب العاهرات.

- أنت تظلمه يا شيخ.

- لا أظلم أحداً. زين العابدين لا يكذب، أعطاه مالاً فأخذه، غمره بالهدايا فأخذها، وفي بعض الأحيان كان صاحبك هو الذي يطلب المال. أخفى عليك هذا الجانب من وجهه البشع. ظلّ يستغلّه أبشع استغلال، وخصوصاً عندما تولّى زين العابدين إدارة مقهى بلودان. كاد الأمر يؤدّي

إلى فضيحة، عندما أحسّ صاحب المقهى بذلك النقص الكبير في الصندوق. وكان سيبلّغ الشرطة، لكنّ زين ادعى أنّه احتاج إلى مبلغ من المال سوف يردّه. ردّه فيما بعد عندما باع بعض مصوغات أمّه، أين كان يذهب هذا المال؟! إلى جيب صاحبك..».

«لم أصدّق ما رواه الشيخ. هل من المعقول أن يخفي عني أسامة كلّ ذلك، ويظهر أمامي بمظهر الإنسان البريء الذي يتعرّض للإغراء من الجانب الآخر وهو يقاومه؟ وتذكّرت حصوله على المال من صاحبته شهيرة.. وما الفرق إذاً.. إذا كان يقبل مالاً من مومس فلماذا لا يقبله من رجل يعشقه. سأصارح أسامة وأعتبره خان صداقتنا.. لكنّ الشيخ أحسّ بما يجول في خاطري. سارع قائلاً: لا تبح بشيء من حديثنا هذا إلى أسامة. أرجوك وبرضاي عليك.. إذا قلت له شيئاً سيتصرّف تصرّفاً أهوج لا ندري ما ستكون عواقبه. زين العابدين بذمّتنا. وعلينا حمايته. أمّا صاحبك، فلنتركه لضميره. أكرّر، إياك أن تقول له ولو كلمة من حديثنا، بل أنصحك أن تبتعد عنه، فهذا رفيق سوء، سوف يقودك إلى المهالك دون أن تشعر، وأنا أتوقّع له أبشع المصير.

«آلمني هذا الكلام عن أسامة، لا يمكن للشيخ أمين أن يكذب ولا لزين العابدين فهل كلّ ما قاله أسامة عن حادثة بلودان من صنع مخيّلته؟ لا. أنا شاهد على عشق زين لأسامة، وما رواه لي في المقبرة كاف لأصدّق ما رواه أسامة، ما هذه المأساة يا رب. ألم يصارحني زين مراراً بهذا الهوى الذي عصف به عصف الريح بالشجرة الصغيرة المنفردة في الصحراء - حسب تعبيره -؟! أم أنّه أراد أن يظهر نفسه أمام الشيخ كما لو أنّه مفترى عليه.. وأن الشيطان الرجيم المتمثّل بأسامة قد حاد به عن الطريق المستقيم. لو أنّ زين العابدين كتم هواه - يقول الشيخ - لما أصبح أضحوكة الأولاد في الشوارع. ولكان مكانه الجنّة بإذن الله؟

- هل لأنّه عشق غلاماً يا شيخنا؟

ـ ليس مهمّاً من عشق غلاماً أو امرأة، المهم أنّه كان عفيفاً لا غاية دنسة في هذا العشق. . . أما تعلم بالحديث المنسوب إلى الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم؟

ـ وما هو يا شيخنا؟

ـ من عشق وكتم وعفّ وصبر غفر له الله وأدخله الجنّة.

ـ لكنّ زين لم يعفّ ولم يكتم ولم يصبر.

صرخ الشيخ أمين: كفّ يا نبيل عن اتّهام الرجل. . هل سمعته بأذنك. . هل شاهدته بعينك؟

ـ لا، إنّما صدّقت أسامة عندما روى لي ذلك. لأنني على معرفة بملاحقة زين العابدين له إلى حدّ الجنون.

ضرب الشيخ على صدره بقسوة: يا ويلي من الإثم الذي عامل به صاحبك زين العابدين. جلّ من قال: «ربّنا لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به» وفي سورة النساء قوله تعالى: «وخلق الإنسان ضعيفاً» صدق الله العظيم.

انقلبت الصورة رأساً على عقب، وعندما التقى نبيل بأسامة، شعر وكأنّ شرخاً كبيراً قام بينهما، تردّد في البوح عن الحوار الذي حصل بينه وبين الشيخ. وحزم أمره على كتمان ذلك، لكنّ أسامة شعر بأنّ تغييراً كبيراً طرأ على معاملة نبيل له، حديثه معه أصبح لا حرارة فيه. مصافحته باردة، كأنّه يصافح إنساناً لا يعرفه، كاد في فترات متلاحقة أن يواجهه بالحقيقة. ولكن أين هي الحقيقة؟ عند الشيخ؟ عند أسامة؟ عند زين العابدين؟ من يملك الحقيقة كاملة. وردة النرجس وحدها تستمدّ الحقيقة من براءتها ونقاء سريرتها «أفتح الكتاب، فأرى أوراقها، ذلك الفم الذي لا يكذب أبداً: لا أحد يملك الحقيقة كاملة، كل هذا العالم. كلّ هؤلاء البشر، لا أحد يملك الحقيقة كاملة، فما تراه اليوم صواباً، ينقلب خطأً بلمح البصر، وما تراه خطأً وزيفاً، يواجهك بأنّه هو الحقيقة» هكذا تساءلت الوردة.. هكذا تساءل نبيل. ثمّ يتذكّر المها التي غادرته طفلة فيدرك أنّ الحقيقة الأزليّة والثابتة هي الموت، من يغمض عينيه في لحظته الأخيرة، لن يفتحهما أبداً. إنّه وحده الثابت والحياة كلّها تتحوّل بأنهارها وينابيعها وبحارها وجبالها، الإنسان نفسه يتغيّر كما تتغيّر الثمرة. أسامة صديقه الوحيد، لم يؤذه يوماً، عاشا معاً الطفولة والشباب، لم يسمع منه كلمة نابية بحقّه، فمن يكذب على مَنْ؟. بل من يصدّق ومن لا يصدّق. في كلّ هذا العمر. كلّ هذه الأيام والشهور والسنين لم يكتشف نبيل عنصر الشر في أعماق

أسامة؟ هل كان يروي له عكس ما يحدث حتى بات زين العابدين الآن كالزجاج، أيّ حبّة نوى تقصف عمره؟

لم يقبل أسامة هذا الإنعطاف في العلاقة مع نبيل فحشره بالسؤال تلو السؤال، ونبيل يتهرّب. إلى أن أمسك به من بين كتفيه وراح يهزّه: ماذا حصل يا نبيل؟ أنت صديقي الوحيد، بمثابة أخي أنت، عشنا معاً سنوات طويلة. تصادقنا أطفالاً وشباناً، أكلنا معاً الخبز والملح. لم تسمع منّي كلمة تسيء إليك، وكنت أظنّ دائماً أننا سنعيش جنباً إلى جنب العمر كلّه.. فما الذي حدث؟

- لا شيء يا أسامة.

- تقول لا شيء.. هل تحسبني غبياً إلى هذا الحد؟ تغيّرت تماماً. كلّ مرّة أدعوك للقاء، تتحجج بألف سبب وسبب متهرّباً.. عال. لا أريد أن أفرض نفسي عليك. قل لي. لا بدّ أنّ شيئاً ما قد حدث. شيئاً خطيراً حتى بدأت تتحاشاني. قل. كن شجاعاً وصارحني. أليس من حقي أن أسألك، هل وشى بي واش؟.. هل وصلك كلام عن لساني مسيء إليك.. أريد أن أعرف.. لا تتركني في دوامة.. قل. ربّما تكون قد ظلمتني. القاتل يسمحون له أن يدافع عن نفسه.. فهل تظنّ بي إثماً؟

- لا شيء.. لا شيء.

- عدت تقول لا شيء.. وأنا أرى بأمّ عيني كيف صرت تتحاشاني وتتهرّب منّي. كنّا نذهب معاً إلى الروبير. صرت بعد ذلك تتسلّل وحدك وترمي نفسك في أحضان حسناء. وتتصوّر أنّني لا أعرف. كلّ خطوة تخطوها هناك تصلني بالساعة والدقيقة واليوم، وأنت تخفي عني هذا الأمر وأنا ما أخفيت عنك شيئاً، لا من هفواتي ولا من حسناتي. هل أقول لك شيئاً عن حسناء؟

- ما دخل حسناء في الموضوع؟

- إسمع يا أجدب . . إسمع . حاولت إغراء حسناء بالمبيت عندها ليلة وبالمبلغ الذي تريده، رفضت ووبّختني وصرخت في وجهي : أتخون صديقك يا أسامة . . كانت هذه العبارة وحدها كافية لأعرف أنّ هذه المرأة أصبحت تحبّك، وتتقيّد بقوانين وتقاليد المبغى بأن لا تسمح لصديق صاحبها، أو ما اؤتلف على تسميته زوجها أن يقرب منها . تعرف يا نبيل . وعندما قالت لي هذا الكلام، انتبهت إلى خاتم ذهبي يلمع في إصبعها فأدركت . . أدركت أنّكما أعلنتما زواجكما حسب تلك التقاليد . . كيف تفعل ذلك دون أن أكون معك . أنت خنتني وليس أنا . لعلّك تتحاشاني وأنت تظنّ أنني حاولت أخذ حسناء منك . معاذ الله . حسناء أصبحت مثل أختي . . . قضيت تلك الليلة بكاملها وأنا أحدّثها عنك . مشجّعاً لها على التمسّك بك لأنّها لن تجد رجلاً رائعاً ونبيلاً مثلك . . أهذا هو جزاء المعروف يا أبله؟

صمت أسامة . أخرج منديله الأبيض من جيب سترته . وراح يمسح العرق عن جبينه ووجهه . كان مضطرباً ومنزعجاً، أخرج سيكارة من علبة البافرا وأشعلها .

هذه أوّل مرّة ينتبه نبيل إلى أنّ أسامة بات يدخّن . راح يمجّها بعصبيّة ظاهرة . أطرق . راح يهزّ ساقه بوتيرة مزعجة . ونبيل هو الآخر صامت ينظر إلى الأرض . ثمّ، فجأة، صرخ أسامة : أنا لا أدوس على «كراعيبك»[1] . خذ علماً بذلك . . أم إنّ حسناء أشعرتك أنني راغب فيها؟! إذا حاولت ذلك لا تصدّقها . كلّهن مومسات ... أقسم لك لم ألمس يدها . كلّ ما حاولته أن أجرّبها إن كانت تحبّك أو تضحك عليك، لو سمحت لي بوطئها لصفعتها وخرجت . والحمد للّه أنّها شتمتني ورفضتني ففرحت بشتيمتها

(١) لا أدوس على كراعيك (هو تعبير شامي) أي : لا أغدر بك . ولا آخذ منك شيئاً خفية عنك .

ورفضها لي، لأنني أدركت أنّ هذه المرأة صارت تحبّك. أفرح لسعادتك يا نبيل مثلما كنت تفرح دائماً لسعادتي. . ثمّ إياك أن تفكّر أن إمرأة مومس آو غير مومس تستطيع أن تفرّق بيننا.

لم يدر أسامة. أنّ كلّ هذا لم يخطر ببال نبيل، فكيف أخذته أفكاره إلى حسناء وغير حسناء؟ هل يصارحه؟ ماذا سيكون ردّه على أقوال الشيخ. الموضوع كلّه يتعلّق بزين العابدين. كلّ الصور معاكسة لبعضها. . من قال الحقيقة ومن لم يقلها هذه هي المشكلة. شعر نبيل هذه اللحظة بخطأ الإبتعاد عن أسامة المفاجىء مّما جعل أسامة يلحّ لمعرفة السبب كلّ هذا الإلحاح. من حقّه أن يعرف. لا يمكن أن يبقي هذه الحلقة مفقودة وغامضة، يجب أن يعرف أسامة رأي الشيخ فيه، والذي يعتبره شيطاناً أغوى رجلاً على الحرام. بل يجب أن يعرف أقوال زين العابدين التي تختلف جذرياً عمّا قاله أسامة ذات يوم، بعد ذلك يتّخذ نبيل القرار الحاسم.

أراد نبيل أن يغيّر دفّة الحديث، فقال:

ـ أسامة. . عهدتك لا تدخّن. .

ـ صحيح. . لكنني الآن صرت أدخّن.

ـ ألا تعرف أنّ التدخين يضرّك؟

ـ بلا ضرر. . بلا بطيخ. . إنّها تسمح لي أن «أفشّ»[1] خلقي بهذا العالم الوضيع، هل تأخذ سيكارة؟

ـ لا. .

ـ خذ. . دخّن عليها تنجلي ـ وسحب سيكارة من العلبة وقدّمها لنبيل ـ إعتذر نبيل عن أخذها:

ـ دعني. . يا رجل. لا تغريني بها أرجوك!

وافترقا، هذه المرّة على تواعد ولقاء.

(١) أفشّ خلقي (تعبير شامي) أي: أرتاح.

يتذكّر نبيل حسناء، لم يتصوّر أنّ أسامة أصبح يعرف تردّده عليها: «ظننت أنّها ستكتم الخبر، بل رجوتها ووعدت، وما تحدّث عنه أسامة الآن يكشف وجه الحقيقة عندما رفضته لأنّه صديقه، وأسامة، بالطبع، ليس غبياً، فكم من مرّة رأتني شهيرة متسلّلاً إلى غرفة حسناء فتضحك بتلك النغمة التي لا تجيدها غير نساء هذا المبغى العابق بالجنس والجريمة، والجريمة. نعم. وأُنقذت باللحظة الأخيرة».

كاد نبيل يقع في المأزق، كان عند حسناء، مدموجاً بها، وغارقاً في جسدها الطري الجميل، عندما حصل هرج ومرج وعويل وبكاء. إذ وُجدت إحداهن مذبوحة على سريرها من الوريد إلى الوريد. ساقت الشرطة كلّ من كان موجوداً من الرجال إلى التحقيق. ومن بينهم نبيل. لكنّ الشبح المنقذ، كان مصطفى بيك. الذي حضر إلى النظارة[١] وسحب نبيل من ياقة قميصه كما تسحب الشعرة من العجين، خارجاً به من بين المجموعة المعتقلة، صاح به على رصيف النظارة الخارجي: لو عَلم أبوك لقتلك يا نبيل. . العمى بقلبك. في الروبير!! أنت إبن شيخ المجَاهدين تتردّد على الروبير!. إياك أن أسمع أنّك عدت إلى هناك مرّة ثانية. فكاد نبيل يقبّل يده وهو يرجوه ألاّ يخبر أباه. فيقول له:

(١) النظارة ـ بالتعبير الشامي ـ أي: السجن المؤقّت.

ـ على أن تعدني أن لا أراك ثانية هناك.

ـ أعدك.

ـ يالله.. إذهب إلى البيت.

أحبّ نبيل مصطفى بيك هذه اللحظة، ماذا كان سيحدث لولاه.. لا علاقة له بالجريمة سيعرفون ذلك بالتأكيد. ولكن عندما يعلم الأب والعائلة كلّها أنّه بات ليلة في النظارة بسبب جريمة.. ليست في مكان عادي، بل في المبغى. ماذا سيكون موقفهم؟! وتخيّل نبيل نظرات الإحتقار من الجميع، وخصوصاً من أبيه، أبيه الثائر وزعيم الحي، والقبضاي.. كيف سيكون موقفه، لولا مصطفى بيك الذي أنقذه من هذه الفضيحة... أشكرك يا مصطفى بيك.. أشكرك.. أخذ يردّد بينه وبين نفسه وهو يغذّ السير نحو البيت كأنهه يهرول.

لم يكن أسامة تلك الليلة هناك، فحمد نبيل الله، ثمّ انتبه إلى نفسه أنّه ما زال يحبّ صديقه. كان من الضروري أن لا يبتعد عنه. وأن يظلّ على كتمان حواره مع الشيخ.. ماذا يستفيد إذا فقد صداقة أسامة وهو رفيق عمره.. يا رب أين الحقيقة؟ عند أسامة أم عند زين العابدين أم عند الشيخ. يصطفلوا يا سيدي. يصطفل زين.. ويصطفل أسامة والآخرين. والأستاذ أيضاً، وأبو عرب، وكل أهل الحي وأهل السوق وأهل البيت ولمياء. كلّهم أحرار.. أحرار بما يفعلون.. فلماذا أحمل وزر الآخرين؟!

وما إن وضع نبيل المفتاح في ثقب الباب حتى أحسّ بأنّ شيئاً غير طبيعي يحدث في البيت والمفروض أن يكون الجميع نياماً في هذه الساعة المتأخّرة من الليل. اجتاز عتبة الدار ويده على قلبه، رأى غلياناً. رأى أمّه مضطربة.. وخائفة. رأى عمّته أمّ لمياء وأخاها وأختها والأب أيضاً، جميعهم هنا ما عدا لمياء.. هل حدث للمياء شيء.. لا يا رب.. أرجوك.. ثمّ ظهر أبو نبيل وقد اعتلى وجهه غضب عارم... وما إن رأى

ابنه حتى صرخ فيه : هربت لمياء يا نبيل . . لم تعد إلى البيت منذ البارحة ، هربت مع هذا العكروت[1] . فحاول نبيل تهدئة غضب أبيه :

ـ رويدك يا أبي . . لماذا كلّ هذا الغضب ؟ .

ـ تسألني لماذا كل هذا الغضب . . ألا تعرف معنى أن تهرب البنت مع عشيقها ؟

ـ يا أبي . . لمياء تعرف مصلحتها . . إنّها إمرأة ذكية . . ومن حقّها أن تختار شريك عمرها دون أن يتدخّل أحد منّا .

ـ ماذا تقول يا ولد ؟ . هذه ابنة أختي وأنا مسؤول عنها . .

ـ من أعطاك هذا الحق ؟ ها هنا أبوها وأخوها وأختها وأمّها . . فما دخلك أنت ؟ .

اقترب الرجل من إبنه وصفعه صفعة قويّة ، وكاد يصفعه ثانية لولا وقوف الأم بسرعة بينهما ، وهي تصرخ في وجه زوجها . ربّما للمرّة الأولى يرى نبيل أمّه في هذا الموقف : إرفع يدك عن ابني . . تضربه . . لماذا ؟ هل هو الذي سهّل لها الهرب ؟ ثمّ أمسكت بيد ابنها وابتعدت به عن الأب الذي أخذ صوته يهدر كالرعد بالشتائم على لمياء ونبيل والعالم كلّه ، يتطلّع حوله يميناً ويساراً كأنّه يريد أي شيء يعترضه لينهال عليه ، صاح بعد ذلك : ما أروع أجدادنا عندما كانوا يئدون بناتهم تحت الرمل .

استند نبيل إلى الجدار البعيد ، منتظراً العاصفة لتنحسر ، فإذا بأبيه يتقدّم منه . أرادت الأم وأخته أن تمنعاه ، لكنّه نهرهما : ابتعدا من طريقي . . ابتعدا . ظلّ نبيل واقفاً في مكانه متحدّياً ، اقترب الرجل من ابنه وأمسك بيده ثمّ قاده إلى غرفة جانبيّة وأغلق الباب خلفه :

---

(١) شتيمة .

ـ تعترضني يا كلب وتدافع عنها . . طبعاً تريد أن تدافع عنها . لأنّك أوّل من نام معها . . هل تظنّني نسيت؟ . كان يجب أن أذبحكما معاً في تلك الليلة ، وأخلص من شروركما . . الآن . . من يمسح هذا العار عن العائلة؟ .

اقترب نبيل من أبيه أكثر ، ثمّ أخذ يده وراح يقبّلها : لا تعيّرك يا أبي . . تعيّر أباها وأخاها . . ما دخلك أنت . فلماذا تحمل همّها . . وقلبك لا يساعدك على الغضب؟ أنا حريص على أن تبقى لنا . . قلبك ضعيف . . كم مرّة قال لك الطبيب أنّ قلبك ضعيف . . هل تريد أن تموت من أجل لمياء التي ستعيش حياتها مع زوجها؟ نحن نريدك لنا يا أبي . . أترك لأسرتها أن تتصرّف .

هدأ الأب قليلاً وهو يرى هذا الشاب يتألّم خوفاً عليه . تراجع عن ابنه إلى أن استند إلى حائط الغرفة .

ـ ما كان يخطر ببالي أن تهرب مع هذا الكلب . . هذا الكلب الذي سيذيقها العذاب أطناناً . . إنّها إبنة أختي . . عارها يلطّخ جبيني أنا أكثر من أخيها وأبيها .

ـ أليست هي المسؤولة؟

ـ عدت تسأل مرّة ثانية ! !

ـ وأيّ عار إذا تزوّجته على سنّة الله ورسوله؟

ـ الحياة ليست نظيفة «أخذ أبو نبيل يردّد» . . لم تعد الحياة نظيفة . رزق الله على أيام زمان . البنت من بيت أمّها وأبيها إلى بيت زوجها . . الآن ، كلّ شيء ينهار يا ابني . . حياة متّسمة بالفوضى الأخلاقية . . أين أخلاق اليوم من أخلاق الأمس !

أراد نبيل أن يقاطع أباه . رفع كفّه بوجهه : لا تناقشني . . الحمد لله أنّ أخواتك البنات مستورات بأزواج صالحين .

ـ إذا كنت تريد الحقيقة، كلّهن تعيسات.

يحدّق الرجل بابنه:

ـ من قال لك هذا الكلام . . ما من واحدة جاءت واشتكت زوجها لي.

ـ لأنّها تخاف منك . . ولأنّ الصهر يعرف فإنّه يزداد اضطهاداً وتذليلاً لها، حتى عندما تعلم بخيانته، تسكت على مضض، لأنّك يا أبي ترفض أن تعود ابنتك إليك إذا اضطهدها زوجها.

ـ ما من يوم وقفت تخاطبني هكذا يا ولد!

ـ لم أعد ولداً يا أبي . . إنني أبقّ البحصة[1]. أعرف أنني ابنك الوحيد، وأدرك أنّك تعطيني ما لم تعطه لواحدة من بناتك . . وهذا منتهى الظلم.

ـ ماذا تقول؟

ـ وأكثر من ذلك، دعني أصارحك، أنت تعرف كم أحبّك أيّها الأب الرائع. ولكن لمياء . . ما كانت تريد مصيراً مثل مصير بناتك. تعرفهن عن قرب، يقصصن عليها عذاباتهن. وكثيراً ما تطلب مني أن أقنعك بحمايتهن. الأربع تعيسات . . هل تصدّق. وأنت ترفض من أي منهن أن تفتح لك قلبها وتحدّثك عن مأساتها. كلّ أصهرتك يا أبت يعرفون سلفاً، أنّ لا سند لزوجاتهم، ولا من يحميهن منهم، وأوّلهم أنت بالذات، الأب، القبضاي، الثائر، ورجّال الحي. هل تريد أن تعرف أكثر من ذلك؟ إنّ ماضي أحد أصهرتك لا يقل خزياً عن ماضي عاصم، قد يكون عاصم الآن أفضل ألف مرّة من هذا الصهر في المعاملة الطيبة مع زوجته، وخصوصاً أنّها تحدّت العائلة وهربت معه.

ـ أسكت يا نبيل . . أسكت . . لماذا لا تقول العكس؟ النفس التي بنيت على الفساد ستظلّ فاسدة.

---

(١) بق البحصة: أي تجرأ وقال ما كان يخاف أن يقوله.

ـ هذا كلام صحيح جداً يا أبي . . بدليل أنّ صهرك زوج أختي عائشة، الفاسد أصلاً، جعل من حياة عائشة جحيماً لا يطاق .

ـ أنا أسمع هذا الكلام لأوّل مرّة .

ـ نعم . . إسمعه الآن من إبنك قبل أن تسمعه من غيره . . إفتح عينيك . . وأذنيك . . إنّ ما يحصل في بيوت بناتك تقشعرّ له الأبدان. حنان قبل أيام كان وجهها متورّماً من شدّة ما تلقّت من صفعات. كفّ زوجها ثقيلة يا أبي. كلّ ذنبها أنّها زادت سكّراً في القهوة. هل سمعت بظلم أشدّ من هذا؟

ـ إنني أسمع عجباً . . هل هذا صحيح؟

ـ لا أكذب عليك . . وإن شاء الله لن أكذب عليك أبداً. لكنّك لا تريد أن تسمع . وتظلّ ساداً أذنيك حتى من رجاء أمي، التي تبكي مصير بناتها ولا تستطيع أن تبوح لك بما يحصل في بيوتهنّ . . وها أنت الآن تريد أن تمنع عن لمياء سعادتها، لأنّها هي التي اختارت ولست أنت أو أبوها أو أخوها . لقد رميت بناتك، وبالطبع دون قصد منك، في أحضان رجال قساة، لا يريدون من المرأة غير إشباع رغباتهم. ثمّ تتحوّل خادمة «أطلب تُعْطَ» . بناتك، باختصار، خادمات. وأنت الرائع الذي لا يطلب من أحد أن يشعل له سيكارته، لأنّك تعتبر ذلك طعناً لكبريائه. بناتك خادمات يا أبي . . هل تدرك ذلك؟

ـ أسكت يا ولد . . أسكت . . أنت تحاكمني الآن محاكمة قاسية ما تجرأ غيرك على فعل مثلها . . أنت إبني . . وتوجّه إليّ الإهانة تلو الإهانة . . هل لأنني كبرت؟

ـ معاذ الله يا أبت، أنت أبي الذي أحب. أفديك بحياتي. لكن أريد أن أوقظك على واقع كنا غافلين عنه معاً ولولا لمياء . . لمياء المتمرّدة عن حق، لأنّها تدرك أنّ الذين جاءوا بها إلى الحياة لم يعودوا مسؤولين عنها. إنّها تريد حياتها، كما رسمتها هي، لا كما يرسمها لها الآخرون. لو أنّ بناتك اخترن أزواجهن، لوجدتهن الآن مرتاحات سعيدات.

ـ ليس ما تقوله قاعدة يا بني . . ما تراه الآن معك قد ينقلب ضدّك . فكم من زيجات قامت على حبّ وانتهت إلى كره!

ـ كلّ هذا صحيح . ولكن لنترك الآخرين يختارون مصيرهم دون أن نختاره نحن لهم .

صمت أبو نبيل طويلاً . رفع طاقيته البيضاء عن رأسه ، ومسح براحته شعره الأشيب الخفيف . حدّق إلى الأرض لا يريم . بدا كأنّه يسترجع ماضياً برمّته . فتذكّر كيف كان يقبل أوّل طارق يطلب يد إحدى بناته ، وكيف كان يسرع بتزويجهن معتبراً أنّ ذلك من صلب الإيمان «ستر البنات بالزواج» دون أن يدقّق النظر بهذا الطارق أو ذاك ، هل هذا صحيح كما يتّهمه إبنه ، إبنه بالذات الذي يحتجّ على تدليله مقابل إذلال أخواته؟ ما الذي أيقظ نبيل على هذا الواقع ، ومن أين له هذا الكلام الذي يواجهه به؟ أين تعلّم كلّ هذا؟ في السوق . . أم من رفاقه ، أم من الشيخ أمين؟

رفع رأسه نحو ابنه ، فوجده شاخصاً أمامه ، ينظر إليه بحنان وحب ، فتقدّم نحوه خطوة ، وأخذه إلى صدره وهو يهمس دامع العينين : لقد سبق السيف العذل يا بني . . سبق السيف العذل .

ـ لا يا أبت . . بيدك الآن أن تصلح الأمور . أن ترجع إلى ضميرك وتستعيد بناتك إليك . أشعرهن أنّك معهن ، وأنّك لن تسمح لأحد من أصهرتك أن يهين بنتاً من بناتك بعد اليوم . أنت الأب الرحوم الذي لم ترفع يدك على أحد منّا أبداً (لكنّ نبيل أخذ يلامس خديه براحتيه كأنّه يلوم أباه على ما فعل قبل لحظات) أمّا لمياء فلنترك لها فرصتها . إذا فشلت لا سمح الله ، يكون ذنبها على جنبها .

ربت أبو نبيل على كتف إبنه بحنان وقال :

ـ إني لأسمع منك كلاماً جوهراً يا إبني . . كلاماً موزوناً جميلاً . نحن الذين بلغ العمر بنا عتياً . لم تكن أفكارنا ، ولا تصرّفاتنا تسير بنا على هذا

النحو. كانت أمثولة الوأد تلازمنا من صحرائنا الشاسعة، مع أنّ الإسلام حرّم وأد البنات. صحيح أننا لم نعد نئد بناتنا. لكن ها نحن نئدهن في أحضان رجال لا يستحقوهن.. ما أبلغ ما قلت يا بني.. إنني لأتساءل: ماذا فاعل أنا الآن. هل بقي من وقت يسمح لي إصلاح ما أخطأت؟ أرجو من الله أن يساعدني على ذلك.

وتهبط على رأس نبيل فجأة، تلك القبلة الطائرة التي أرسلتها أمّه إلى الفضاء يوم كان صغيراً، يوم كانت فاتنة الحي، لمن؟» هل كان من حقّها ولو نادراً. أن تسرق من الزمن قبلة من السعادة ترسلها على رؤوس أناملها في الفضاء لإنسان مجهول.. أو لطائر يعبر السماء؟ ألم يكن أبي يعاملها كخادم مطيعة. تحت أمره ليلاً نهاراً، رهن إشارته، تفهم ماذا تعني رفّة جفن من عينه، أو مسحة جبين براحته؟ كان يقول متفاخراً: أم نبيل تفهمني على الطاير. بل تعرف بماذا أفكّر، وماذا أريد، من دون أن أطلب ذلك، هل صحيح ما كان يقول.. أم أنّه رعبها من أن يلقي بها خارج المنزل.. تماماً مثلما يفعل أزواج أخواته بصورة أو بأخرى؟. ويتساءل: «من هو الرجل الذي استحقّ من أمي تلك القبلة الطائرة؟ هل كانت تلتقيه خفية. أم أنّها لم تتعدّ ذلك. أنا متأكّد أنّها لم تتعدّ ذلك، لأنني ما من مرّة رأيتها خارج منزلها. وإذا أرادت زيارة أهلها، كانت تصطحبني معها، أو تصطحب أبي بالذات، لم تنم خارج بيتها ليلة واحدة. دائماً مهتمّة بأمور بيتها من مسح وشطف وطبخ وغسيل، وخدمة أبي عندما يحضر ويجلس على كنبته العريضة. بينما تتربّع على السجادة الفخمة قرب قدميه. هذه هي أمي الصبورة الهادئة، القليلة الكلام، تغمرني بحبّ فلا أظنّ أنّها أحبّت سواي. وأنا في هذا العمر تقبّلني من فمي وصدري ووجهي. وأحياناً تجلسني في حضنها هامسة يا حبيبي الوحيد. لم أتجرأ أبداً على أن أسألها لمن كانت تلك القبلة التي ما إن لامست أناملها شفتيها، حتى شعّ وجهها بسعادة، ما رأيت مثلها على هذا الوجه الصبوح، بعد ذلك، أبداً. أيمكن

لوردة النرجس أن تقول؟ لا بدّ أن تقول. بل قالت: الحبّ مصدره الصدق. مصدره الحقيقة. ليس هناك مثل الحب تعبيراً عن الحقيقة البشريّة. . ».

ـ أليس كذلك يا أبي؟

ـ هل كنت تقول شيئاً.

ـ لا. . لا شيء. . المهم الآن، إصلاح ما تخرّب، حتى لو كان الوقت قد تأخّر كثيراً.

لم يطق نبيل فراقاً عن حسناء، تزوّجا في احتفال صغير، على طريقتهم هناك، وضمّ الإحتفال صديقاتها المقرّبات. كانت قد وضعت في إصبعه خاتماً ذهبياً، ووضع لها في إصبعها خاتماً مشابهاً، وما إن يخرج من عندها، حتى يخفي ذلك الخاتم في جيوبه. كان يتسلّل سرّاً لئلا يعلم مصطفى بيك. فينتقل من عالم إلى عالم، من عالم السوق وضجيجه إلى عالم مختلف. بين أيدي أجمل امرأة في الوجود - كما كان يقول لها - أعطته حسناء سعادة ما كان يحلم بها قط، وهي أيضاً رأت فيه لأوّل مرّة الحب الحقيقي الذي اشتاقت إليه باستمرار، ما إن يلتقي العاشقان ويغلق الباب، حتى يُفتح على عوالم ساحرة، كلاهما يعيشها بكلّ وجدانه وأعماقه، ولا يدري نبيل كيف يصبح في حضرتها إنساناً آخر، شفّافاً، حنوناً، معطاء، ولا تدري هي كيف ترى في حضرته رجلاً مختلفاً، تلامس فيه كلّ عطشها إلى الحنان، الحنان الذي ما عرفته أبداً، منذ البداية، منذ طفولتها التي كانت أشدّ وطأة من قسوة الجبال تنهار عليها. وفي كلّ مرّة يحاول نبيل أن يخترق ماضيها الذي تتكتّم عليه بإصرار فلا ينجح، فيعاتبها، ويسألها: إذاً، ماذا أعني لك إذا لم أعرف كلّ شيء عنك؟! تردّدت كثيراً في البداية، ثمّ راحت تروي له، بعد أسئلته الملحّة، جزءاً فجزءاً من مأساتها. حسناء إسم اخترنه لها زميلاتها، لأنّها حسناء فعلاً، لم تتجاوز الثامنة والعشرين. جسد حليبي اللون،

مشدود وطري في آن، عينان شهلاوان في ميل إلى الأخضر، شعر بني مائل إلى الأشقر دون أصباغ، مرميّ حتى نهاية ظهرها. ما إن يلتصق بها حتى ينسى الدنيا، وظنّ في نفسه أنّ حبّه لها نابع من هذا الإرتواء الجنسي الذي تمنحه إياه بحبّ حقيقي وأصيل. لم تكن حالتها معه، تشبه حالة لمياء، يوم كان ينام في حضنها وهو ولد. كانت لمياء تغتصبه. بكلّ ما تعني هذه الكلمة من معنى، حسناء اعترفت له باسمها الحقيقي «كاترين». كانت تمنحه جسدها بكلّ الحب والعشق اللذيذ، تعطيه حلاوة يظلّ مذاقها على فمه وجسده حتى اللقاء التالي. فإذا بهذه الحلاوة تختلف، وإذا بالجسد يتحرّك فوقه وتحته حركات مختلفة لا تتكرّر. يكتشف نبيل أنّ للجسد الجميل لغة مختلفة، ولم يفهم هذه اللغة إلا أمام هذا الجسد المشع بلذاته التي يقطفها قطفاً، كما لو أنّه يقطف حبّة الكرز الأولى من شجرة الحياة، لم يكونا يتكلّمان إذا التحما في ذلك الفراش الدافىء. كانت تمطره بقبلاتها المحمومة كأنّها تخاف أن تفقده فجأة. فتحاول أن تستزيد ما أمكنها من فورة شبابه. ويسأل. . ويسأل، وتخاف الجواب، تحاول أن تقول له: مالك وماضيَّ، ولدتُ يوم عرفتك، فلنبدأ حياتنا معاً منذ هذه اللحظة، آل على نفسه أن لا يستزيدها، لأنّها في كلّ مرّة تروي له شيئاً من ذاك الماضي، يذهب عنها جمالها، تتحوّل إلى عجوز شمطاء، كأنّ الماضي يجلدها جلداً، وكأنّ سوط الذكريات خناجر تمزّق العقل والفؤاد، تروي فتبكي، ثمّ تتوقّف، ولا يطلب المزيد، إلى أن تجمّعت خيوط المأساة: أبوها أوّل من اغتصبها. ما إنفك عن جسدها حتى حملت ابنه في بطنها. إبنه الذي احتارت كيف تتخلّص منه، وخشيت مراراً أن تذهب إلى الطبيب، من يقودها إلى الطبيب؟ لا أحد، هل تخبر أمّها؟ كيف تخبر أمّها؟ ماذا يحصل إذا أعلنت الفضيحة؟ كانت تخاف من أبيها إلى حد الرعب، أبيها الذي لم يكفّ أبداً عن اغتصابها بوحشيّة، لم يرحم دموعها وهو يمتطي جسدها الغض، ثم ما إن ينفكّ عنها حتى يهدّدها، ليس بقتلها وحدها، بل بقتل أمّها إن أفشت لها بالسر. وكبر بطنها، أراد أن يسقط الجنين بوسائل بدائية،

لم يسقط الجنين، منذ كان نطفة، أصرّ على البقاء، أصرّ أنّ يوماً سيأتي وينتقم لأمّه شرّ انتقام. سقاها كؤوساً من النبيذ، لعلّ الجنين يسقط، والنبيذ كأنّه يمدّه بأسباب الحياة، وكبر بطنها أكثر، خشي أن تعلم الأم، اختلق المشاجرات، وصار يضرب الأم لأتفه سبب، يسحب «مجّة» من سيكارة الحشيش وينهال عليها ضرباً، حتى عافت الحياة، وفرّت إلى مكان مجهول، خلا الجو للرجل، وتحوّل إلى وحش حقيقي، يأكل ابنته، وسيف القتل مسلّط على عنقها، وكبر البطن أكبر، صار الجنين يتحرّك نزقاً يريد الخروج من هذه العتمة، صعد بها الأب إلى الجبل، حتى إذا جاء المخاض، أتى لها بقابلة من القرية مدّعياً أنّ ابنته حامل من آخر اعتدى عليها، وأنّ هذا الآخر اختفى، وأنّه أراد أن يستر ابنته فصعد بها إلى الجبل. وشتمتها القابلة أمام الأب: زمن فاسد يا سيدي، أصارحك القول، إنّ ما أسحب من أجنّة حرام أكثر من الولادات الشرعية، نعم، الفساد يعمّ الأرض، ويدّعي الأب أن حنانه منعه من قتل ابنته، لكنّه لا يريد المولود أبداً. سحبت المرأة الجنين من بطن كاترين، ولحظة سمعت لحن البكاء الأوّل. نسيت أوجاعها، وبشاعة ما مرّ بها من أهوال، كانت القابلة تريد أخذ المولود، كما هو متّفق مع الأب، وتخفيه على طريقتها بعد أن أجزل لها العطاء، غير أنّ كاترين صرخت بها ألا تفعل، وإلا أخبرت الشرطة بكلّ شيء، خشيت المرأة أن تصدق كاترين. فأقنعتها بأنّها ستحتفظ بالوليد. ستقول لأبيها أنّها رمته أمام باب إحدى الكنائس. فاشترطت عليها كاترين أن تخفيها هي أيضاً، لأنّ الأب سيقتلها بعد ذلك. المرأة الخبيثة وافقت، فها هي كاترين صيد كبير لها، عندما استيقظت كاترين من أوجاعها، وفّرت لها المرأة مخبأً آمناً، وعاد الأب لاسترجاع ابنته فلم يجدها، وصدّق القابلة أنّها هربت ولا تعرف إلى أين. . كذلك صدّق أنّ الوليد رمته على باب الكنيسة، بدا الرجل للمرأة قاسي القلب، قال عبارة واحدة: لتذهب إلى جهنّم، وابتعد.

بعد أن استقرّت كاترين في البيت الذي أعدّته لها القابلة، أعادت إليها إبنها وأخاها في آن معاً، كي ترضعه حليبها وتشرف على تربيته ونموّه، منذ ذلك الوقت، لم يعد الأب يسأل عنها. لكنّ المرأة جلبت لها العار الآخر. ليس من أجلها هي، تقول المرأة، بل من أجلك أنت يا كاترين؟ تريدين مالاً، ولا تستطيعين أن تعملي في أيّ مكان، لأنّهم سيكتشفون أمرك، وإذا اكتشفوا أمرك لن تنجي من سكّين أبيك، أو في أحسن الأحوال من الشرطة. وقعت كاترين في المأزق. إما أن تعود إلى أبيها، أو ترضخ لابتزاز تلك المرأة، التي لم ترحمها فيما بعد، رجال في إثر رجال، ثمّ تأخذ منها كلّ ما تحصل عليه ستراً للفضيحة، إلى أن التقت برجل خيّل إليها أنّه النجاة، عاملها بحبّ فائض وسخي. زيّن لها ولإبنها مستقبلاً جميلاً، روت أنّ الطفل لرجل عاشرها وهرب، فاحتفظت به. «من كان يخطر بباله أيّ عذاب سأعانيه ولم أبلغ بعد العشرين.. إبني أخي، أخي إبني.. من سيصدّق ذلك؟.. أي إسم سأمنحه لهذا المسكين الذي بدأ يكبر، يلعب، يضحك، يلفظ ماما.. ببطء ويضحك. يضحك لي أنا أخته وأمّه في آن معاً». وتتذكّر.. تتذكّر تسعة شهور بالتمام والكمال ولم يكفّ فيها الأب عن اغتصابها غير آبه بالمستقبل، بالعار الذي سيحاسبه عليه ضميره قبل أن يحاسبه الله: خاف الله.. خاف الله يا أبي. فيصفعها: إخرسي.. إخرسي. هل تريدين أن يطأ هذا الجسد الجميل غريب قبل أبيك؟ تستغرب هذا الكلام، لكنّ الخمرة والحشيش يعصفان بالأب قبل أن يتقدّم لاغتصابها، قائلاً لها: يا عاهرة أنت تريدين ذلك، أنت بالذات.. إذا لم يكن أباك.. فأيّ رجل آخر.. لا تفهم ماذا يقول. لم يرحم دموعها. وتتذكّر.. وتتذكّر، وتبكي «إنّك تنكأ الجرح يا نبيل». ينظر نحوها ويزداد تمسّكاً بها. يكاد لا يصدّق، أنّ في الدنيا كلّها أباً مثل هذا؛ لكنّ اضطراب كاترين وهي تروي، يُنبىء عن صدقها. عن حقيقة ما تقول. أب ملعون بكلّ الكتب المقدّسة، يسدّ فمها براحة يده، ثمّ يسحبها إلى فراش أمّها،

يأمرها بالتعرّي: «أقتلك إذا ندّ صوتٌ عنك». يجلس على حافة السرير ويبدأ بمداعبة الجسد الطري الغض. وكلّما زادت دموعها تدفّقاً اتّقدت شهوته وتصاعد هيجانه، فيطأها مرّة تلو المرّة، وهي مستسلمة له لا تقاوم. ولا تمنع يده من الإنزلاق هنا وهناك، ولا لسانه من لحس دموعها وعرقها. تستسلم له بهدوء ظاهري، فيما تشعر كما لو أنّ سكاكين تخترق أعماقها. فيبدأ صراخها الداخلي، تتحوّل كلّ مسامة في جسدها إلى عين تبكي بدم من الدموع.

تتوقّف كاترين عن الكلام وهي ترتجف. تنظر إلى نبيل بوجه شائخ وعينين محمرّتين، تتجعّد كأنّها عجوز، وهي تروي نتفاً من ذاك الماضي. يستغرب نبيل هذا التحوّل، كلّما حاول استخلاص الحكاية، تستجيب بعد إلحاح. ثمّ تتحوّل تدريجياً وكأنّها في كلّ دقيقة تكبر سنة: يا ألله.. إنّك تزيد عذابي بأسئلتك يا نبيل. ألا تكفّ.. ألا تكفّ. ينصت نبيل مشدوهاً. لا يصدّق.. يتساءل: هل تبالغ.. هل تكذب؟ لا.. لا.. لا تبالغ ولا تكذب. فهذه الآلام التي تظهر على وجهها، وهو يغتصب منها الكلمات كلمة كلمة، يريد بها أن ترتاح من هذا الثقل الشديد الذي يجثم فوق قلبها، فإذا به يزيدها اشتعالاً وعذاباً، وهي، كاترين، لأوّل مرّة في حياتها، تشعر أنّها تحبّ هذا الرجل. يصغي إليها بلوعة العاشق الذي يرى في حبيبته هذا الضنى الفاجع. كيف تحمّلت كلّ هذا؟ كيف استطاعت أن تعيش دون أن تتدلى من الأنشوطة، أو تحز وريدها بالسكين، أو تشرب السم؟ كيف. أسئلة سخيفة. والولد.. إبنها.. أو أخوها بالأحرى، من يدير باله عليه.. من يقف إلى جانبه في هذه الحياة الصخرية الملأى بالفوضى.. كما قال له أبوه مرّة؟ هربت أخيراً مع ذلك الرجل الذي وثقت به لأنّه وعدها أنّه سيتبنى طفلها وتستقر في حياة زوجية آمنة. كان هذا الرجل يكبرها بعشرين عاماً.. ليس مهمّاً. المهم سترها. وأن تعيش بقيّة حياتها لولدها «أقصد لأخي». لم يكذب الرجل الذي حملها إلى دمشق في

البداية، قال لها هذه هي مدينتك الجديدة. أسكنها شقّة في حي الشعلان. ثمّ جاء برجل معمم وشهود وأعلن زواجه منها، لم تهتم إن كان الرجل مسلماً أم مسيحياً. المهم الخلاص. خلاص من الماضي بأيّ شكل. بل وافقت أن تصبح مسلمة مثل زوجها. وأعطت لإبنها إسم خالد تقرّباً من الرجل الذي حماها. كلّ ذلك، كلّ ذلك يا نبيل كان واجهة. . فما إن مرّت بضعة أسابيع حتى كشفت الحقائق وجه الرجل، فإذا به مثله مثل الآخرين. كلّهم ذئاب يا نبيل. . كلّهم ذئاب، إذ تحوّل البيت إلى مقرّ للقمار حتى الفجر. وتحوّلت كاترين إلى بارميد تقدّم كؤوس الشراب إلى المقامرين. وكان أتعسهم زوجها الذي كان يخسر باستمرار، فيغض النظر عن الرابح الأوّل ليختلي بزوجته مقابل حفنة من المال: «هكذا أصبحت سلعة يتاجر بها هذا الزوج الكاذب، أصبحت فيشاً بعشرة آلاف ليرة يوضع على الطاولة الخضراء، من يربحها يختلي بها في الغرفة المجاورة. . أتريد أكثر؟. . . أتريد أكثر؟». . كفى كفى يا كاترين. يصيح نبيل من خلال دموعه، ثمّ يأخذ الوجه الحزين إلى فمه، فتمتزج دموعهما معاً في عناق ما كان ينفك، إلاّ بعد لحظات، فيستعيد وجه كاترين جماله ورواقه.

تبتعد عنه وهي تردّد: إنّنا بحاجة لفنجاني قهوة، يتأمّلها. . ثمّ يتساءل كيف يتخلّى عنها. . ماذا ستقول إذا ابتعد ستشتمه. ستعتبره مثل كلّ أولئك الذئاب، ها هو يتذكّر قصّة شهيرة التي تشبه قصّة كاترين، وأنّ الفساد يغرف من مستنقع واحد فتتشابه المصائب لأنّ خالقها واحد هو الشيطان الرجيم، يتذكّر أنّه وعد مصطفى بيك أن لا يطأ ذلك المكان أبداً بعد ليلة الجريمة، مستعيناً بالله أن يشدّ من قواه، إلا إنّه لم يقدر أبداً على النسيان. . مرّت أسابيع وهو يصل إلى باب المبغى ثمّ يتراجع، يدخل إلى البساتين المجاورة وينظر نحو غرفة حسناء، يراها مضاءة، ثمّ يتحوّل الضوء إلى لون أحمر. فيعرف ويغصّ قلبه بالحزن. . يستند إلى جذع الشجرة الكبيرة متأمّلاً النافذة التي يترجرج ضوءها، ويتحسّر: «كيف قادتك قدماك إلى هنا

أيّهـا التـعس. ها أنت ترى وتتـخيّل مـا يحـدث هناك، واقف كـالحـمـار لا تستطيع أن تفعل شيئاً!».

وينسحب من مكانه يجرّ أذيال الخيبة، مقرّراً ألا يفعل ذلك أبداً، ولا يفي بوعده، يأتي ليلاً، يختبىء تحت الشجرة في البستان القريب وهو ينظر إلى تلك النافذة ذات الأضواء المتغيّرة.. ماذا تقول عنه الآن وهي تترك جسدها لهؤلاء الوحوش الذين يتعاقبون عليها.. إنّها تشتمه في وجه كلّ رجل.. كلّكم ذئاب»: «نعم.. كلّنا ذئاب أيّتها المرأة العذبة، كلّنا ذئاب بمخالب مختبئة وراء قفازاتها. وأنا أوّل الذئاب وأقساهم، لأنني عرفت كلّ شيء، وها أنا أذهب بعيداً عن الفريسة. أعطيتني حباً حقيقياً ما أعطيته لأحد من قبل.. وها أنا أغدر بك لمجرّد تهديد صغير من مصطفى بيك. أنا الذئب الأرعن، الجبان في وقت واحد، أجد نفسي تحت هذا الشباك عاجز عن فعل أيّ شيء».

ومثل ذئب عجوز، يهرول نبيل بعيداً وهو يصرخ من أعماق حنجرته المجروحة عوعو هوهو.. عوو.. ولم ينتبه نبيل أنّه حقّاً يركض على أربع.. وأنّ ذنباً طويلاً في مؤخّرته يثير خلفه الغبار.

قال أسامة وهو يشعل سيكارته ويدخنها بعصبية:

ـ لماذا انقطعت عن زيارة حسناء يا نبيل؟

ـ لأنّ مصطفى بيك هدّدني بإفشاء ذلك إلى أبي.

ـ وهي.. ما ذنبها؟ لقد ظنّت فيك إسماً على مسمّى، وظنّتك رجلاً نبيلاً سينقذها من هذا المستنقع.

ـ يا أسامة، كنت هناك يوم وقعت الجريمة. قادوا كلّ الرجال إلى النظارة وأنا منهم.. ولولا مصطفى بيك، لكانت الجريمة قد ألصقت بي.

ـ بلا أكل هوا ولا[1].. اكتشفوا القاتل بنفس الليلة التالية.. إنّه عشيق القتيلة نفسها. رفضت أن تعطيه ما ادّخرته، فتشاجرا، وحاول أن يستولي على كلّ مالها ومصاغها. قاومته، فذبحها، وأخذ المال. إعتقلته الشرطة في الليلة التالية لوقوع الجريمة.. كان على أحد موائد القمار قد خسر كلّ ما أخذه منها.

ـ مالي وهذه التفاصيل الآن.. أنا وعدت.. وأريد الإيفاء بوعدي.

ـ إذاً.. قل لي إنّك كنت تتسلّى بها.

ـ لا والله يا أسامة.

---

(١) شتيمة شامية.

- لا تقسم. . أنت منذ شهر لم تذهب إليها. . لم تسأل عنها. . ما أقسى قلبك يا نبيل. .

- هي فرصة لها لتنساني.

- هل تريدها أن تنساك. . ؟ حسناً. . قل لي إنّك لا تحبّها، فأحمل لها هذه الرسالة. . لتضع حداً لعذاب أشواقها إليك. . يا ناكر الجميل.

- لماذا تكلّمني بهذه العصبيّة. . ثمّ. . ألا تكفّ عن التدخين؟

- مالك ومالي. . نحن نتكلّم بموضوع آخر. . وأريد بشأنه جواباً حاسماً. . قل لي ماذا ستفعل؟

- أراك تهتم بها أكثر منّي!

- إهتمامي بك أوّلاً. . هؤلاء النساء حساسات، أكثر من أيّ نساء محصنات خارج هذا المبنى. . بل أقول لك إنّهن أشرف من نصف بنات المدينة إن لم يكنّ أشرف من الجميع. . حسناء وثقت بك ثقة عمياء. . فإذا بك لا تستحق هذه الثقة. ها أنت تتخلّى عنها عند أوّل منعطف.

- يا أسامة. ظروف عائلتي غير ظروف عائلتك. . أقسم لك أنّ حبّي لحسناء يفوق حبي لنفسي. أفكّر فيها ليلاً نهاراً. أجلس تحت الشجرة القريبة من نافذتها ساعات، وقلبي تحزّه السكّين. أرى تبدّل الأضواء فأعدّ الرجال الذين تستقبلهم. . هل تصدّق ذلك؟ تأمّل إلى أي حد أتعذّب. . هل خطر ببالك أنني أسهر الليل وأنا أراقب هذه النافذة، حتى ينطفىء النور فيها، فأعرف أنّها استسلمت إلى النوم، وأن الذئاب غادروها، وتركوها وحيدة، تملك حزنها السرّي؟ . . أعرف معنى هذا العذاب، وشدّة وطأته على النفس. لكنّه في المقابل، هناك وعدي لمصطفى بيك، وإذا نقل الخبر لأبي، لا أعرف كيف سيكون عقابي، أو عقابها هي. . إنّ أبي لا يتساهل في موضوع خطير مثل هذا، وأنا حريص عليه، وعلى استعداد لأضحي بكلّ شيء لأجله. قلبه متعب. ولا أريد أن أكون سبباً في أي إيذاء له، هل فهمت؟ .

ـ دعني الآن أضعك أمام مسؤوليتك . . كل هذا الكلام غير مقنع . . هذه المسكينة تنتظرك . . ومصطفى بيك لا يتردّد كثيراً إلى هناك. وما يروى عن هذا الرجل الذي تظنّه حامي الأخلاق في البلد كذب . . إنّما هو عاهر أكثر من كل تلك العاهرات . ما من امرأة جديدة يقودونها إلى «الروبير» إلا ويكون هو قبل غيره ، أوّل من يطأها . بل هناك همس يتحدّث عن رشاوى يتلقّاها من هذه أو تلك ، ولا تصرّح واحدة من الراشيات بذلك ، خوفاً من طردها من هذه النعمة العجيبة . لا تظنّن مصطفى بيك ملاكاً ، إنّه شيطان بلباس رسمي ، بوظيفة ، المفروض أن يكون فيها حامي الأخلاق ، فإذا به أوّل من يخترقها . على قول المثل حاميها حراميها .

يرتبك نبيل أمام هذه المواجهة ، يسحب أسامة سيكارة أخرى ويشعلها من عقب السيكارة التي على وشك الإنطفاء ، يمجّ منها نفساً طويلاً ، فإذا بنوبة من السعال تنتابه . احمرّ وجهه . دمعت عيناه . ارتجفت يده وهو يقرب السيكارة من فمه ، يسحب دخاناً جديداً . ما زال يسعل سعالاً حاداً ، فصاح به نبيل :

ـ ألا تكف عن التدخين . . لعنة الله عليك وعلى السيكارة . . منذ متى بدأت هذه العادة السيئة؟

ـ قلت لك دعك من هذا الأمر الآن (ويسحب علبة الدخان من جيبه قائلاً له) خذ سيكارة ، إنك بحاجة إلى التدخين أكثر مني .

ـ لم أدخّن في حياتي .

ـ خذ واحدة إذاً . . تسلّى . . نفّخها تنفيخ .

ـ دعني من ذلك . . ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أنت وضميرك . . إما أن تترك هذه المسكينة لأفكارها ، فلا ترى فيك إلا أنك مثل غيرك ، استغللتها . حتى شبعت منها ، أو تجد طريقة تعود بها إلى ملاقاتها . أنت وضميرك . هل تحبّها؟ . اسأل نفسك . . هل تحبّها . . إذا كنت تحبها فلتسقط كل التبريرات الأخرى .

ـ إنني أُحبّها يا أسامة . . لست مثلك ، تضحك على شهيرة وتدّعي أنك تحبّها . إنني أحبّها فعلاً .

ـ تحبّها وغبت عنها شهراً أو أكثر . . دون أن تسأل عنها ، دون أن ترسل لها سلاماً . . باقة ورد ! !

ـ مصطفى النمر سيعرف .

ـ من أين له أن يعـرف مـثل هذه الأمـور؟ . كف عن هذه الأفكار السخيفة . . إذا في نيّتك أن تعود إليها ، أنا سأجد لك طريقة . تلتقيان فيها من وراء هذا النمر الظالم .

ـ يا سيدي . . والله سيعرف . . وأخشى ما أخشاه أن يخرجها من البلد نهائياً .

ـ هل يفعل؟

ـ طبعاً . . بيده الصولجان . . بيده إخراجهن وطردهنّ جميعاً . إنّه الحاكم المطلق لهذا المبنى . ولا أحد يناقشه في مصائر هؤلاء المسكينات .

ـ إذاً . . دعني أتصرّف .

أقنع أسامة، فيما بعد، أحد رجال الشرطة الذين يقفون على الباب، ويطلعون على تذاكر هويات الزوار. فاتفق معه، في الوقت الذي يكون فيه مسؤولاً عند المدخل على السماح لنبيل بالتسلل. مقابل رشوة، لكلّ مرّة لا تتجاوز الليرات الخمس. وهكذا خطا نبيل إلى غرفة حسناء. هبّت من مكانها رامية نفسها عليه وهي تجهش بالبكاء: لماذا غبت كلّ هذا الوقت يا حبيبي وقرّة عيني. هل أهون عليك إلى هذا الحد. أنا التي تعشق الأرض التي تمشي عليها، تتركني نهباً لعذابات الأشواق، أنت مولاي، وفيك رأيت الدنيا. كنت منقذي فأعطيتك قلبي. أنا مثلك يا كاترين. كنت أنام ولا أنام. أحرقتني نار الحنين، وكسرت قلبي. لكن ذلك الشبح الذي وقف بيننا، هو الذي أبعدني عنك كل هذا البعد، بعد اليوم لن أفترق عنك أبداً. أنت حبيبتي وسيّدة قلبي.

جلس العاشقان، بعد ذلك، قبالة بعضهما، كلّ منهما يتأمّل الآخر. بدت كاترين، كأنّها لم تنم منذ زمن طويل، متعبة حتى العياء. عيناها ناعستان متورّمتان: «اشتقت لك يا حبيبي». يأخذ نبيل يدها إلى فمه: «وأنا أيضاً اشتقت لك. لو تعلمين كم عانيت. صبرت على الفراق خوفاً عليك. صبرت لأنني كنت أخشى أن يصيبك من مصطفى النمر مكروه». تقتربَ كاترين وتضم رأس نبيل إلى صدرها: «الحق معك.. جاء إلى هنا

وهدّدني إذا استقبلتك. يخرجني من البلد ويمنعني من العودة» استغرب نبيل هذا الرهيب مصطفى بيك «إذاً يعرف ماذا يفعل؟» قالت كاترين: لقد طرد أكثر من واحدة. أنت تعلم.. معظمهن لسن سوريات، على كلّ حال سنكون حذيرين من الآن وصاعداً. أخشى أن يضبطنا آجلاً أو عاجلاً. ماذا سنفعل إذاً؟ قالت كاترين بحزم: نهرب معاً.

فوجىء نبيل بهذا الإقتراح: «نهرب معاً.. إلى أين..؟. لا أعرف.. المهم أن نبقى مع بعضنا. لديّ أساور وخواتم، لدي مالاً وفيراً.. هل تعلم أنني أملك مائتي ألف ليرة. خذ هذا المبلغ كلّه وأخرجني من هنا. كوني واقعية يا حسناء. من الصعب أن أترك البلد، أو أترك أسرتي، أمي وأبي، أهلي وعشيرتي. لا نريد أن نقع في الشرك الذي لا نعلم إلى أين يوصلنا.

تنظر حسناء ملياً في وجه نبيل، تتأكّد هذه اللحظة أنّها ستموت من دونه، تحدّق إلى عينيه السوداوين بشغف العاشقة. تأخذ يده من جديد وتقبّل أنامله، وباطن كفّه.. تنقل فمها إليه قطعة قطعة: «أحبّك.. أحبّك». يغمرها إلى صدره: «أحبّكِ أكثر.. أحبّكِ أكثر. أكثر من نفسي».

تتخذ حسناء، من جديد، جلسة ثابتة، تستند إلى مسند السرير، وتتحدّث بجدية واضحة: كل هذا مجرّد كلام إذا لم توافق على الهرب معاً. يقول هو الآخر بجديّة مماثلة: اتركيني أفكّر بالموضوع. وجدنا الآن حلاً للقاء بين الحين والآخر، اتفقنا مع الشرطي أبو زهير الذي يسمح لنا بالدخول، عندما يكون دوره بالحراسة، سأتسلّل إليك كلّما سنحت لي الفرصة، أنت تعلمين أنّ مصطفى بيك، عمّم على شرطة المخفر جميعهم، يمنعني من الدخول. في نوبة أبو زهير أجيء إليك، لقد قبل رشوة بخمس ليرات في كل مرّة. إنّه حل مؤقّت ريثما نجد مخرجاً دائماً. اليوم المخصّص لك في الخروج سنلتقي خارج هذا المكان. قالت حسناء: مصطفى بيك، لخبثه، يجعل هذا اليوم يوماً مختلفاً في كل أسبوع. لم أفهم - سأل

نبيل - يعني عليّ أن أقدّم طلب خروج إلى المدينة، لا يصرّح عن يوم محدّد. في كلّ أسبوع يختار يوماً على كيفه. وهذه طريقة خبيثة كي لا نتواعد مع من نحبّ للقاء في المدينة، انظر كم هو ابن حرام. إنّه شيطان يراقب حتى تنفّسنا ودقّات قلوبنا. حسناً. قال نبيل - لا بد أن نجد وسائل أخرى. وإذا اشتدّ الضغط علينا سأجد طريقة لنهرب معاً. سألته حسناء: لماذا لا تفكّر من الآن.. نذهب بعيداً. إلى الإستقرار الطبيعي والحياة الطبيعية.. إلى الزواج يا نبيل. وإبنك؟ دعك من ابني الآن. لقد أخذوه مني إلى مدرسة داخليّة. وأنا مطمئنّة عليه هناك. منذ متى لم تريه؟: منذ أدخلوني إلى هنا بعد أن قبض علينا بالجرم المشهود. عراة كما خلقنا الله، لا أريد أن أتحدّث عن هذه اللحظات القاسية. ولا عن الوسائل التي أخذوا بها إبني إلى المدرسة الداخلية. كانت كل الظروف تقودني إلى هنا. بدءاً من أوّل مرّة ارتمى بها أبي فوقي حتى هذه اللحظة، كأنّ أقدارنا مرسومة سلفاً على لوحها، لا نؤخر فيها ولا نقدّم، حتى أستاذ البكالوريا، نالني مقابل بضع علامات، بل أساتذة المدرسة كلّهم. كأنني منذورة للرجال دون أيّ اعتراض. وكأنّ كل الظروف كانت تقف ضدي. حتى أصبحت، أخيراً في هذا المصير المشؤوم.

أبو زهير هو الآخر، بامتلاكه سرّ العاشقين، استغلّ هذا السرّ أبشع استغلال. وضع حسناء أمام الأمر الواقع: «كلّ مرّة يزورك نبيل ويقضي ليلته عندك، لي مقابل ذلك ساعة أو أكثر بين أحضانك، وإلا أفشيت أمركما إلى مصطفى بيك». وجدت كاترين نفسها في مأزق حرج، وكان لا بدّ لها من القبول.. أليس أبو زهير مثل بقيّة الرجال الذين يختارونها لإشباع رغباتهم.. ليكن إذاً.. طالما يوفّر لهما الفرصة للقاء دون علم مصطفى بيك. العاشق الوحيد الذي لم يقرب جسدها، هو ذاك الذي يجلس أمامها ساعة أو ساعتين يروي لها متاعبه، وهي تقدّم له فنجان القهوة تلو الفنجان. تضطهده زوجته، لأنّه لم يعد قادراً على مرافقتها إلى

الفراش. حاول المستحيل، زار أطباء. سافر إلى أخصائيين، لكنّه ظل عنّيناً. مات كلّ شيء فيه. باتت حياته جحيماً، أصبح يرى نفسه مجرّ صنم من لحم ودم يدبّ على الأرض. خذلته زوجته، لم تطلب الطلاق، كما لم يعرض عليها الطلاق، في عقد الزواج، كل ما له يؤول إليها. كانت تمنّنه أنّها باقية على عصمته، تعيش معه، رغم حاجتها كأنثى إلى رجل يمنحها السعادة وتعيش معه حياة طبيعية، مقابل كلّ هذا، تتشاجر معه لأتفه الأسباب، لا ينامان في غرفة واحدة، أحياناً، عندما يمطرها بالهدايا، تترك له أن يعبث بجسدها كما يحلو له، فيصل إلى ذروة عذابه، لأنّ كلّ شيء فيه منطفىء كشمعة ذابت في صحنها. كانت كاترين تشفق على الرجل. تحاول أن تساعده. تقول له جرّب. تعال نم إلى جانبي، إفعل ما تشاء. يرفض. اعتاد أن يتفرّج فقط. لا يريد منها سوى الجلوس أمامه عارية، كأنّه يتعبّد هذا الجسد الجميل، ينظر إليه كمن ينظر إلى العذراء، هي، رغم عريها أمامه، تجلس بحشمة، كأنّها موديل تنتظر أن ينقلها رسّام بارع إلى لوحة زيتيّة، إذ سبق أن زارها مراراً، رسّام معروف لينقل جمالها إلى لوحة. رفضت في البداية، لا تريد أن ترى نفسها عارية داخل إطار، كان الفنان يلحّ، يؤكّد لها أنّ مستقبله كلّه يتعلّق بمثل هذه اللوحة، بعد إلحاح، وافقت، شرط أن يغيّر ملامحها ولون شعرها وعينيها. في الواقع لم يكن الفنّان يريد سوى جسداً عارياً بلا ملامح، كان يزورها باكراً أوّل الليل، تجلس أمامه ساعة أو ساعتين وهو يرسم ويعيد الرسم من جديد، ثمّ يعرض عليها مالاً فترفض. انتهت اللوحة، فانحنى الرسّام على يدها يقبّلها مثل أيّ سيّدة محترمة، ويغادرها، تاركاً في حلقها غصّة، لماذا هي محرومة أن تعيش كسيّدة محترمة، ينحني الناس على يدها احتراماً وتقديراً؟. جاءها الرسام ذات يوم يحمل لها أكبر باقة ورد شاهدتها، حتى عجز عن إدخالها من الباب، لفتت باقة الورد انتباه كلّ رفيقاتها اللواتي وقفن على أبواب غرفهن مدهوشات إزاء هذه الباقة الكبيرة، وحاسدات ضمناً، حتى إنّ واحدة كانت تعرف الرسّام عندما كان يرسم كاترين، همست لرفيقة لها: ما

أسعدها . . ها هو عاشق آخر يغمرها بأكبر باقة ورد . . وغداً يحمل لها الهدايا من كلّ صنف. لكنّ زيارة الرسّام هذه كانت الأخيرة لكاترين، وبعد أن وضع باقة الورد في زاوية الغرفة، سحب من جيبه صورة ملوّنة للوحة، وقدّمها لها وقد كتب خلفها العبارة التالية: إلى السيّدة الراقية حسناء . . . التي بجمالها الفذ شقّت لي الدرب إلى النجاح. ثمّ سألت الرسّام إن كان قد أطلق إسماً على اللوحة فقال لها: وردة النرجس. عندما روت حسناء القصّة لنبيل دهش: وردة النرجس، لا بدّ أنّها كانت هي ذاتها وردة المها كاشفة أسرار الناس، ومخبئة البعض الآخر. . أتراها كانت على صلة بوردة الرسّام . . أم إنّ الأرواح تتناسخ حتى بين الورود؟

إحتقرت كاترين الشرطي أبو زهير، الذي ظنّت به خيراً في البداية. وها هو يهين جسدها، يطأها مقابل السكوت على زيارة نبيل لها. رفعت له قيمة الرشوة مقابل عدم زيارته لها، وافق في البداية، ثمّ صار يطالب برفع قيمة المبلغ إلى أن صار خمس عشرة ليرة مقابل كل زيارة، إلا أنّه بين الحين والآخر يجيء كزبون، يجمع رشواتها له، ثم يقدّم لها مالها نفسه كي تسمح له بمعاشرتها. كلّ ذلك يهون أمام اللقاء بنبيل، لم يعد يهمّها ماذا يفعل بها بقيّة الرجال، تستسلم لأيّ واحد كدمية من المطاط، تغمض عينيها، وتترك لهؤلاء الذئاب العبث بها كيفما شاؤوا. وما إن تلتق بنبيل حتى تغلق الأبواب والنوافذ، وتفتح عينيها جيّداً، لتتأمّل هذا الفارس الذي باتت تحبّ كل شعرة فيه، تلامسه بأناملها، كأنّها ترى أمامها رجلاً مختلفاً. غالباً، تضاحكه، هل أنت من كوكب آخر. من مدينة خياليّة، من غير طينة البشر؟؟ تتساءل، لأنه وحده، تشعر بأنّه لا يغتصبها، بل إنّه يتعامل مع جسدها بحنان خاشع كأنّه يتعامل مع قدّيسة، يقبّلها، فتشعر أنّها قبلة من عاشق حقيقي، ينغمر جسده بجسدها، فتشعر كما لو أنّهما ملتحمان إلتحام الموج بالبحر. أغفلهما الزمن تماماً، حتى الشرطي أبو زهير ملّها، واكتفى بالرشوة مدّعياً أنّ عنده أولاداً، ومرتّبه لا يكفي. تصوّرت كاترين

أنّ باب السعادة قد انفتح أمامها على مصراعيه، وأنّ مستقبلها كلّه بات بين يدي هذا الحبيب الرائع، الذي يتسلّل ليلة بعد ليلة، ليمنحها الحب والدفء والأمان. . أصبحت حياتها كلّها انتظاراً لتلك الليالي. لم يكن نبيل يجيء كلّ ليلة، ليلة أو ليلتان في الأسبوع، فتمتنع كاترين عن استقبال أي إنسان. كان أبو زهير يعلن لنبيل اليوم التالي المخصّص لحراسته. فيجيء في اليوم الذي يحدّده. يجيء متأخّراً. في وقت، تكون نساء المبغى فيه كلّهنّ مشغولات، أو نائمات، يبقى عندها ساعتين أو أكثر، ومثلما دخل يخرج. أبوه كان مطمئناً. سأله مرات عدّة عن هذا السهر، فيقول له في السينما أو في مقهى الهافانا، أو مع أصدقاء في حمّام السوق، بعد ذلك كفّ عن الأسئلة. ما كان يخطر بباله غير ما يقوله له ابنه. نبيل نفسه اطمأنّ، كان يقول لحسناء، الحمد لله، إنْعَمَتْ عنّا العيون، لا بأس. لنمض كما نحن الآن، إلى أن ينعطف بنا القدر إنعطافة أخرى، لكنّ كاترين تذكّره بضرورة إيجاد خطّة يهربان بواسطتها إلى عالم آخر، عالم بعيد، لا يعرفهما فيه أحد. فيتذكّر شجاعة لمياء. وهي المرأة، كيف اتخذت قرارها وهربت مع حبيبها، مع أن عاصم مثله مثل كاترين، في السمعة سواء، بينما هو الرجل، جبان إلى حدّ لم يستطع اتخاذ قرار مشابه لقرار لمياء.

أين هي لمياء الآن؟

أبو نبيل يتمنى العثور عليها، لا ليذبحها كما كان يتوقّع، بل ليحتويها من جديد، ويلوم نفسه أشدّ اللوم، كيف تتخلّى العائلة عن امرأة تزوّجت رجلها كما يقول الشرع، فصار يبحث عنها هنا وهناك، مثلما كان أفراد العائلة كلّهم، إلاّ إن الرجل الوحيد الذي يستطيع العثور عليها هو مصطفى بيك. . وهذا ما يسعى إليه أخيراً أبو نبيل، فوضع مصطفى بيك عيوناً هنا وهناك، وخصوصاً على أهل عاصم. إخوته وأمّه، وبقية أفراد العائلة، الأم بالذات، هي أخيراً كشفت مكان لمياء. كانت مراقبة عندما امتطت الباص المتوجّه إلى حلب، وكان الذي يراقبها قد جلس إلى جانبها تماماً،

ومن كلام إلى كلام، عرف أنّها ذاهبة لزيارة ابنها المتزوّج وزوجته المقيمة معه. ادّعى الرجل أنّه صاحب شركة تجارية، فسألته إن كان يستطيع إيجاد عمل لابنها، فزوجته حامل في شهرها الأول، وهي التي تعمل معلّمة في مدرسة حضانة، وعندما تنجب. يصبح من الضروري أن تتفرّغ لمولودها.
هذا صحيح يا سيدتي، فما اعتدنا أن تعمل المرأة ويبقى الرجل بلا عمل. هذا أكبر عيب في حياتنا. وساعدها على حمل السلال حتى البيت المقصود، ثمّ أعطاها عنواناً كاذباً وعاد إلى دمشق.

تملّك الرعب لمياء، عندما دُقّ الباب فإذا بها وجهاً لوجه أمام خالها أبو نبيل. شهقت. كادت ترتدّ إلى الداخل. وتغلق الباب، تحسّست عنقها عندما خطت إلى الوراء خطوة غير متزنة، فسقطت مترنّحة على الأرض، نظرت إلى يدي أبو نبيل، وإلى وسطه، حيث كان يضع خنجره دائماً، صاحت: لا.. لا يا خالو.. أرجوك.. لكنّ أبو نبيل انحنى على ابنة أخته بحنان وساعدها على الوقوف، لمحت في عينيه حباً حقيقياً، فانحنت على يده تقبّلها، وهي تردّد: تزوّجنا على سنّة الله ورسوله يا خال.. على سنّة الله ورسوله والله العظيم. خطا أبو نبيل إلى الداخل وهو يربت على كتفها، طلب فنجان قهوة ليرتاح قليلاً من وعثاء السفر. لم تطمئن لمياء. توجّست خيفة، هل يسايرها وبعد ذلك يجزّ عنقها؟. ما بدا على أبو نبيل غير ذلك تماماً، فقد جلس على أوّل مقعد في باحة البيت وهو يردّد: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

اطمأنّت لمياء فأسرعت تصنع لخالها فنجان قهوته، وما إن رشف فيه قليلاً حتى قال لها: لم تنس قهوة خالك يا ابنتي.. قالت: ولو يا خالي.. أنا أشربها على طريقتك أيضاً. سكّر خفيف.. مغليّة جيّداً. الله يرضى عليك قال لها. صمت قليلاً ثمّ تابع: ستعودين إلى الشام يا لمياء. المهم أن

أجتمع بعاصم . . أين هو؟ قالت : ربّما في المقهى القريب من قلعة حلب، اسمه مقهى القلعة .

صمت الرجل، أخذ يشرب قهوته على مهل وهو ينظر بعطف كبير إلى لمياء، كان التعب بادياً عليها، وجهها أقرب إلى الصفرة . . قال لها :

ـ أنت متعبة كثيراً يا ابنتي .

ابتسمت لمياء، ثمّ وضعت راحة يدها على بطنها تمسّده بشكل دائري . سأل بدهشة :

ـ هل أنت حامل؟

رفعت سبابتها عالياً .

ـ من أسبوعين .

ـ لا يا خالي . . من شهر . .

ـ الحمد لله . . الحمد لله . . إن شاء الله تضعين بخير . وبالشام يا ابنتي قريباً مني ومن أهلك . . الحمد لله . . الحمد لله الذي دلّنا عليك وعرفنا أين أنت . . ما كنت أتصوّر أن تضعي مولودك ونحن بعيدون عنك . . الحمد لله . . الحد لله . . سكت قليلاً ثمّ سألها :

ـ زوجك . . هل يعمل؟

ـ لم يجد عملاً بعد يا خالي .

ـ على خير . . أنا وجدت لك منزلاً خاصاً قريباً من بيتنا . سنساعدك جميعاً على الإستقرار إلى جانب عائلتك . ولا بد أن نجد عملاً لزوجك .

ـ الله يخليلنياك يا خالي . . أنت سيد العائلة وحاميها . والله با خال كنت أدرك أن يوماً سيأتي، وتعيدني فيه إلى ظلّك . كانت حياتي عند أهلي جحيماً، سميرة تكرهني وتغار مني بسبب أو بدون سبب . خالتي أم وحيد الله يرحمها، كانت جحيماً آخر . أنت الأعرف يا خالي . هذا زوجي أحببته، وأنا أحمل جنينه الآن، يحبّني هو الآخر . ويبذل المستحيل كي

أكون سعيدة. أعرف أنّ حظّه سيء، ربما ماضيه يؤثّر على حاضره، فلا يعثر على عمل معقول، وأهله، رغم أنّهم كلّهم أغنياء، لم يقرروا إلى الآن مساعدته، لقد علمت أنّهم تبرأوا منه، وهذا جعلني أقف إلى جانبه. لن أخذله يا خال، ولو عشنا على الخبزة والبصلة.

ـ ونحن أيضاً لن نخذلك يا ابنتي.. هيا، ضبي أغراضك، واستعدي للعودة إلى الشام مع زوجك.. سأتركك الآن.. هناك من ينتظرني عند صديق لي تاجر حلبي، سنعود إلى الشام.. وتلحقيني مع زوجك خلال الأيام القليلة المقبلة.

ـ ألا تبات عندنا؟

ـ لا.. قلت لك أنا على موعد مع أصدقاء، وسنعود معاً إلى الشام.

وقف، فأسرعت لمياء تقبّل يده وتكرّر شكرها له، فضمّها إلى صدره هامساً:

ـ هل كنت تتصوّرين أننا سنتخلى عنك؟!

ـ ومن لي غيرك يا خالي؟. كنت دائماً تقف إلى جانبي. ولن أنس ما حييت عندما ارتكبت تلك الخطيئة، التي كانت طيش صبا. الحمد لله أنها كانت مع ابنك، وليس مع سواه.

أطرق أبو نبيل خجلاً، كأنّه هو الإبن. وهو مرتكب تلك الخطيئة الجميلة. أما لمياء الذكية أو الخبيثة، فقد أرادت في هذه اللفتة أن تجعل خالها أكثر حناناً نحوها، خصوصاً وأنّه قادر فعلاً على ترتيب حياتها من جديد في الشام، فروى لها وهو مطرق، دفاع نبيل عنها، وكيف ذكّره، من خلالها، بعذابات بناته في بيوت أزواجهن وتعاستهن اليومية. فأكّدت لمياء ذلك قائلة: إنهن يعشن حياة مريرة يا خال.. وأوّل ما خطر ببالي أن أبذل المستحيل كي لا أذهب إلى رجل لا أحبّه. بناتك تعيسات، وكنّ الإنذار بالنسبة لي: إما القبول بوحيد لأعيش معه تعاستي إلى الأبد. أو الذهاب إلى الأبعد، أعيش مع رجل أحبّه ويحبني.

يضحك أبو نبيل من هذه التعابير، التي ما كانت تتجرأ على التفوّه بها، أي بنت من بنات الشام. . .

ـ تمرّدت على الجميع. . حتى على خالك يا ملعونة.

ـ لم أتمرّد. . إستعملت حقي على نفسي. . وعلى جسدي. . من يمتلكني يا خال غيري أنا؟ أنا صاحبة هذه الرأس. وتضع يدها على رأسها، هذا الجسد (وتمرّر راحتها على جسدها) وهذه القامة (وتشير من أعلى إلى أسفل). . ليس لكم إلا النصح. وفي النهاية اخترت مصيري بنفسي، أنا المسؤولة عنه الآن. كنت أعرف أنك في النهاية. لن تخذلني يا خال. . أنت بالذات. جميع العائلة تركوا مصائرهم بين يديك. هم أحرار، طالما أنهم قبلوا بذلك. ولكن أرجوك يا خالي، فكّر ألف مرّة قبل أن تدفع أحداً منهم إلى مصير إخترته أنت له، ها هنّ بناتك خير مثال، تعيسات، حزينات، وبين أيدي رجال، لا يرون في المرأة سوى حضناً لشهواتهم، وخادمات لهم، لا ينمن قبل أن يناموا، ويستيقظن قبل أن يستيقظوا، إنّه الظلم بأبشع صوره يا خالي.

ينصت أبو نبيل، ليس بأذنيه وحسب، بل بقلبه وضميره. ويستغرب في لمياء هذا الوعي الذي يجهله أصلاً. لكنّه يستدرك: المهم يا ابنتي أن تعيشي سعادتك الآن، وأن يتحرّر زوجك من ماضيه، ليطلب الغفران من ربّه. ونطلبه له أيضاً.

ـ إنّه يفعل يا خال. . كلّ ماضٍ ذهب إلى غير رجعة. . فلنعطه فرصة أخرى مختلفة في الحياة.

لم يخلف أبو نبيل وعده، إذ إنّه فيما بعد، أصرّ على صديق له في الحي، استحدث من بيته الكبير، بيتاً صغيراً بباب منفرد، أن يؤجّره إياه لإقامة لمياء وزوجها: أريد يا أبو العز أن تكون إبنة أختي قريبة مني، فقال له: على العين والراس يا أبو نبيل، أطلب وعلينا أن ننفّذ، أنت قرّة عين هذا الحي وفخره، والله لا آخذ أجرة منك. . إذا تحسّنت أحوال إبنة أختك، نقرّر الأجرة أما منك، فلن أتقاضى قرشاً واحداً، لك أفضال علينا جميعاً يا أبو نبيل، بل إنني أفتخر من كل قلبي، أن تكون السيدة لمياء جارة لي وأنا أعرف ويعرف الجميع أنها مثل ابنتك. فعلى الرحب والسعة يا رجل.

لا يعرف أحد سرّ هذا الإهتمام من أبو نبيل. وردة النرجس وحدها تدخل أعماق هذا الرجل فتعرف ما يشعل فيه كالوهج. ذاك السر الذي يحاول أن يتجاهله دائماً، نور قوي وجميل أنّى له أن يشيح النفس عنه؛ ألم تكن لمياء أوّل من شرعت جسدها الجميل لإبنه الوحيد قرّة عينه ووريث إسمه؟! نبيل الذي صار رجلاً قد الدنيا، ناجحاً في إدارة المحل أكثر منه ألف مرّة. فبعد أربعين عاماً من الوقوف على قدمين عشر ساعات يومياً بين البيع والشراء، ها هو نبيل يعطي أباه فسحة جميلة من الوقت ليرتاح. كان أبو نبيل يضحك على نفسه، عندما يحاول تجاهل السبب لهذا الحب الذي يكنّه للمياء. ثمّ تحضر صورة المشهد الأخير، لمياء ونبيل عاريان أمامه وأمام

العمّة التي رحمها الله بالموت. ورحم لمياء من سلاطة لسانها. وها هي لمياء الحامل وزوجها بجوار بيت خالها. هذا البيت الذي ولدت فيه ونمت وترعرعت وعادت إليه. ولو بجواره، بعد غربتين، غربة الإنتقال إلى بيت آخر وغرُبة الهروب بحبّها الجميل إلى حلب. لمياء في ذروة سعادتها الآن. بعد أن تخفّت أشهراً طويلة، وهي تظنّ أنّ خالها بالذات، إذا عثر عليها، لذبحها من الوريد إلى الوريد. فإذا به يظهر لها إنساناً حقيقياً، يحميها من كلّ أذى من أخيها أو أبيها، أو من أي فرد من العائلة، خالها الذي كان ضد زواجها. هو نفسه، حاميها الآن. لكنّ الأمور لا تذهب دائماً نحو الأمل، والفرح، والسعادة، والإستقرار. يتدخّل القدر ليقلب العيش السعيد نكداً، هنا أو هناك، ليس كل الناس مرتاحين. والسعادة قصيرة العمر دائماً، إنّها كعمر الوردة، أو الفراشة. ثمّ يجيء الحزن. الحزن مقيم منذ الأزل، تقول النرجس، بينما الفرح زائل، زائل بسرعة البرق، يلتمع، ثمّ ينطفىء. فقد أقسم مصطفى بيك أمام نبيل أنّه سيقول لأبيه عن تردّده على تلك العاهرة، التي اسمها حسناء:

ـ يا مصطفى بيك.. إنني أحبّها.

يصرخ في وجهه:

ـ تحبّها! هذه امرأة يطأها الرجال كلّ يوم. وتقول لي إنّك تحبّها.. هل أنت مجنون. تبيع جسدها بالمال. وتضحك على هذا وذاك. وأنت تزورها وتعرف قبل ذلك، أنّ جسدها كان تحت ذاك الرجل أو هذا... وتقول لي إنّك تحبّها. حسناء، وكلّ رفيقاتها من العاهرات، كُتب عليهنّ أن يمتن في هذه المهنة القذرة. وتقول لي بملء الصوت.. إنّك تحبّها؟

ـ يا سيدي.. لو أتيح لواحدة منهنّ أن تتوب.. هل تمنع عليها ذلك؟

ـ كلّهنّ كاذبات.. إسألني أنا. عشرات أعدتهنّ إلى هنا، بعد أن أعلنّ توبتهنّ وتزوّجن من رجال تخلّوا عنهن فيما بعد.

ـ لكن يا مصطفى بيك لا بدّ أن تنجو واحدة بالتوبة إلى الأبد.

ـ من تظنّ هذه الواحدة. . حسناء! كاترين حنا! إسمع، لي في هذه الوظيفة عشرون سنة، أعرفهن الواحدة تلو الأخرى. دائماً، أطالب المسؤولين أن يغلقوا هذا المبغى ويطردوا من فيه إلى الأبد. لكنّ الوزير، وكلّ وزير يجيء بعده، يقول الأفضل أن نحصرهن في مكان واحد، ليتسنّى لنا مراقبتهن صحياً واجتماعياً، عوض أن يسرحن ويمرحن. . تقول لي إنّك تحبّها. . ماذا بعد الحب؟ هل تتزوّجها. وهي أكبر منك، ولها إبن حملته بعار أبيها، نحن أخذنا هذا الطفل، إلى ملجأ للأطفال ممنوع عليها رؤيته، كان الرجل الذي جعل من بيته مكاناً للدعارة والقمار، وتزوّجته على يد شخص كاذب إدّعى أنّه شيخ. قدناه إلى السجن، وحكم بخمسة عشر عاماً مع الأشغال؛ أنقذنا الطفل منهما، وأودعناه ملجأ للأيتام، وأظنّ أنّ عائلة محرومة من الأولاد قد تبنّته.

يقاطعه نبيل: لكنّ حسناء تقول أنّه في مدرسة داخلية في برمانا.

ـ إنّها تكذب عليك. . ولا تعرف أين هو ابنها. أبلغنا السلطات اللبنانية بقصتّها مع أبيها. وعندما ذهبوا للقبض عليه وجدوا أنفسهم في جنازته. مات الكلب إلى جهنّم.

ـ يا سيّدي. . وما ذنبها هي؟

ـ طلّعت خلقي يا نبيل. . لا شكّ أنّك مجنون. . إن لم يمنعك أبوك. أنا سأمنعك. . أنت مثل إبني. ولن أسمح لك أن تسقط في هذه الحفرة الآسنة، أنذرك للمرّة الأخيرة. . أو أقول لأبيك كلّ شيء. هذا صاحبك أسامة أشطر منك. . هل تظنّ أنني لا أعرف كلّ شيء عنه. يستغلّ شهيرة. وتعطيه بلا حساب. أسأله. . هل سيتزوّجها؟ بالتأكيد لا. تبادل الخواتم الذهبية لعبة يلعبونها هنا. ويعلنان زواجهما. . إنّما لعبة من لعب وتقاليد هذا المكان الفاجر. ظننت في البداية أنّ علاقتك بحسناء، مثل علاقة أسامة بشهيرة، لعبة أخرى تتسلى بها. قلت في نفسي أتركك زمناً، شهراً أو شهرين ثمّ تملّ وتنسحب. وها أنت تقول لي الآن إنّك تحبّها. . ومن هو هذا

الشاب الذي يدّعي أنّه يحبّها؟ إنّه نبيل. نبيل إبن أبو نبيل زعيم الحي وقبضاي الشام، الثائر الذي لم يخرج من جسمه رصاص الذين قاتلهم، وتريد أن تشوّه سمعته.. إذا لم ترحم نفسك. إرحم أباك.. هل تريد أن يلغط الناس بك وبه: إبن أبو نبيل يتزوّج عاهرة!! إلى أين أنت ذاهب. خنت العهد الذي تعاهدنا عليه، أنقذتك من أن تدخل باسمك وبصماتك «فيش» الأمن العام.. ووعدتني أن تكفّ. فإذا بك تتسلّل من جديد، وترمي نفسك في أحضانها. يصمت مصطفى النمر ليلتقط أنفاسه الهائجة ثمّ يصرخ بغضب:

- قل لي.. ماذا أنت فاعل؟

استيقظ نبيل على حالة، إذا لم يتحاشاها دخل نفق الخطر. كلّ ما قاله مصطفى النمر صحيح. ونبيل يحبّ أباه أكثر من كونه أباه، إنّه صديق العمر، بين يديه نشأ أكثر من كونه نشأ بين يدي أمّه. منذ كان طفلاً يحمله على كتفيه إلى أي مكان يذهب، يأخذه إلى المدرسة بنفسه، ويعيده إلى البيت بنفسه. كان يعلّمه كيف يطلق الرصاص من المسدّس. كيف يلعب بالسيف والترس، كان يصطحبه إلى المقهى، ليسمع ما يرويه الحكواتي من قصص معبّرة جميلة عن عنترة بن شداد، والمهلهل.. وسيف بن ذي يزن، أو إلى مقاه أخرى، ليشاهد ألعاب دمى كركوز وعيواظ على شاشة بيضاء يقف خلفها أبو أحمد ليروي مقالب هذين النجمين الكرتونيين. يكنّ نبيل لأبيه الحبّ العظيم، يخشى دائماً أن يكون قلب أمّه لغيره، وإلا إلى من كانت تلك القبلة الطائرة؟! قبلة، عبر سطح المنزل، إلى مكان مجهول، لماذا لم يتجرأ إلى الآن على أن يسألها، وهو في هذا العمر، حيث يواجه مصيراً لا يعرف إلى أين يقوده؛ يتذكّر.. في كلّ مرّة أراد أن يفهم هذه الأسرار من وردة الترجس، تضبّ أوراقها وتنحسر داخل الكتاب. تبوح بما تريد، ولا تبوح. ثمّ يجد نفسه يُسائل نفسه وأنت الآن في هذا الحب المحرّم عليك هل تستمر؟!

يكزّ نبيل على أسنانه. بينما مصطفى يحدّق نحوه بغضب:

ـ نعم.. ماذا قررت؟

ـ دعني أفكّر.

ـ وهل هذه الحكاية بحاجة إلى تفكير.. للمرّة الأخيرة أنذرك، سأمنعك من دخول هذا المكان.

يفلت نبيل من بين يدي مصطفى النمر، الساعة الحادية عشر ليلاً، يمشي متباطئاً خارج المبنى، يفكّر بمصير حسناء، يدرك أنّها محكومة إلى الأبد في هذا السجن، تتراكض الأيام والسنون، يراها مصابة بالسل وتموت، يراها مشرّدة في الشوارع تمدّ يدها للناس، يراها خادماً في منزل أحد الأثرياء، يراها تبحث عن إبنها، أخيها، ولا تجد له أثراً، يراها مجنونة هبلاء يركض خلفها الأولاد، يراها أخيراً ميتة على الرصيف، فيصرخ بملء صوته: هل هذه عدالتك يا رب؟ ألم يكفها ما أصابها حتى الآن؟ كيف يتزوّج الأستاذ مومساً ويستر عليها، وأنا لا أستطيع. لا.. ليس هذا عدلاً.. ليس هذا عدلاً. يمشي.. ويمشي وهو يهلوس، ويؤشّر بيديه ويسأل ألف سؤال ولا يجد إلاّ جواباً واحداً، ليس هناك من هو أشدّ عذاباً من هذه المرأة.. كيف ننقذها يا رب.. كيف..؟

وفيما كان نبيل يتّخذ طريقه نحو ساحة الأمويين. إذ برجل ينبري له من خلف عمود الكهرباء مهاجماً إيّاه، يتحاشاه بسرعة، إنتبه إلى أن يد الرجل تحمل سكيناً وأنّه يحاول طعنه في القلب تماماً، إلا أنّه ينحرف بعيداً، فتصطدم كتفه بنصل السكين الحاد، الذي ينغرس فيه بجرح خفيف، ثمّ يولي الرجل الأدبار.. لم يستطع نبيل اللحاق به، إذ إختفى في عتمة الليل دون أن يدرك نبيل في أي اتجاه، كان مشغولاً بجرحه، خيّل له وهو يسدّ الجرح براحته أنه رأى ذلك الرجل من قبل، إنّه نفسه، الذي يتردّد على حسناء، ويجلس قبالتها متعبّداً. وتساءل نبيل: لماذا أراد طعنه؟ كان كلّما التقى به يعامله بود ويجالسه ويتباسط معه الحديث، هل هو؟ أم أنّه رجل

آخر؟ لا شك أنّه رجل آخر. إذا كان هو.. لماذا يحقد عليه. وليس على سواه من زوار حسناء؟ كان الجرح ينزف ببطء. قال نبيل في نفسه: لو لم أنتبه وأتفاداه، لكانت الطعنة في القلب؛ هل كان يودّ قتله حقاً، أم أنّه مجرّد تهديد؟ داهمته الحيرة، ولم يجد مبرراً لكل الذي حصل.

أوقف سيارة أجرة وطلب من السائق أخذه إلى طوارىء مستشفى المواساة. هناك، وبعد أن عالج الممرّض الجرح، سأله إن كان يريد تسجيل الحادثة والإدعاء على أحد. قال: لا.. لا أريد. هذا صديق لي حاول ممازحتي.. فقال الممرّض: حقاً إنّه صديق غليظ القلب.. وهل الممازحة بالسكين أيضاً؟!

تسلّل نبيل إلى بيته، إلى غرفته الصغيرة بالذات، غرفته التي لا يزاحمه فيها أحد، ولا يشاركه أفكاره فيها أحد.. هذه الغرفة الأثيرة إلى قلبه، والتي رفض التخلّي عنها رغم أنّ غرفاً كثيرة فرغت بعد وفاة الجدّة والعمّة وزواج العمّة الصغرى وانتقال وحيد وأخته المعوّقة إلى بيت في ظاهر المدينة وزواجه فيه.. لم يعد في هذا البيت الشاسع الواسع أحد غير أبيه وأمّه وهو.. وذات مرّة لّمح لأبيه لو ينقل لمياء وزوجها إليه، نظر أبو نبيل في وجه إبنه نظرة ذات معنى، أدرك نبيل على الفور ماذا كانت تعني.. لكنّ الأب قال له: الزوجة تفضّل أن يكون لها بيتها الخاص.

غرفتا أم وحيد فتحهما أبو نبيل على بعضهما، وجعلهما صالوناً كبيراً يستقبل فيه زوّاره، خصوصاً أيام الإنتخابات النيابيّة، فأبو نبيل أحد أبرز زعماء الأحياء الذين يعتمد عليهم الحزب الوطني في موسم الإنتخابات. يحدّق نبيل في سقف الغرفة وهو مضطرب، يرتجف دون توقّف. كانت هذه الليلة ليلة قاسية عليه، كان عند حسناء. عندما يزورها تغلق الباب دون الآخرين ولا تستقبل غيره. كانا في ذروة عشقهما، تلتحم، كأنّها تريد أن تندمج فيه لحماً وعظماً ودماً وأعصاباً، تهمس: ياليتنا نصبح مخلوقاً واحداً.. تتمنّى، وتردّد كلمات تدخل قلب نبيل، فيشتعل بها توهّجاً.

تهمس: يا رب أمتني وأنا بين ذراعيه، أمتني سعيدة وقبلتي على فمه، فيضاحكها: والله إنّه لموت جميل. وأنا أشتهي أن أموت بين ذراعيك الآن. لنمت معاً إذاً... دعينا من الموت الآن يا حبيبتي. لنعش لحظتنا، فما ندري ماذا يخبىء لنا القدر في اللحظة التالية. . لا . . لن يخبىء لي إلاّ السعادة. كفى . . كفى ما أعطاني من العذاب والشقاء . . وإلا . . فليس هناك عدالة في السماء، أما آن لي أن أحيا حياة أخرى، جميلة، في مكان ما تحت الشمس، في أقصى الأرض، أنا وإياك على وسادة واحدة، لا أريد أي مجد أو مال أو غنى. لا أريد سواك يا نبيل. أنت مناي، حبيبي وروحي التي بها أعيش. أعيش معك دون أي طموح. المهم أن أكون معك، أدير بالي عليك، أنجب أولاداً يعيشون معنا أجمل أيام حياتهم. لست أريد أكثر من ذلك. فهل يتحقق هذا الأمل؟ هل نذهب بعيداً عن هؤلاء الذين أهانوا جسدي بأموالهم. أريد أن أذهب بعيداً عن كلّ هؤلاء الذين ينظرون إليّ ولا يرون فيّ سوى وعاء لإفراغ شهواتهم الدنيئة! أرجو من الله أن يتحقق هذا الحلم.

«أيّ حلم هذا ومصطفى النمر يقف لنا بالمرصاد، وها هو يهدّدني بإفشاء الأمر إلى أبي ما لم أرتدع وأبتعد، ثمّ يجيء هذا العاشق المجنون يحاول قتلي . . إلى أين تقود نفسك يا نبيل . . إلى أين؟».

لا يعرف، إذا كان قد نام تلك الليلة، داهمته كوابيس غير متجانسة، خليط من الصور الغامضة التي لا تفسير لها، وكان في كلّ مرّة يستيقظ لاهثاً، كأنّ عشرات الذئاب تطارده في غابات شاسعة، وفي كلّ إغفاءة، يمسح وجهها عنه إعياء هذه الكوابيس، ثمّ سرعان ما ينسحب، ليتركه مع كابوس شديد الوطأة على القلب.

استيقظ صباحاً متأخراً على يد والده تهزّه، فتح عينيه ليجد أباه يحدّق إلى الجرح:

ـ ما هذا؟

ـ لا شيء يا أبي لا شيء.

يصرخ أبو نبيل:

ـ قل لي من اعتدى عليك.. أين كنت.. من ضربك؟

ـ لا أحد.

ـ أتنكر.. هذا الجرح المضمّد فوق كتفك.. وتنكر!

ـ أحد رفاقي كان يمزح معي.

ـ يمازحك! وهل المزاح بالخنجر؟ لا تخفي عليّ شيئاً، قل الحقيقة.. أريد أن أعرف من أذاك.

ـ يا أبي.. قلت لك مجرّد مداعبة..

ـ أيّ مداعبة هذه.. وهذا الرباط الأبيض رباط مستشفى. يعني أن الجرح كبير.. وتقول لي مداعبة!

أراد نبيل أن يتخلّص من إلحاح أبيه فاضطرّ إلى الكذب:

ـ في الحقيقة تشاجرت مع عابر طريق. كان ثملاً. اصطدم بي، فقلت له إنتبه يا حمار ـ بعيد عنك ـ فما كان منه إلاّ أن شهر سكينه وحاول طعني.. رددته بسرعة فمسحت سكينه كتفي بجرح بسيط.

ـ أتكذب عليّ؟

ـ لا أكذب.

ـ هل تعرفه؟

ـ لم أره في حياتي.

ـ في أيّ مكان كنت؟

ـ كنت مقبلاً من مقهى الهافانا، حيث كنا نلعب النرد، وكان الوقت ليلاً. عندما اصطدمت بالرجل قريباً من شارع الصالحية، ضربني وهرب،

ولم ألحق به، لأنني فضّلت الذهاب إلى طوارىء المستشفى وأعالج جرحي.

- يا جبان.. تركته يهرب.. أما كان بإمكانك الإمساك به طالما هو سكران؟

- لا أحبّ المشاكل يا أبي.

- تقول مشاكل.. هذا إنسان اعتدى عليك. وكان يمكن أن يقتلك.. بل كان عليك أن تردّ له الصاع صاعين.

- هل تريدني أن أطعنه وأنا لا أحمل شفرة في جيبي؟.

- من الآن وصاعداً ستحمل خنجراً. وتكون مستعداً لأي اعتداء من أيّ إنسان.. أنت إبن أبو نبيل.. ما استطاع أيّ إنسان أن يرفع يده في وجهي إلاّ قطعتها.. يطعنك، وتتركه يهرب.. ما أجبنك..

- خلص يا أبي.. يللي راح راح.. أرجوك.

كان أبو نبيل في غضب شديد وهو يتأمّل إبنه وقد ضمّد جزءاً من كتفه. إستند إلى الجدار، وسحب سيكارة. أشعلها، راح يدخّنها بعصبيّة وشراهة، كأنّه يفشّ خلقه بها. عندما انتهى منها التفت إلى ابنه:

- لن تذهب إلى المحل اليوم.. إرتح.. أنا أذهب إليه.

- لا يا أبي.. الجرح بسيط ولا أتألّم منه. عندما أرتدي القميص والجاكيت لا ينتبه إليه أحد.

- ليس هذا المقصود، يبدو لي من وجهك أنّك قضيت ليلة متعبة. إياك أن تخفي عني شيئاً.. هل تذهب إلى أمكنة لا يرضاها الله؟.. قل الحقيقة!

- إلى أين يذهب خيالك يا أبي.. هل هذا معقول.. إلى المقهى فقط.

- أخشى أن يعلّمك «ولاد آدو»[1] ما أخشاه.

(١) ولاد آدو: أي أبناء الأزقة الذين لا تربية لهم.

ـ يا أبي . . أنت ربيتني، وأنا على مثالك .

ـ الله يرضى عليك . . المهم أن لا تسيء إلى سمعتي وسمعة العائلة . .

ـ ثق بي .

ـ على كلّ حال جئت أقول لك إنني وجدت عملاً لعاصم زوج لمياء، في مخزن الورق الذي يملكه صاحبنا أبو صياح . . هل تذكره؟

ـ طبعاً .

ـ لن يكون عمله سوى الإشراف على بيع مواعين الورق . وهو، كما عرفت من لمياء، يجيد مهنة المحاسبة . هذه الوظيفة تليق به، لقد التقينا معاً بناء على طلبي، جاءني على فنجان قهوة، كلّمته بطريقة مهذّبة عن ماضيه، قلت له إننا نعرف كلّ شيء عنه، وآن له الآن أن يحسّن سمعته، وأن يهتم بزوجته ووليده المقبل . هدّدته بطريقة غير مباشرة، إذا سمعت عنه أيّ سوء، أقتله، وأحسب أنّ الله لم يخلقه . وعدني خيراً، وقال لي إنّه هو أيضاً خجل من ماضيه، وإن شاء الله سيحرص الآن على السمعة الطيّبة . ولكن يا إبني نبيل . سيظلّ ماضيه ملطّخاً في جبينه، وعلينا مساعدته، لا من أجله . . بل من أجل لمياء وسعادتها، أرجو من الله أن يكون عند حسن ظني، كما حذّرته من أي تلاعب مع أبو صياح، وإلا يكون عقابه عقابين . وأقسم الرجل أنّه لن يخيّب رجائي أبداً .

ـ كثّر خيرك يا أبي . . لمياء تستحقّ منّا كل الخير . . إنّها ابنة أختك الكبرى . .

ـ وأختك بالرضاع يا نبيل . . هل عرفت ذلك؟

ـ سمعت مثل هذا الكلام .

ـ إنّه كلام حقيقي . . رضعت من أمّك ذات يوم .

غمز أبو نبيل ابنه مبتسماً : ثمّ إنّك تعرف يا ملعون سبب اهتمامي بها . كلّ من يحبّك أُحبّه .

ـ هل صحيح هذا الكلام؟

ـ طبعاً. . وهل هذا بحاجة إلى سؤال؟

ـ يعني أي إنسان. . أي إنسانة بالأحرى؟

ـ لم أفهم. . ماذا تعني يا نبيل؟

ـ أعني لو أنّ امرأة أحبّتني. ثمّ وجدت سمعتها سيّئة. .

ـ أسكت. . أسكت. كلّ شيء إلاّ هذه. . سمعة رجل سيئة، عال، أما امرأة سيئة السمعة. . أقتلك ولا أقبل ذلك.

ـ معاذ الله يا أبي. . معاذ الله.

ـ لماذا هذا السؤال إذاً؟ النساء سيئات السمعة، الأجدر بنا قتلهنّ دون رحمة، دعني الآن من هذا الحديث. هل تذهب إلى المحل. . أم أذهب أنا؟

ـ لا. . أنا سأذهب. . لم تعد تعرف شيئاً عن المحل. أترك هذا الموضوع لي وارتح. المهم أن تكون مرتاحاً يا أبي. اترك العبء على الشبان.

في طريقه إلى المحل. شعر نبيل بالقلق. . ماذا لو عرف أبوه من هي هذه المرأة التي يحبّها؛ ماذا لو أمسك به مصطفى النمر مرّة ثالثة يتسلّل إلى حسناء، هل ينقل الخبر إلى أبيه؟! لقد نال أبو زهير أقسى العقاب، بعد أن عرف مصطفى النمرخبر الرشوة واستخدام نفوذه في معاشرة حسناء. صُرف من الوظيفة وأُحيل إلى المحاكمة، ومصطفى النمر، بما يملك من قوّة ونفوذ، يلاحق هذه القضية، ليجعل، كما كان يقول، من أبو زهير عبرة لمن اعتبر. كيف السبيل بعد ذلك للوصول إلى كاترين: «لن أستطيع التخلّي عنها، إنّها معجونة بي وأنا معجون بها. بل أنا وإياها واحد. فكيف ننفصل؟» يحاول نبيل تناسي قلقه. . المهم أن لا يعلم والده شيئاً من هذه المأساة، أما مصطفى النمر فما هي الطريقة لإرضائه؟ إذا كان يتقبّل رشاوى فلماذا لا أرشوه؟ لا بدّ سيطلب مبلغاً كبيراً. ها هي غلّة المحل بيدي، أستطيع أن أسحب منها ما أشاء دون أن يشعر أبي بذلك. . قال هذه الفكرة لأسامة. فبدا أسامة أكثر عقلانية منه:

- شو مجنون إنت. تأخذ من مال أبيك لترشو صديقه؟

- كيف نأمن شرّه إذاً؟

- لا أدري. .

- زر حسناء. . قل لها أن تمسك خيوط الرشوة الأخرى التي قلت إنّه يتقاضاها، إذا أقنعته برشوة منها. . قد يغضّ النظر ويتركني أزورها.

- أنت تفكّر كالأطفال. . هل هذا الذي تقوله معقولاً، ترشوه من بيع جسدها لتلتقي بك، وهل تتصوّر أنّ مصطفى النمر بلا ضمير إلى هذا الحد؟ قد يتقاضى رشاوى دون أن تؤذي سمعته، أما أن يأخذ من حسناء ليسمح لك بزيارتها، فما هو الفرق بينه وبين أبو زهير. . أو بينه وبين القوادين الذين يحرسون أبواب المومسات؟ .

- إنني في حيرة يا أسامة. . لم أعد أستطيع فراق حسناء.

- ليس أمامنا سوى إيجاد طريقة أخرى للتسلّل. . دعني أفكّر بها. . أمّا الآن، فما عليك سوى الرضوخ لأوامره، وإلا وقعنا في مأزق نحن في غنى عنه.

إلا إن مصطفى النمر ظلّ بالمرصاد، بل شدّد على رجال المخفر بعدم السماح لنبيل بالدخول في أي وقت، وأرسل إلى كاترين من يقول لها إنه سيخرجها من البلد إن استقبلت نبيل. ورغم توسّلاتها ودموعها، لم يستمع لها أحد، فسمعة إبن المجاهد أبو نبيل فوق كلّ رجاء. . بل إنّ هذا التهديد نال أسامة أيضاً، عندما قال له مصطفى النمر: ألا تكف عن زيارة الروبير. . أما شبعت جنساً ومالاً، ألا تعرف أنّ القانون يطالك وأنت تبتزّ إمرأة مسكينة بادّعائك أنّك تحبّها؟ تزرع في رأسها أحلاماً، وتدّعي أنك زوجها؛ أبوك من علية القوم وأنت من أسرة معروفة، فهل ترضى أن تضع سمعتها في الحضيض؟

لم يستطع أسامة أن يدافع عن نفسه، فأقوال مصطفى النمر مقنعة لكلّ من يستمع إليه. يصمت مطرقاً، ثمّ يرفع رأسه: إنّها نزوة شباب مصطفى بيك.

ـ ألم تبرد هذه النزوة.. ألم تنته؛ عد إلى رشدك يا ولد. إذهب وتابع تعليمك، خذ صاحبك نبيل إلى النور، عوض أن تكونا معاً في هذا المستنقع. وأنا أُحذّرك الآن، مثلما حذّرت نبيل، أنني سأحمل أخبارك إلى أبيك. وعليك أن تتصوّر كيف ستكون خيبته فيك. فكّر في مستقبلك، أخطب لك فتاة واقترن بها وعش حياة شريفة، كوّن أسرة لك، عوض هذا الشطط الذي أنت فيه. هذا المبغى لرجال ليسوا من نوعك، أو نوع نبيل. إنّهم عابرون ليس إلا. الذين يغطسون في العلاقة إلى آذانهم سرعان ما ينسحبون، إلا أنت، إلا نبيل، حب حرام بحرام.

ـ لست عاشقاً يا مصطفى بيك.. إنني أتسلى فقط.

ـ لو كنت عاشقاً لغفرت لك قليلاً، لكنّك في وضع أسوأ من وضع نبيل مع كاترين. إنّك تستغل شهيرة، تضحك عليها، تأخذ مالها.. ألا تخجل أن يكون هذا القميص وربطة العنق هذه، وهذا الحذاء.. وهذا البذخ الذي تعيشه هو في خلاصته من رجال وطأوا تلك المسكينة. وهي تظنّ أنها تمدّك بالمال لتحتفظ بك. أعرف. مثلما تعرف أنت في أعماق نفسك، لو جاءت إمرأة أكثر جمالاً وأكثر مالاً وأغرتك، لتخلّيت عن شهيرة فوراً.. إسمح لي أن أقول لك: نفسك خسيسة يا أسامة. إعقل واخرج من هذا الجحيم الذي تتصوّره نعيماً.. إنّك في ذروة العار يا ولد.

يروي أسامة هذا الدرس البليغ لنبيل، ويتساءل هل يقوم بمثل هذا الدور إزاء بقيّة الرجال الذين يلجون هذا المكان؟ هل ينصح هذا أو ذاك، مهدّداً إياه مثلما يهدّدنا؟ لا أظن، لولا أنّك إبن صديقه، ولولا أنني صديقك بالذات، ما له وللآخرين. كأنّه الدكتور جيكل والمستر هايد في آن، فيقول

نبيل إنّه الخير والشر معاً. . إسمع يا أسامة، إنني واقع في حيرة، ويبدو أنني سأتّخذ قراري بالهرب مع كاترين.

ـ تهربان. . إلى أين يا حمار. . من أين لك المال. . أم تفكّر بمال أبيك؟

ـ لا. . لا. . لا يخطر ببالي أبداً مال أبي.

ـ إذاً مال كاترين!

ـ هي أرادت ذلك، وباستطاعتنا أن نبدأ معاً حياة جديدة. . سنبتعد إلى أقصى الأرض. . إلى مكان مجهول لا يعرفنا أحد فيه.

ـ أنت تحلم يا صديقي. . أقصى الأرض أم أنك ستصبح مثل «زلمة». . شهيرة. . قواداً آخر عمرك. . تحرس بابها. والرجال يغتصبونها في الداخل، تستمع إلى تأوهاتها المصطنعة. ولا تستطيع أن تفعل شيئاً. إذا فعلت. . أرى بعيني هذا المصير لك. هل تعرف أنني أعقل منك؟ لم يخطر ببالي أبداً، لا الحب، ولا الزواج، ولا الهرب مع شهيرة. شهيرة راضية بمصيرها هذا، لم تطلب مني يوماً أكثر من القبلة والمعاشرة، لم أدخل تفاصيل حياتها، كلّما حاولت أن تروي لي شيئاً من ماضيها أغيّر دفّة الحديث، ما لي وماضيها، بل ما لي ومستقبلها. بعد ذلك كلّه، كلّهن كاذبات، يروين قصصاً غير معقولة كسبب من أسباب وصولهن إلى هذا المصير. لا أصدّقهن. وعليك أن تفعل مثلي، لا تصدّق كلّ ما تقوله حسناء. هي الأخرى تبالغ، إذا راقبت جيداً ما ترويه لك، تكتشف أنها تقع في المتناقضات، وأنّ ما روته بالأمس يصبح شيئاً آخر في اليوم التالي.

يعترض نبيل:

ـ لا. . لا. . إلا حسناء.

ـ يا عزيزي. . كلّهن مثل بعضهن. . وأشدّ ما أخشاه أن تكتشف ذلك متأخراً، فلا يعود بإمكانك أن تتراجع. أنصحك، وأشعر بالندم، يا ليتني ما أتيت بك إلى هنا ذات يوم. كان في ظني أن نتسلّى، وتنسى الوقوف في

محل أبيك ساعات طويلة، ثمّ إلى البيت والنوم. أما أن تصبح عاشقاً، وتفكّر بالهرب أيضاً مع مومس، فهذا ما لم أتوقّعه أبداً. أُصدقك القول أنني بدأت أشعر بالملل، وأن كلام مصطفى النمر قد وقع في نفسي وقعاً جميلاً. لقد أيقظني على ما أنا فيه، وكان يكلّمني باحتقار، كاشفاً خساسة نفسي، ظلّت كلماته، بعد ذلك، تلاحقني في اليقظة والأحلام، كأنّ ناقوس خطر حقيقياً أشعرني بصغري ودنائتي. أخذت من شهيرة ألوف الليرات، وها أنا الآن أرى أنّ بذخي، كان يُقتطع من لحمها، مع إدراكي سلفاً، أنّ هذا المال حرام بحرام.. وها أنت تريد الهرب وحسناء بمالها نفسه، مالها الذي جمعته من جسدها، ليلة بعد ليلة، لتغريك بالهرب دون أن تعرف إلى أين. هي أكبر منك سناً، ولها ولد لا تعرف أين هو الآن، ويخيّل لك أنّك في هذا الهرب ستمسك بسعادتك. ماذا لو تخلّت عنك فجأة.. وهي قد تفعل؟ ما لهن أمان يا صديقي، صدقني، هل لك عين أن تعود إلى أبيك إذا تخلّت عنك؟ إنّ ما تفكّر فيه هو الجنون بعينه.

يصمت الصديقان، يخفق قلب نبيل، يشعر كما لو أن حسناء تناديه من عمق قلبه، إنّه يحبّها، وعليه حمايتها بأيّ ثمن. فما يحمله لها في قلبه، غير الذي عند أسامة، وعند غيره من زوار هذا المكان. لا يراها مومساً تتاجر بجسدها، يعرف قسوة الظروف التي آلت بها إلى هذا المكان. يعرف كم هو حزنها كبير كالجبال، عميق كالبحار. يعرف أنّها لم تعرف طعم الحب الحقيقي إلا بين ذراعيه، كانت جسداً مشتهى اغتصبت منه طفولتها، وها هي اليوم بحاجة إليه دون سواه كيف يتخلى عنها. لن يفعل لو أطبقت السماء علي الأرض. ما له ونصائح مصطفي بيك وأسامة أفندي. ما له وكل كلام الناس. إن حسناء أحق بالشفقة من كل هؤلاء. يراها عكس ما يراها الآخرون. يراها ملاكاً مصلوباً على خشبة العذاب. ومحاطة بأشواك القدر التي نخرت جسدها، كما ينخر السوس الخشب، أما من رحمة لها! منه أو من أي إنسان آخر؛ حتى ذلك الكهل الذي حاول قتله غيرة منه. لماذا

لا يتزوّجها ويخرجها من هذا المستنقع؟ كان قد طرح السؤال على كاترين يوماً، قالت: قبل أن أعرفك كنت أتمنّى ذلك، لكنّه كان يتهرّب من الموضوع. يختلق مختلف التبريرات التي لا تسمح له بالزواج، مع ذلك، ها هو يحاول أن يقتل الرجل الذي تحبّه. صار يعرف أنها تحبّه. هل هذا معقول، هذا الآدمي الذي يجلس خاشعاً في حضن كاترين، هادئاً، ناعماً، لا يجرؤ على ملامستها. يُقدم على محاولة قتل رجل لأنّها تحبّه؟ شيء لا يصدّق، ومع ذلك، فقد أشفق نبيل على الرجل، وقرّر بينه وبين نفسه أن يسامحه، وأن يحذّره في آن. ربّما أقدم على محاولة ثانية، وثالثة.

«إنّ الله أمر بالستر»، أليس كذلك يا شيخ أمين؟

كان الشيخ يستمع بدهشة إلى كلام نبيل. بدأه بالقول: ألم يأمر الله بالستر يا شيخ أمين؟ قل لي بربّك ماذا أفعل بما أنا فيه؟ نعم. إنّها مومس. تبيع جسدها كلّ ليلة لرجال لا تعرفهم، تبتسم لهم غصباً عنها، تقبّلهم كأنّها تقبّل حجراً من سم، تدعهم يستلقون عليها وهي تتمنّى الموت، أليس إنقاذها من هذا الواقع هو ثواب عند الله؟

لم يجرؤ الشيخ أن يُفتي بهذه القضية.. ماذا يقول له؟ هل يقول له تزوّجها، ولا يعرف ماذا يكون مصير هذا الزواج؟

ـ نعم.. يا نبيل.. حلال أن تنقذها. لكن، فكّر قبل ذلك، إستعمل عقلك، هل أنت قادر على أن تمنحها حياة كريمة؟ وإذا مرّة اختلفتما في أمر ما ألا تذكّرها بماضيها؟ إن فعلت. إن فعلت. كأنّك تصفعها في صميم كرامتها. إنّ مثل هذا الزواج، فيه مخاطر كثيرة، فيه معاناة حقيقية، من الصعب التخلّص منها، والله أستغرب أمرك وأمر أسامة، أسامة الذي جعل من زين العابدين إنساناً غير سوي، وأنت تذهب إلى مومس تريد الزواج منها، كأنّ الدنيا قد خلت من الطاهرات، الشريفات، المؤمنات، تدّعي أنّك تفعل حلالاً بإنقاذها من واقعها الحالي، بينما شهوتك هي التي تقودك.

ـ لكنّني أُحبّها يا شيخ .

ـ تحبّها لأنّك لم تتعرّف إلى امرأة أخرى . وإنّ أي امرأة من أسرة كريمة تتقدّم وتطلب يدها ، تنسيك هذه فوراً . كثيرون مثلك اعتقدوا أنّهم عشاق لنساء من هذا النوع ، ثمّ اكتشفوا أنّهم كانوا يشتهون . فكّر كثيراً قبل الإقدام على تنفيذ فكرة الزواج . فكّر بأسرتك . . بأبيك . . بأهل حيّك . ستعيش منبوذاً حياتك كلّها .

يستغرب نبيل هذا الكلام . يتذكّر الأستاذ الذي ستر مومساً وتزوّجها :

ـ والأستاذ يا شيخ أمين كيف تبرّر له زيجته تلك؟ . قصّته تشبه قصّتي .

ـ نعم . . نعم . . التي سترها كانت تبيع جسدها سرّاً ، وليس على المكشوف كما عند صاحبتك . . ثمّ إنّ الأستاذ مسؤول عن نفسه ، لا أحد يلومه . . أمّا أنت . . ألا تعرف موقع أبيك في الحي ، أسرتك ، أصدقائك . هل تريد أن تصفع كل هؤلاء . من أجل أن ترضي نزواتك؟ . .

ـ ليست نزوة يا شيخ . . إنّه حب ، هل أحببت في حياتك؟

ـ أحببت الله يا بني . . إنّه الحبّ الأشرف في الدنيا . الإطمئنان الذي يغمر قلبي هو هذا الإيمان العميق ، الحب العميق . الزهد بالدنيا ، وحبّ الآخرة والعمل من أجلها . . أما أنت فلا تحسب حساب الله ولا الآخرة .

ـ لا تظلمني يا شيخنا . كيف لا أحسب حساب الله والآخرة؟ ها أنا أتمنّى أن أستر هذه المرأة التي كانت كلّ حياتها عذاباً في عذاب ، وهي راغبة من أعماقها في أن تخرج من هذا المستنقع . إنّها بحاجة إلى إنسان قوي يتجرأ ، ويساعدها على الخروج .

ـ حسناً ، ليكن هذا الجريء غيرك . . أعقل يا بني . . فكّر بالعواقب ، وليكن الله معك .

«الشيخ أمين ، مصطفى بيك ، حتى أسامة ، العالم كلّه ضدّنا يا كاترين . . وأنا لا أستطيع الحياة من دونك» .

المأساة الحقيقيّة، كانت مأساة لم تخطر ببال أحد، وكان وقعها أشدّ من دمار جبل، وسقوط كوكب من السماء. بدا عاصم للجميع وكأنّه يبني حياة جديدة. استقرّ في العمل في مستودع الورق، يذهب صباحاً ويعود مساءً منهكاً، يشكو تعبه للمياء: «كلّ يوم أحمل على ظهري مواعين الورق من المستودع إلى سيارات الشحن. هل هذه وظيفة. . أم عتالة؟ أنا عتّال يا لمياء... لن أستطيع الإستمرار. لقد تعبت. تحاول لمياء تطييب خاطره: إنتظر فترة من الزمن وأنا أدّخر الكثير وأصرف القليل من مرتّبي. سأجد لك وسيلة للعمل مع خالي في سوق البزورية. الحياة كفاح يا عاصم. . والصبر جميل. .

كان في ظنّ لمياء أنّ حياة زوجها قد تبدّلت من جذورها، إلاّ إنّ ما كان مكتوباً على لوح قدرها لا يمكن محوه. إنّه مكتوب بحبر إلهي لا يزول، بل محفور في العمق، وآن الآن ظهوره على مثل هذه البشاعة الموجعة.

يطلب عاصم من لمياء إعداد بعض الأطعمة لسهرة المساء، إذ سيزوره أصدقاء يبحث معهم عن فرص عمل، لعلّه، بذلك، يخرج من مستودع الورق. .

ـ هل دعوتهم على العشاء؟

ـ لا . . إنّما على كأس .

ـ ومتى كنت تشرب الكحول؟

ـ ليس أنا . . الضيوف سيشربون . لا أريد منك سوى بعض المازات .

إستغربت لمياء :

ـ مازّات . . وكحول . . ثم البحث في الأعمال . . أم إنّها سهرة مجون . . لماذا لا تأخذ ضيوفك إلى مكان عام؟

ـ لا . . لا . . في البيت أستر . لا أريد أن يرانا أحد نشرب كأساً . .

ـ ولماذا الكأس؟

ـ قلت لك هناك فرص عمل مع هؤلاء ، إنّهم تجار يعملون في نيجيريا ، وقد أصبح ممثلاً تجارياً لهم هنا . . إنّها فرصة لا تفوَّت يا لمياء .

تصمت لمياء على مضض ، تلمس بطنها براحة كفّها ، إنّه الشهر الرابع لحملها ، عسى أن يأتي مولودها ، وقد تبدّلت حياتهم تماماً . فمن حقّ عاصم أن يسلك جميع السبل للخروج من أزمته . تبتسم :

ـ على عيني وراسي .

يقول عاصم :

ـ لا نريد أكثر من ذلك . . ثمّ ترتاحين في غرفتك .

لم تأل لمياء جهداً ، فأعدّت لزوجها مائدة ، حملت أطايب الطعام من كلّ لون . عندما نظرت إلى الطاولة ، التي وزّعت صحونها بشكل دائري جميل ، إطمأنّ بالها إلى أنّ الضيوف سيشيدون بذوقها الرفيع ، وسينقل زوجها لها هذا الكلام .

حضر زوجها في المساء ، وقد حمل معه قنينة عرق ، وبعض الفواكه ، فتصوّرت لمياء ، أنّ ضيوف زوجها من الرجال العظام ، ليهتمّ بهم كلّ هذا الإهتمام .

عندما طُرق الباب في التاسعة ليلاً، انسحبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب عليها. أضاءت الراديو مستمعة إلى أغنية محبّبة إلى قلبها لعبد الوهاب، وأخرى لنجيب السراج، «أشتهي بيتاً لنا / في مكان بعيد» إنّه حلمها فعلاً، أن يكون لها بيت في حيّ حديث من أحياء المديّنة، أو في مدينة أخرى. . في أيّ مكان. شرط أن يكون هذا البيت لها. تنقل مؤشّر الراديو من محطّة إلى أخرى. فيما تداعبها أحلام كثيرة، لعلّ وجود هؤلاء السادة في بيتها سيحقّق لها هذه الأحلام، لكنّ قلقاً خفياًساورها، خصوصاً عندما رأت من شق الباب، شكل ضيوفها وأعمارهم، إنّهما رجلان ليسا من عمر زوجها، ويبدو أصغرهما في الخمسين. يرتديان تلك الأزياء الشعبيّة التي يرتدي مثلها خالها أبو نبيل، لأحدهما شاربان معقوفان إلى أعلى، يعتمر طربوشاً خمري اللون، فيما الآخر على رأسه طاقيّة بيضاء، حليق الشاربين، قصير، ذو كرش ضخم. تساءلت لمياء من أين لعاصم مثل هؤلاء الضيوف؟! وكيف تعرّف إليهما، وهو لا يخرج في عطلة الأسبوع إلا معها، في زيارة للغوطة، أو حضور فيلم سينما، وبقيّة أيامه مع مواعين الورق في قبو عميق؟!!.

لم تهتمّ كثيراً، وبين أغنية وأخرى، تتناغم مع كلمات الأغنيات فتجعلها تتمايل يميناً ويساراً. غفت سعيدة بحملها، فتتذكّر أنّها قالت لنبيل ذات يوم إنّها إذا أنجبت صبياً ستسمّيه باسمه. لكنّ هذا الصبي لم يأت، وفقدت لمياء كلّ حسّ بالحياة الجميلة، تلك الليلة كادت الصدمة تودي بها، صدمة جعلت من الحلم الجميل كابوساً لا يفارقها.

إستيقظت في منتصف الليل ،كأنّ ملاكاً وضع يده على كتفها، تلمّست جانب السرير، فلم تجد عاصم. . هل هو سهران مع أصحابه حتى هذه اللحظة؟! أصغت السمع، لا شيء ينبىء أنّ عاصم وصديقيه ما زالوا في البيت. هل خرجوا إلى سهرة أخرى؟ لا بدّ أنّهم فعلوا ذلك، تركت سريرها حافية القدمين. إقتربت من الصالون، ما زال الجزء الآخر منه

مضاءً، إقتربت أكثر. ثمّة ظلال تتحرّك وراء الزجاج المغبّش. إذاً ما زالوا هنا. لكن لا أصوات. خطت خطوة أخرى بحذر شديد، وألصقت أذنها على الباب المغلق. سمعت همهمة غير مفهومة. داهمها هاجس راعب. كادت تدفع الباب، لكنّها تريّثت. سحبت كرسياً بجانب الباب، ومن دون أن يصدر عنه صوت، صعدت فوقه. أطلّت، بحذر، عبر الزجاج الأعلى المكشوف إلى الداخل.. ويا لهول ما رأت. ندت عنها صرخة موجعة. لم تتمالك نفسها.. إرتجفت.. فسقطت عن الكرسي مغمى عليها. سرعان ما انبثق الدم من بين ساقيها. دبّ الرعب في الجهة الثانية، خرج عاصم ومن ثمّ الرجلان إندفع عاصم نحوها مطبقاً على عنقها بشراسة يحاول الإجهاز عليها، لكنّ الرجلين منعاه. أبعداه عنها، وصاح أحدهما: أتريد أن ترتكب جريمة يا مجنون.. هيا.. إرتد ملابسك، ولنحملها إلى أقرب مستشفى. إنّها تنزف. علينا العمل بسرعة.

رمى أحد الرجال شرشفاً على لمياء، حملها بين يديه، فيما أسرع الرجل الآخر وأوقف سيارة أجرة. عاصم ظلّ متردّداً للحظات، لكن الرجل الآخر صاح به: أسرع يا حقير.. أسرع... بئس ما فعلنا.

راحت سيارة الأجرة تنهب الأرض، فيما كانت لمياء تئنّ أنيناً موجعاً، حتى إذا وصلوا إلى طوارىء المستشفى، تلقفها رجال الإسعاف، وقال أحدهم: نزفت كثيراً، لو تأخّرتم لوصلت ميتة، أرجو أن يساعدنا الله على إنقاذها. ثمّ سألهم هل أنتم أقرباؤها؟ أشار أحد الرجلين إلى عاصم: هذا زوجها.. نحن ساعدناه على إحضارها.. ثمّ التفت نحو عاصم وقال له بلهجة آمرة: إبق معها، عسى الله ينقذها. أستغفر الله العظيم على ما ارتكبناه.. ثمّ انسحب مع رفيقه.

كانت لمياء قد فقدت دماً كثيراً، وسقط الجنين قطعة من اللحم الدامي، إلا إنّ عناية الله، وسرعة الإسعاف أنقذاها. فما إن فتحت عينيها بعد أيام، حتى وجدت أمامها أمّها وأباها وخالها، وأخويها. كانوا جميعاً قلقين.

إقتربت أمّها منها: تقبريني. . سلامتك. . أسرعت سميرة وجلست على حافة السرير دامعة العينين: سلامتك تقبريني. إقترب أبوها وقبّلها من جبينها، كذلك فعل أخوها. أما أبو نبيل فقد كان يرمقها عن بعد وقد بدا عليه الغضب الشديد. . كان يردّد: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، سلامتك يا ابنتي.

أجالت لمياء النظر حولها، فلم تجد عاصم. شعرت تلك اللحظة أنّها تكرهه، كانت مفجوعة حقاً، تذكّرت ما نقله لها خالها ذات يوم. لا بدّ أنّه كان فتياً، أما إنّه وقد أصبح رجلاً وربّ أسرة، وعلى وشك أن يصبح أباً، فهذا ما لا يصدّق. الآن. . ماذا ستقول لهم. لخالها أولاً، لأبيها، لأمّها. . للعائلة. . كلّهم عارضوا زواجها من عاصم، تحدّتهم، إلى حدّ أنّها هربت معه. كيف تشرح لهم ما حدث. . بأيّ لسان وأيّ وجه؟ يا الله. . لماذا انكسر هذا الحلم وهو في بدايته؟ لماذا انهار كلّ شيء دفعة واحدة؟

راحت لمياء تتلمّس بطنها، كان نبيل قد وصل إلى غرفتها أثناء ذلك، بكت وهي تنظر إليه، وراحة يدها على بطنها: كان هنا نبيل. . كنت سأسمّيه على إسمك. حاول نبيل أن يخفّف عنها: العوض بسلامتك. . ما زلت صبيّة، سوف يعوّضك الله أكثر من ولد. . وانخرطت في البكاء من جديد.

مرّة ثانية. كادت تسأل عن عاصم. زارها كلّ الأهل والأقرباء، ما عداه. هل حصل له مكروه، هل قتل نفسه؟. . ظلّت تتساءل دون أن تجرؤ على السؤال. كما استغربت أنّ أحداً من أهلها لم يسأل عنه. إذاً، لا بدّ أنّ شيئاً غير طبيعي قد حدث لعلّه من هول الصدمة. . مرض؟ أو جُنّ وساح في الشوارع «لشدّ ما أكرهه. هذا الشاب الجميل الذي ظننت أنّه سيسعدني العمر كلّه. ها هو إمرأة أخرى. يا ليته كان إمرأة. . أمّا أن يكون رجلاً، ثمّ يفعل ما يفعل؟ هذه هي الفاجعة بكلّ قسوتها ومرارتها. . لماذا أنا يا رب. . ؟ لماذا الرجل الذي اخترته أنا، ولم يختره لي أيّ إنسان، أُفجع به على هذه الصورة؟!».

بعد أيّام، كان خالها وحده جالساً قربها، فسألها:

- ما الذي حدث. . هل تشاجرت مع زوجك؟

- لا لم أتشاجر معه. . ولكن أين هو. . لم أره منذ دخلت المستشفى؟

- إختفى تماماً. . عندما أخذت مفتاح البيت من أبو العز لنحضر لك بعض ملابسك، إكتشفت أنّه حمل كلّ ملابسه وكلّ ما يخصّه واختفى. . . فأدركت أنّ شجاراً حدث بينكما، وأنّك نزفت بسبب ذلك، فهرب من المسؤولية.

- يا ليت ذلك هو الذي حصل يا خالي، كنت غفرت له. إلاّ إنّ ما حصل كان أدهى وأقسى. صدمة أفقدتني توازني فهويت. . بل كاد يقتلني عندما عرف أنني رأيت كلّ شيء.

أدرك أبو نبيل أنّ ما رأته لمياء أقسى بكثير من الشجار، وقبل أن تقول أيّ كلمة صاح بها:

- ماضيه. . أليس كذلك؟

فقالت بحسرة:

- وحاضره يا خال. . حاضره. لقد رأيته يتأوّه كالمومسات. . لم أصدّق. . أهذا هو زوجي؟. . لم أتمالك نفسي. . والله تمنّيت أن أموت من هول ما رأيت. . سقطت، كاد يقتلني. . ولم أقاوم. أردت أن يقتلني والله يا خال. لكنّ الرجلين الآخرين هما اللذان أنقذاني.

تذكّر أبو نبيل كلمات مسعف المستشفى أنّ رجلين آخرين حضرا مع زوجها، وكان أحدهما يخاطب الزوج بلهجة آمرة وباحتقار شديد. أراد أبو نبيل أن يعرف شيئاً عن الرجلين. أعطاه المسعف أوصافهما، وأنّهما أكبر سناً من الزوج. وأنّهما يرتديان ملابس شعبيّة. أحدهما له شاربان معقوفان إلى أعلى. صفات لرجلين لم يتذكّر أنّه شاهدهما، أو يعرفهما. وأدرك أبو نبيل كلّ ما حدث، أدرك السبب الذي دفع بعاصم إلى الإختفاء. . قال في

نفسه «سيكون حسابه عسيراً معي، لا بدّ أن أعرف أين هو. . في أي مكان إختفى».

ـ يا ليتني سمعت كلامك يا خال، يا ليتك شددت عليّ ومنعتني من زواجه. . ماذا أقول الآن؟ إصفعني. . إضربني ما شئت أن تضرب.

ـ معاذ الله يا إبنتي.

ـ أعطني يدك أقبّلها. . وسامحني. . ليغفر الله لي. أكره الرجال. . أكرههم. وكان صوتها يعلو شيئاً فشيئاً: أكرههم. . أكرههم.

حاول أبو نبيل تهدئتها:

ـ ليس كلّ الرجال مثل بعضهم يا ابنتي، عاصم ليس هو القاعدة. . كلّ الرجال فرسان. . إلاّ القلائل. . إلاّ اللصوص والمجرمين والقتلة. . كل هؤلاء موجودون في كلّ بلد وفي كلّ مجتمع، ومن الصعب التخلّص منهم. . عندما أعرف أين هو سأقاضيه، وأتّهمه بجريمة قتل جنين، إضافة إلى عاره الآخر. سأقاضيه. . وإن لم أستطع سأقتله بيدي هذه. أمثاله يجب إجتثاثهم بأيّ ثمن.

كان أبو نبيل يتحدّث منفعلاً أشدّ الإنفعال. . إنتبه إلى نفسه، كأنّه يحادث جمهرة من الناس: يجب اجتثاثهم بأيّ ثمن. . هؤلاء الذين يرتكبون الفاحشة، يجب معاقبتهم قبل أن يعاقبهم الله.

وكأنّ أبو نبيل خرج عن طوره فراح يردّد بألم شديد، وقد احمرّ وجهه وارتجفت يداه: هالإبن الحرام. . كيف فعل ذلك. . يا ليتني أعثر عليه. . لقطعت عمره بطعنة نجلاء في قلبه القذر. . أين أنت يا كلب. . أين أنت؟!

كان انفعال لمياء أشدّ مرارة من خالها. غرقت في بكاء حاد. راحت تشهق وكأنّها ستختنق. . ثمّ إنّ الإثنين هدأا، كما تهدأ العاصفة التي اجتاحت في ذروة هيجانها كلّ شيء. إرتمى أبو نبيل على المقعد القريب من السرير، وراح يمسح عرق جبينه ووجهه بكمّ قنبازه. أمّا لمياء فقد أغمضت عينيها على دموعها التي بللت وجهها بغزارة، إنّه مشهد لا ينسى، قال أحد

الممرّضين. عندما دخل فجأة إلى الغرفة. أدرك أنّ عاصفة عصفت بالإثنين ثمّ انحسرت. كلاهما كان يلهث. كما لو أنّه ركض ساعات متواصلة:

- ما الذي أزعجها يا عم.. هل قلت لها شيء قهرها؟ لا يجوز أن تفعل ذلك وإلاّ نزفت مجدّداً.. إنّها هشّة، أيّ شيء يزعجها سيعرّضها للخطر.. هل لك أن تخرج من الغرفة؟.. دعنا وحدنا أرجوك.

ترك أبو نبيل الغرفة دون أن يعلّق على كلام الممرّض، شعر لأوّل مرّة أنّه مهزوم، وأنّ ثمّة رجلاً خسيساً وحقيراً طعنه في قلبه. كاد يتهاوى، لكنّه تماسك. خرج بطيء الخطوات، حتى إذا تلقّفه الشارع، رأى إبنه نبيل مقبلاً لزيارة لمياء. فقال له: دعها الآن.. إنّها متعبة. ولنعد إلى البيت. في الطريق روى له كلّ شيء. أدرك نبيل أيّ صدمة تلقّاها أبوه، وأيّ مأساة تعيشها الآن لمياء.. وتذكّر زين العابدين. تذكّر أسامة، تذكّر كاترين التي غاب عنها كثيراً، تذكّر مأساتها الأقسى والأشد وجعاً. ليس في الدنيا كلّها مأساة أشدّ مرارة من مأساتها مهما حدث للآخرين. أشفق في هذه اللحظة على زين، وعلى كاترين، وعلى لمياء، وعلى نفسه: «أهذه هي الحياة؟ أين الفرح فيها؟ لماذا هؤلاء بالذات تهزمهم الحياة إلى هذا الحد البشع؛ لماذا تخذلنا الحياة إلى هذا الحد من القسوة.. والآلام..؟ لا أرى إلا الخيبة والإحباط. أرشدني يا رب إلى الصحيح.. لا تتخلّ عنّي». وكأنّ وردة النرجس أنذرته بالأخطر: «إنّ الحياة ليست إلا لقلّة من الناس.. أمّا السواد الأعظم، فإنّهم الهامش، إنّهم المتعبون في الأرض..» وها أنت يا نبيل لا تقدر أن ترى المرأة التي تحب، تحاول نسيانها فتغرق بها أكثر، تحاول أن تمسح عن جسدك لمساتها. فلا تشعر إلا بدفئها، تحاول أن تأكل المر كي تنس حلاوة فمها فما تستطعم إلا بعسل ريقها. إنّها موجودة فيك شئت أم أبيت. إبتعدت لتنس فما ازددت إلا شوقاً لها. إبتعدت حتى عن رفيق العمر أسامة حتى لا يذكّرك بها. غبت عن كلّ هذا العالم الذي كان جميلاً في أحضان كاترين، ها أنت تمتصّك الذكريات ولا تقدر على الفكاك منها،

لا أحد يعلم أيّ عذاب تتعذّبه. لا مصطفى النمر، ولا أبوك، ولا لمياء. ولا العالم كلّه.. حاصروك، وأنت ضعيف مخذول لا تستطيع أن تتخذ قراراً ولا موقفاً.. ما أضعفك إزاء التقاليد الصارمة التي لا ترحم أحداً.. ما أضعفك أمام أبيك، هذا الرجل الذي لا تريد إيذاءه فآذيت نفسك.. أين حسناء الآن؟ ألا تشعر كم تكابد بغيابك عنها؟ هذه المسكينة التي ظنّت أن أوان الخلاص قد آن.. فإذا برجل إسمه مصطفى النمر، يحكم عليكما بالإعدام، دون أن يرفّ له جفن، أو يقول كلمة عزاء. وها هو هذا الآخر اللئيم عاصم، يحكم بالإعدام على لمياء، ليس بإهانة أنوثتها وحسب، بل بهجرها وتركها لمصيرها مخذولة من كلّ الرجال.. هل هذه عدالة؟. هل صحيح أنّ أقدارنا مرسومة سلفاً على ألواحها. لا.. ليس هذا صحيحاً. الصحيح أنّنا نصنع مآسينا بأنفسنا، نكتب أقدارنا بأقلامنا.. فلو اقتنعت لمياء بأقوال خالها لما تزوّجت عاصم، ولو تحدّيت والدك أو مصطفى بيك، لما تخلّيت عن كاترين. إنّ الحياة مواقف.. وبدون هذه المواقف، نصبح جميعاً، ورقة يابسة في مهبّ الريح».

كادت وحشة نبيل تمرضه . . أغرق نفسه في المحل إلى حد أنّه كان يغلقه آخر واحد في السوق، تلهّى بالقراءة أحياناً، وحضور كل أفلام السينما ليلاً، لكنّه لم يستطع أن يهرب من ظلّها، من وجهها الجميل الآسر، الذي يتجسّد على الشاشة في كلّ فيلم يحضره، في صفحات الكتب، في الروايات التي يقرأها . . ما عاد يقرب المبغى أبداً، لكنّ إحساسه بالذنب تجاه حسناء يتعاظم يوماً بعد يوم، تناهى له من بعض الأخبار أن أسامة ما عاد يذهب إلى هناك، لعلّه شعر بالملل، يا ليت علاقته بحسناء مثل علاقة أسامة بشهيرة. وظلّ يبتعد عن أسامة ما استطاع، خشي، إذا ذهب إليه، أو سأل عنه، أن يقنعه من جديد بالإتصال بحسناء، أو بإيجاد وسيلة ما للقاء بها، وهو أبو الوسائل، يخترعها وينفّذها، إبتعد عنه، وغرق في العمل والصلاة. بدأ بفكّر بالعودة إلى الدراسة، ولا شكّ أنّ أباه سوف يشجّعه. منذ كان يحضر حلقات الشيخ أمين، وشخصية هذا الرجل تسحره، رجل علم يعرف كل شيء، ولكلّ سؤال عنده له جواب، يتذكّر نبيل وقد انقطع عن الشيخ، أيام كان وأسامة وزين العابدين ورفاق الحي يتحلّقون حوله ليأخذوا من كل علم خبر، يتذكّر كيف تَنشَده بالشيخ العيون، وكيف ينصت أصحابها إليه بشغف، وهو ساحر الكَلمة، يتكلّم كأنّه يقرأ من كتاب. ولا يقرأ إلا من ذاكرته الخصبة. التاريخ بأجمعه تحت هذه العمامة،

والأحاديث الشريفة، وآيات القرآن. . كيف يحفظ الشيخ كلّ ذلك. . ؟ ما أروع ذاكرته، ويبدو الشيخ سعيداً بما يفعل، راضياً، مرتاح النفس، يخاطب الجميع، حتى لو كان البعض أكبر سناً: يا أبنائي. ولا يكتفي بالدروس وتفسير القرآن والأحاديث، بل يدخل في حياة الناس، ويحل مشاكلهم، ويسعى للفقير، ويصالح المتشاجرين، وينأى، بالتأكيد، عن الفحشاء والمنكر. وقد خطر ببال نبيل هذه اللحظة، لماذا لا يصبح مثله. . ثمّ ضحك على نفسه: «من أين لك سعة فكر الشيخ. . مهما درست وتعمّقت لن تصل لواحد من ألف من علمه» ويتساءل: «لماذا لا أحاول. . ها هي كليّة الشريعة، وها هو الأزهر في مصر» ثمّ تذكّر آثامه. . ألا يغفر الله له؟ إنّ الله غفور رحيم.

يوم الجمعة، هو متنفّس نبيل ويوم راحته، فيرتاد مقهى الهافانا، يلتقي برفاق قدامى له من أيام الدراسة، يلعبون النرد، أو الورق، أو يرافقهم إلى فيلم سينما. كان قد انقطع عن هؤلاء زمناً طويلاً، عندما كان يقضي اليوم بكامله عند حسناء، التي كانت بدورها تمتنع عن استقبال الزبائن. . الآن له عدّة شهور لم يرها. لم يرَ أسامة، لم يرَ المكان كلّه. في المقهى، وهو يلعب الطاولة، لمح أسامة عابراً، هل هو أسامة. . لا. . شخص يشبهه، هذا أنحف. هذا كأنّه أكبر من أسامة بعشر سنوات، يخلق من الشبه أربعين. لم تمض لحظات، حتى ربتت يد علي كتفه، التفت، فإذا بذاك العابر، إنّه أسامة حقاً. . يا أهلاً. . إجلس. جلس أسامة قبالة نبيل، بدا ضعيفاً متهالكاً. ما بك أيّها الصديق؟

- لا شيء. . تعب قليل.

- لكن يبدو لي كأنّك كنت مريضاً.

- إنّها القرحة. . لعنة الله عيها. .

- لم أسمع منك أبداً أنك تعاني من القرحة!

ـ إكتشفتها حديثاً . . وأعالجها الآن عند صديق طبيب بالأدوية والمسكّنات .

ـ عافاك الله يا صديقي . .

ـ لماذا لا تتصل . . لا تسأل . . هل نسيت تلك الذكريات؟

ـ لم أنسَ والله . . ثمّ غمزه مشيراً إلى فوق : ما هي أخبار الجماعة؟

ـ وتسألني يا نبيل . . ضميرك يقول لك .

ـ هل تزورها؟

ـ قبل أن أنقطع ، مثلك ، عن زيارة المكان إياه ، إلتقيت بها ، كانت مستسلمة لمصيرها ، حزينة ، ومتعبة ، بل قالت في لحظة غضب إنّها لو التقت بك لقتلتك . . موتك وحده يطفىء نار الأشواق .

ـ أعوذ بالله .

ـ ولو يا نبيل . . ومن الحب ما قتل .

ـ بلا مزح أرجوك .

ـ دافعت عنك كثيراً . رويت لها صعوبة اللقاء بعد اليوم ، وأنّ مصطفى النمر لك بالمرصاد ، وأنّ أي لقاء بينكما سيتسبب بارتكاب جريمة ، ويطردها من البلد . كانت تستمع إليّ ـ كما قلت لك ـ مستسلمة ، لقد فقدت الأمل من عودتك تماماً ، لكنني نصحتها بالصبر ، ووعدتها أن نجد مخرجاً تستطيعان فيه اللقاء مجدداً . لم تتشجّع . . كانت تستمع لي منصتة ، دون أيّ انفعال أو اهتمام . وكان هذا آخر لقاء بيني وبينها .

يشعل أسامة سيكارة ، يمج دخانها ، يسعل سعالاً شديداً .

ـ ألم تكف عن التدخين يا أسامة . . إنك تقتل نفسك .

ـ دعك من النصائح أرجوك .

يهاجم الألم أسامة ، يضع يده على معدته : البنت الحرام . . كلما انزعجت تهاجمني آلامها .

ـ هل صوّرت المعدة؟ . . التصوير أهم شيء لمعرفة مكان الداء .

ـ سأفعل . . أرتاح الآن على الأدوية . . الدواء الذي أستعمله أعطاني إياه الطبيب لثلاثة أشهر . . وقال إنني سأشفى بعد ذلك .

وقف أسامة فجأة .

ـ ماذا بك . . ؟

ـ تذكّرت أنني على موعد ضروري . . سأراك قريباً .

إبتعد أسامة . . قلق نبيل كثيراً . . لم يكن هذا الذي كان جالساً أمامه أسامة ، إنّه شخص آخر ، خشي أن يكون أسامة قد خبأ عليه حقيقة مرضه ، وتساءل : هل يتعاطى المخدرات؟ قال في نفسه : أعوذ بالله .

مرّ على هذا اللقاء نحو أسبوعين. . كان نبيل غارقاً في لعبة طاولة الزهر بعد ظهر يوم جمعة مع صديق له، عندما انتبه، كما انتبه الجميع في المقهى، إلى امرأة محجّبة بملاءة سوداء ومنديل أسود يخفي وجهها تماماً تحاول الدخول إلى المقهى. ولما حاول النادل منعها، دفعته جانباً، وأسرعت الخطى نحو نبيل. عندما أصبحت ملاصقة لمقعده، رفعت المنديل عن وجهها فإذا هي حسناء! أخرجت من تحت ملاءتها مقصاً طويلاً، ووضعت رأسه تحت ثديها تماماً، على القلب مباشرة. صاحت بنبيل: إما أن تخرج معي أو أقتل نفسي الآن. ران صمت ثقيل في المقهى، اشرأبّت الأعناق نحو حسناء ونبيل، الذي تجمّد في مكانه مندهشاً. احتار ماذا يفعل. بل اختنق صوته، فما قال كلمة. كرّرت حسناء كلامها بصوت عال ومجروح: هل سمعتني. . ؟ أقتل نفسي. . أو تنهض معي. صاح أبو هشام مدير المقهى من وراء طاولته: إنهض يا نبيل. . إنهض. . واذهب معها. . أرجوك. . لا أريد جريمة هنا. تحرّك أرجوك. ظلّ نبيل في مكانه محتاراً ماذا يفعل، تردّد. أراد أن يهدىء من روع حسناء: طوّلي بالك يا حسناء طوّلي بالك أرجوك. . بلا فضايح. صاح أبو هشام ثانية: قم أرجوك، الست جادة في أقوالها. وقف نبيل وحاول الإمساك بيدها. رجعت خطوة إلى الوراء: أنا لا أمزح. . قلت لك أقتل نفسي أو تمشي معي. إعترض

نبيل: أريد أن أسألك إلى أين؟ . . قالت بإصرار: إمش معي، بعد ذلك تعرف. تردّد نبيل. . . شعر بالحرج الشديد. تلفّت حولَه لعلّه يعثر على أحد ينجده. كانت العيون كلّها شاخصة نحوهما، فيما راح أبو هشام يصرخ: إذهب معها يا رجل. . ممّ أنت خائف. . . إذهب. ازداد نبيل ارتباكاً، فصاح أبو هشام مجدداً برواد المقهى: العما بقلبه. . انظروا إليه واقفاً كالمسطول. ظلّ نبيل، مع ذلك، جامداً في مكانه، لا يعرف ماذا يفعل، رأى فيها قوّة هائلة سيطرت على الجميع، مقصّها ملتصق بالقلب تماماً، ولا ترتجف يدها. . بدت من نظراتها أنّها مصمّمة على قتل نفسها، ما لم يمشِ معها. أمام جبروت الحب الذي تحمله هذه المرأة، بدا نبيل بالمقابل ضَعيفاً ومتهالكاً، بل شعر أنّها تضطهده في موقفها الصارم. أحسّ بالمهانة أمام هذا الجمع الذين يعرفونه جميعاً، وتساءل: من أين لها خبر وجوده في المقهى. . هل هو أسامة؟. لا بدّ أنّه هو الذي أخبرها بتردّده على «الهافانا».

إقترب مدير المقهى أبو هشام حتى صار أمام حسناء تماماً، قال فيما بعد، لم أرَ وجهاً جميلاً مثلما رأيت في هذه المرأة، لقد زاده جمالاً هذا الغضب الذي كان يعتمل في قلبها، وارتسم بتفاصيله في العينين، والفم المزموم. والرأس المرفوع. شعر أبو هشام، بما يعرف من قصص رواد مقهاه، وبما يتلقى من هواتف لهؤلاء ويسمع ما يدور من حوارات، بأنّ هذا الموقف القوي سببه حبّ عظيم تريد هذه السيدة الدفاع عنه، وأدرك في تلك اللحظة أنّ نبيل المتردّد كالطفل لا يستحقّ هذا الحب، ولا يستحق هذه المرأة، التي لا يعرف من هي، ولا يعرف قصّتها مع نبيل. لكنّها. بالتأكيد، إمرأة رائعة، جاءت تطالب هذا الجبان بحقّها في الحياة، وحبكت النكتة معه. فقال مخاطباً حسناء: هل أذهب أنا معك سيّدتي، نظرت باحتقار إليه، وقالت: ما دخلك أنت. . وأشارت إلى نبيل: على هذا الرجل أن يمضي معي. لأوّل مرّة، شعر نبيل بالغضب من حسناء، قال لها فجأة: إذا

لم تقولي لي أين فلن أتحرّك من هنا. عندئذ، عندئذ فقط، غرزت حسناء المقص في صدرها، فانبثق دمها أحمر قانياً. ثمّ قالت: ثوان أخرى وأغرز المقص أكثر.. سأموت هنا إن لم تتحرّك. إقترب أبو هشام نحوها، في محاولة لنزع المقص من يدها، فصاحت به: إبتعد أنت. هنا أمسك نبيل بيد حسناء وانسحبا خارج المقهى. وكأنّ الرواد شاهدوا مسرحية قيس وليلى، إذ هبّوا جميعاً مصفّقين. في الخارج كانت تنتظرهما سيارة أجرة، استلقيا على مقعدها الخلفي، وأخرج نبيل منديله من جيبه وضغط على الجرح. كان الجرح سطحياً كما بدا له. صاح بها من خلال اضطرابه: لماذا فعلت ذلك.. لماذا.. هل أنت مجنونة؟ نعم.. أنا مجنونة. مجنونة بك.. لن أطيق الحياة بدونك.. هل فهمت؟. إمّا أن تكون لي أو أموت. لاحظ نبيل أنّ سائق السيارة يعرف أين يتجه، فلم يسأله حتى اقتربت السيارة من الروبير. قال نبيل بغضب: إلى أين.. إلى أين؟ أجابته: إلى بيت تعاستي. إلى سجني، إلى المكان الآسن الذي سأموت فيه. وأنا، أنا كيف سأدخل معك؛ لن يسمحوا لي. أشارت إلى المقص الذي ما زال فوق جرحها: هذا الذي سيتحداهم. هذا الذي سيسمح لك بالدخول غصباً عن مصطفى بيك وعسكره. إنّ أي حركة منك، أو من أي إنسان يمنع دخولك معي، سيغوص هذا المقص في القلب تماما.. هل فهمت؟

كانت كاترين تتكلّم بغضب وعصبية، بهذيان غريب لم يسمع منها مثله من قبل: «أليس لي الحق في الحياة الشريفة.. إلى متى أظلّ مباحة لكلّ عابر.. كل هذا الماضي لم أصنعه أنا. ما أظلم القدر. أريد أن أتمرّد بك على هذا الواقع الرديء، أريد أن أردّ هذا الظلم عني بالحب، أن أحبّك أكثر. أشعر الآن بأنني أقوى من أيّ إنسان في الوجود. وأنا أحمل هذا الحب».

كانت تبكي بحرقة. تقف عن الكلام لتشهق في بكائها، ثم تردّد: بهذا الحب أتحصّن من الظالمين أمثال مصطفى بيك. هذا الرجل الذي يعيش

بدون قلب. سأتحداه. منعك من الإتصال بي!. فليأت الآن ويخلّصك من بين يدي إن استطاع، في قبضتي على هذا المقص أتحدى العالم كلّه. لن يمنعني أحد من أن أعيش معك بقيّة حياتي.. هل سمعت؟ ستظلّ معي إلى الأبد.. شئت أم أبيت».

يحاول نبيل أن يتكلّم، فترفع يدها في وجهه: أسكت.. أسكت.. أعرف ماذا تريد أن تقول؟ أعرف أنّك ستصفني بالجنون.. إذا لم أكن مجنونة فلن أنالك أبداً. أنت حبي وحياتي. صبرت طويلاً لعلّك تتخذ قرارك بالشجاعة التي تمنّيتها فيك. هل من المعقول أن يستطيع مصطفى النمر منعك من الإتصال بمن تحب؟. لماذا له عليك كل هذه السطوة؟. هل أنت رجل أم إمرأة؟ ها أنا أجرأ منك.. وأشجع. من قلب مقهاك انتزعتك بالقوّة. سأحتفظ بك بالقوّة.. ليأت مصطفى بيك ودولته كلها وينتزعوك مني إذا كانوا قادرين.

صمتت كاترين، تركت نبيل في حيرته المذهلة لا يعرف كيف يتصرّف، حتى إذا لاح له مبنى المبغى. طلب من السائق أن يتريّث قليلاً. ثمّ التفت نحوها: يا حبيبتي حسناء. يا أغلى الناس. إنّ تصرّفك هذا سيؤدي بنا إلى مصير أسود. لا نستطيع النجاة منه. أرجوك.. لنتصرّف بتعقّل. أنت وأنا ضعيفان أمام هذا المجتمع الظالم.. لا نملك القوّة لمواجهته مهما فعلنا، إذا أردنا أن نتحداه، فليكن بخطة مرسومة، وليس على هذا الشكل الجنوني! هل تظنين أنني نسيتك، أو قررت التخلي عنك؟ معاذ الله. والله ما غبت عن البال. في رأسي الكثير من الخطط لأنجو من هذا العذاب. أعطني فرصة أخرى.. أرجوك.. لن أستطيع الدخول معك أبداً. إن فعلت، سيطردونك من البلد. مصطفى بيك قادر أن يقتلعك من هذا المكان فوراً، وسيفعل، سنسعى للّقاء خارجاً، سأسافر إليك في أي مكان تختارينه، لنكن عاقلين فلا نتصرّف تصرّفاً أهوج.

إعترضت كاترين: هذا كلام سمعته كثيراً، وأنت لا تفعل شيئاً، ألِى

هذا الحد تخاف من البعبع الوحش الذي إسمه مصطفى بيك؟ غريب أمرك. أكرّر. لا حياة لي من دونك. هل تسمع ما أقول؟. لا حياة لي من دونك. أفضّل الموت على أن أعيش وأنت بعيد. كرهت كلّ شيء، ولولاك لما استمرّيت. فإذا كنت مصراً على عدم الذهاب معي. ستندم. أنا لا أمزح. تعرف بقرارة نفسك أنني لا أمزح. . . ثمّ اقتربت من أذن السائق: إمش أرجوك. خذني إلى هناك.

أسرعت السيارة نحو المبنى، ثمّ توقّفت قرب الباب. قالت لنبيل: إنزل. ترجّل، ولحقت به، والمقصّ ناحية القلب تحت ثديها تماماً، حيث بقعة الدم ما زالت ندية. مشت إلى جانبه وهي تهمس: تقدّم. . لا تخف. وفجأة ظهر أمامها الوحش، مصطفى بيك النمر. كأنّه كان على علم، فانتظرهما، رمق نبيل بقسوة، فارتسمت على وجهه حيرة بلهاء. إنتبه مصطفى بيك إلى المقص، لم يهتم بل صاح بنبيل: رح. . رح بعيداً. ظلّ نبيل واقفاً. ألم تسمع. .؟ قال مصطفى بيك، فردّ نبيل: أرجوك. . أعطنا فرصة لنتحدّث. . لا فرصة ولا حديث. . أترك حسناء واذهب. صاحت حسناء: أيّها الظالم. . ألم يكفك ما تعذّبنا فيه. . ما أقسى قلبك. . لن أدعك تأخذه مني. . هل سمعت؟. إنني أحبّه. . أعاهدك بالتوبة إلى الأبد إن تركته لي. شعر نبيل نفسه في هذه اللحظة، كأنه كرة مطاطية بين قدمي حسناء ومصطفى النمر. هو يقول له إذهب، وهي تقول له إبق.

خطت كاترين نحو الداخل ممسكة بيد نبيل. تظاهر مصطفى بيك بالخضوع، قال لهما تفضلا. . وحسابي معكما بعد ذلك. تقدّمت حسناء بحذر شديد وقبضتها على ساعد نبيل. وبسرعة مذهلة إرتمى عليها مصطفى بيك لانتزاع المقص من يدها، لم تمكّنه من ذلك. إذ غرزت المقص بقوّة في صدرها، ولم يصدر عنها سوى آهة ضعيفة ثمّ تهاوت. عقدت الدهشة لسان نبيل ومصطفى. خرج بضعة رجال من المخفر. توقّف رجل على وشك الخروج. لم يع نبيل ما حصل للوهلة الأولى. . تصوّر أنّ حسناء

ستنهض. كان ينظر نحوها مبهوتاً. أمّا مصطفى بيك، فقد انحنى قليلاً نحو حسناء، جسّ عنقها. ثمّ صدرها. فنبض يدها. وقف. والتفت إلى أحد الشرطيين. وقال له: إستدع الإسعاف.. وقل لهم جثّة إمرأة انتحرت. أدرك نبيل أنّ حسناء ماتت، إرتمى على جثّتها وراح يجهش ببكاء مجروح وهو يردّد: لماذا فعلت ذلك.. لماذا؟

إقترب مصطفى النمر من نبيل وأمسكه من كتفه: إنهض. إنهض.. ثمّ سحبه بعيداً قائلاً لرجلي الشرطة اللذين شاهدا الحادث: أعدا تقريركما.. المرأة انتحرت من تلقاء نفسها.. لا تضعوا إسم نبيل في التقرير.. هل فهمتم؟

إبتعد مصطفى النمر بنبيل الذي لم يعد يتمالك نفسه، كان يبكي ويردّد: حسناء.. كاترين.. حسناء.. كاترين. ثمّ أفلت نفسه من يد مصطفى بيك محاولاً الرجوع. أسرع الرجل وأمسك به: لا تتحامق.. أحمد الله أنّ هذه المسألة انتهت إلى الأبد.. إذا عدت ستدخل في متاهات المحاكم والمتاعب. أحمد ربّك أنني كنت موجوداً لأبعدك عن كلّ هذه المتاعب. هيا.. إذهب إلى بيتك.. خف على أبيك وعائلتك من الفضائح. ضع عقلك برأسك.. إمشِ معي.. إمشِ.

في هذه اللحظة، ومصطفى النمر يدفعه بعيداً، شعر نبيل بوطأة الذنب الذي ارتكبه بحقّ هذه المرأة، أدرك أن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه.. ها هو يترك في مهب الريح روحاً هائمة وجثّة ستفنى دون أن تأخذ حقّها من الحياة.

قال مصطفى النمر: الموت أرحم لها.. صحيح، الموت أرحم لها، هي صامتة الآن إلى الأبد، أما هو فسيظلّ مرهوناً لأزمة ضمير قاسية لن تنفك عنه العمر كلّه. أدرك نبيل، وهو يخطو وئيداً، ككلب يقوده صاحبه، أنّ أيامه القادمات ستكون قاسية ورهيبة. شعر وكأنّ شيئاً غالياً انقطع من جسده، يده أو عينه أو قلبه، بل قلبه الذي احتوى حباً عظيماً، قاتلته الظروف والأقدار، وها هو الآن يتيم، بعد أن رحلت صاحبته بهذه الطريقة

الدراماتيكيّة. من سيلمّها من الطريق؟ إلتفت إلى مصطفى النمر: . . إسمح لي فقط أن أهتمّ بموتها بعد أن منعتني من الإهتمام بحياتها. قال مصطفى النمر: دعك من ذلك الآن، إذهب وارتح في بيتك، أترك هذه الأمور لي. سأتّصل بك عندما تنتهي التحقيقات، ونجد وسيلة لدفنها بصورة لائقة.

كانت جنازة حسناء بسيطة، لم يكن خلف نعشها إلاّ مصطفى النمر وأسامة ونبيل والرسام الذي رسم لوحتها. . ودفنت إلى جانب قبر صاحبة وردة النرجس، مها، طفلة نبيل المشعّة في حياته ذات يوم، تساءل نبيل والتراب ينهال برفش حفّار القبور، قليلاً قليلاً: «من سيمنعني من زيارتك بعد اليوم. ها أنت مع أوّل حب وآخر حب، ها أنتما تتعانقان في قبرين متجاورين، براءة الطفولة، وجحيم الحياة».

إبتعد الجميع عن القبر إلاّ نبيل، تركوه وحده يداري أحزانه. إستند إلى شجرة الصفصاف الخضراء التي تظلّل دائرة كبيرة تحتها وراح يتأمّل هذا السكون العميق الذي يملأ المقبرة الشاسعة: «الآن سأهتمّ بك دون خوف، سأهتمّ بكلّ ما يحيط بك دون حذر، سأعيش حراً بك ما حييت».

تحرّر نبيل من كلّ شعور أسير، إنّه يحبّها بحريّة، وهي له الآن دون كلّ الناس، له وحده زوجة ولها وحدها زوجاً: «لن أقرب إمرأة بعد اليوم أبداً». ردّد هذه الكلمات مراراً. . ثمّ انحنى على القبر الرطب وأخذ قبضة تراب وضعها داخل منديله الأبيض، وانسحب من المقبرة. وكأنّه سمع صوتها: «لا تتخلَّ عني يا نبيل» عاد فزعاً. ثمّ جلس القرفصاء بجوار القبر منصتاً برهافة، كأنّه يسمع دقّات قلبها، كأنّه يراها ماثلة بجمالها الرائع أمام عينيه، فجأة شعر بحاجة إلى البكاء، ترك نفسه على سجيّته، فراح يبكي كالطفل، بصوت جارح: «يا إلهي. . كم ظلمت هذه المرأة. أنا قتلتها بحبي وخوفي، أنا القاتل، يجب أن أعترف. أنا القاتل. أنا الذي طعن هذا

القلب النبيل، وأنا الذي يجب أن يحاكم بجريمة القتل. من يحاكمني. .
أريد أن أدفع ثمن غبائي، ثمن لا مبالاتي، ثمن هذا الذنب الذي لا يغتفر
ابداً ».

ـ ألا تكفّ عن هذا الحزن يا نبيل؟. قال له أسامة وهو يكحّ بسعال شديد.

ـ لن أستطيع، إنّها لا تفارقني لا ليلاً ولا نهاراً. ظلّها يلازمني حيث أمشي وأقف. لم أعد أستطيع إدارة المحل. عفتُ الدنيا. لم أعد أرغب في شيء، والله يا أسامة.

ـ يا أخي.. ما حصل هو حلّ حاسم.. أنظر، عندما يتدخّل القدر ويحسم الأمور بالموت. موتها أنقذك.. وأمامك الآن الحياة بطولها وعرضها.. وما فعلته، كانت ستفعله إن كنت معها أو لم تكن. كانت شجاعة فعلاً، أدركت أنّ حياتها ستكون أسوأ.. فاتخذت هذا القرار الشجاع. حسناً فعلت.. والله حسناً فعلت.

ـ وأنا.. ماذا سأفعل.. أحببتها. لن أستطيع الحياة بدونها، سيُوجعني فراقها، إنّها حبي الوحيد..

ـ كل هذا الكلام فضفاض. لأنّ الجرح طازج تقول هذا الكلام..

ـ لا.. لا.. أبداً.. ستثبت لك الأيام أنني لن أقرب إمرأة بعد اليوم.

ـ وأنا أقول لك عكس ذلك. الجرح سيندمل.. لقد أعطانا الله نعمة من نعمه هي سرّ الحياة يا رجل.. إنّها نعمة النسيان.. سوف تنسَ.. وستدخل حياتك إمرأة جديدة تنسيك كلّ ما حصل.

- لا يبدو أنّ هذا سيحصل . . أنظر يا أسامة، وأنا فتى صغير أحببت مها، كانت سحراً، وكانت حلماً، تراكم حلماً بعد حلم، إختطفها الموت مني فجأة، وها هي حسناء تذهب إلى الموت بطريقة أخرى. لا . يبدو أنني فأل سيء على كلّ إمرأة أعرفها .

- بعد أشهر عديدة، لا يبقى من الحكاية إلا الظلال وبقية من شجون . أمّا أنا فقد اتخذت قراري بالإبتعاد كلياً عن شهيرة، وعن الروبير . نزوة مراهقة وشباب، وآن لنا أن نخرج من هذا المستنقع . لقد اتخذت قراراً جديداً سيغيّر حياتي كلّها .

- ما هو . . ؟

- سأنتسب إلى الجامعة . . ما زلنا شباناً . . وما زال لدينا الوقت الكثير، فكّر مثلي . . إتخذ قراراً مماثلاً ستنجو فيه من أحزانك وتغرق في العلم من جديد .

- إذا كان عليّ إتخاذ مثل هذا القرار، فليكن الأزهر أو كليّة الشريعة . . لم أجد إنساناً مطمئناً لدنياه وآخرته مثل الشيخ أمين . . فلماذا لا أصبح مثله؟

ضحك أسامة حتى كاد ينقلب على قفاه :

- العما بقلبك . . من المبغى إلى الجامع دفعة واحدة . . خطوة خطوة يا رجل . . فكّر قبل ذلك، ثمّ اتخذ قرارك وليكن ما يكون .

- أظنّ أنّ أبي سيكون سعيداً بذلك، سيحرّرني من محلّه . لقد لاحظ أنني لم أعد أهتم بالمحل ولا بالتجارة . عزلتني حسناء عن العالم والله يا أسامة . قال لي أبي لقد ظلمتك . . لا أريد لك أن تدفن حياتك في المحل من الصباح إلى المساء . أريد لك مصيراً آخر . محامياً . طبيباً . مهندساً . المهم أن تكون غير ما أنت عليه الآن . هكذا دائماً يحدّثني . وإذ خطر لك هذا القرار يا أسامة ليكن قراري أيضاً . . كنّا معاً في الإبتدائي والثانوي . ولنكن معاً في التحصيل الجامعي .

ـ أنا أيضاً طموحي أن أصبح مثل أبي أستاذاً جامعياً. لقد درس الحقوق، ثمّ سافر إلى «السوربون». وعاد أستاذاً قد الدنيا. وهو الآن على وشك أن يعيّن سفيراً. وهذا ما أتمنّاه أيضاً. . ولكن. . دعك من الشريعة يا رجل.

ـ الشريعة أجمل هدف. ألا ترى كيف يعامل الناس الشيخ أمين؟ يحترمونه ويجلّونه، ويخوض في علوم الدين الواسعة حتى بتنا نجد عنده لكلّ سؤال جواباً. هذا ما أتمنّاه يا صديقي، فلنبدأ معاً.

لم يغمض جفن لأبي نبيل قبل أن يعرف مكان عاصم زوج لمياء، إنّه يريده بأيّ شكل. ودائماً عند مصطفى بيك الخبر اليقين، إذ لم يكن صعباً على ضابط أمن أن يعرف، لقد استحصل عاصم على جواز سفر. وأخذ سمة دخول إلى بلد أفريقي، فيقول له أبو نبيل: إذا عرفنا مكانه بالضبط سأقيم عليه دعوى قضائية لارتكابه جرم قتل جنين. إلا إنّ مصطفى النمريحاول أن يصرف أبو نبيل عن إقامة مثل هذه الدعوى لأنّها ستتعبه دون طائل، وعاصم ليس موجوداً في البلد.. وإذا استقرّ في بلد ليس هناك معه معاهدات جنائية: فكأنّك تحرث في البحر.. أمّا إذا كنت تريد أن تعرف مكانه كي تذهب إليه وتقتله فلن أسمح لك أن تقضي بقية عمرك في السجن، من أجل قتل إنسان خسيس وحقير مثل عاصم. أتركه يعاني أزمة ضميره، وليس هروبه إلا دليلاً على ذلك. لست في موضع تحليل ما حصل، ولكن عندما يتدخّل القدر لتنفيذ ما هو مكتوب. نعمى عن الحقائق، ونرتكب الأخطاء دون وعي منّا. ثمّ نكتشف فداحة ما ارتكبنا. إذا أردت الحقيقة يا أبو نبيل، فأنا أشفق الآن على عاصم، هذا الذي لم يعد له وجه يواجه به الناس بعد هذه الفضيحة القذرة، حتى أهله، حتى إخوته تبرأوا منه، قال لي أحد أشقائه: عاصم بلّوعة مجاري العائلة. لقد أساء لنا كثيراً بهذا العار الذي حمله منذ كان فتياً، وظننّا أن الله سيهديه بالزواج،

ويبتعد عن سوء ما فعل. من كان يظن، وقد أصبح شاباً، أن يفعل هذه الفعلة الشنيعة، بحقّ نفسه وبحقّنا. لو أعرف أنا مكانه، لوفّرت عليكم جميعاً الإقتصاص منه، إنّ ما نابنا من هذا الفعل، يفوق عندنا كلّ مصيبة، تكفي تلك النظرات التي يواجهنا بها الجيران والمعارف، حتى بتنا، أسرته كلّها، نتمنّى طمر أنفسنا تحت التراب، من هذا العار الذي جرّه علينا ذلك السافل الوسخ. أنا أشفق كثيراً على بنت الحلال لمياء، التي تصوّرت أنّها تنقذه من ماضيه الذي لا يُشرّف بالزواج، فكان أوّل من طعنها هي. وأين؟ في البيت، والجنين إبنه في بطن أمّه.. أتصدّق يا أخ مصطفى؟ لقد فرحت بسقوط الجنين، ماذا لو عاش هذا الجنين ووعى الدنيا وعرف حقيقة أبيه؟. ماذا سيقول له الناس ويقول لهم. إنّه سيعيش حياة تعسة، حزينة، محبطة، عندما يدرك أنّه إبن عاصم.. ما أقسى هذه السمعة. إنّ تدخّل القدر كان في محلّه، قتل الجنين ودفع عاصم إلى الهرب، فالله أعلم بعباده. المهم أن تبرأ زوجته المسكينة من هذه الصدمة، ونتمنى أن يعوّضها الله بكلّ ما تريد. بل أتمنّى شخصياً لو تقبل الزواج مني.. والله يا مصطفى بيك.. أمشي في الشوارع وأظنّ أنّ عيون الناس تلاحقني، فأخجل من نفسي. لقد نجا هو بالهروب إلى مكان مجهول، أمّا نحن، نحن، أسرته، بتنا نحمل هذا العار عنه. كان علينا جميعاً أن نتّخذ قراراً بالهرب إلى مكان مجهول مثله، لا يعرفنا فيه أحد. نحن أسرة محترمة يا سيدي، ولولا عاصم، لولا أفعاله، لكنّا جميعاً سعداء. أعطانا الله كل ما نريد. وعرضنا عليه كلّ ما يريد إذا توقّف عن الإساءة إلى نفسه وإلينا، فكان يتهرّب. عاقبناه بالمقاطعة جميعاً لعلّه يرتدع. وظننّا بزواجه خلاصاً من ماضيه، قرّرنا أن نترك له فرصته ثمّ نمدّه بالعون كي يعيش حياة كريمة، ولكن.. يا للأسف، الذي حصل بعد ذلك، كان هو النهاية: خذلان إمرأة وقتل جنين وعار أسرة.. فبئس ما فعل.

بدا هذا الكلام مقنعاً لأبو نبيل، مصطفى النمر دارس حقوق قبل أن يصبح ضابطاً بالأمن، وحديثه هذا كان برداً وسلاماً على نفسه، لكنّه

ردّ قائلاً: أرجو من الله أن يمدّ بعمري، وأن التقي به، حتى أشفي غليلي منه.

سأل مصطفى بيك صديقه عن أخبار نبيل فقال له:

ـ لا أدري ماذا حصل في تفكيره.. إنّه يريد الإنتساب إلى الأزهر في مصر.

لم يعلّق الرجل على هذا الكلام، الذي وجده طبيعياً، بعد ما مرّ بنبيل من أحداث وأهوال، ثمّ قال له:

ـ نعم الإختيار والله يا رجل.. والحمد للّه أنّه لم يعد يلتقي بأسامة، لأنّ هذا الشاب لم يرتدع هو الآخر عن رزالته.

إستغرب أبو نبيل هذا الكلام: ماذا تقول يا رجل.. هذا صديق إبني، ولم أرَ منه إلاّ الخير.

لم يشأ مصطفى بيك أن يفصح ما يعرفه عن الإثنين، فاكتفى بالصمت، ذلك أنّ أسامة لم يسع للإنتساب إلى الجامعة.. بل غرق في حياة الليل، في الخمّارات، والكباريهات، وصار يتاجر بشبابه الجميل، وأوقع في حبّه أكثر من إمرأة، إبتعد كلياً عن نبيل، وكان نبيل يتلقّى أخباره نتفاً من هنا وهناك، فيتوقّع له أسوأ مصير. لم يعد نبيل يفارق حلقات الشيخ أمين بين المغرب والعشاء، بل كاد ينسى أنّ له صديقاً إسمه أسامة، فبين المحل ودروس الشيخ باتت حياته على وتيرة واحدة وهو يستعدّ للإنتساب إلى الأزهر.

لم تمض شهور، حتى التقى مصطفى بيك في زيارة لأبيه، فالتفت نحوه وقال له: هل ما زلت تلتقي بأسامة؟

ـ لا والله.. من زمن لم أره.. هل حدث له شيء؟

تأمّل مصطفى النمر نبيل طويلاً، ثمّ قال له:

ـ هل تحنّ إلى صداقتك معه؟

ـ إنّه صديق الطفولة، وعشنا معاً شبابنا. . وسقطنا معاً. . وتلوّثنا معاً. . والحمد لله ها أنا قد تطهّرت من ذنوبي. . وأرجو له أن يفعل مثلي.

صمت مصطفى النمر لحظات، ثمّ حاول الحديث مع أبو نبيل متجاهلاً نبيل، فقاطعه:

ـ كأنّك تعرف شيئاً ولا تريد أن تقوله؟ أليس كذلك يا مصطفى بيك؟

حدّق مصطفى في وجه نبيل متردّداً من أن يقول شيئاً. . إلاّ أنّ نبيل ألحّ مرّة ثانية:

ـ أرجوك. . مصطفى بيك.

ـ إنّه خبر سيفجعك. . لهذا أنا متردّد.

حملق نبيل في وجه الرجل وتساءل بألم:

ـ خبر يفجعني؟! هل هو في السجن. . هل ارتكب جريمة؟ هل عاد يتردّد على. . . (ثمّ غمز بعينه)

قاطعه الرجل:

ـ ليس هذا أبداً. . لا. . ليس كل ما ذكرت.

ـ ستقول لي أنّه مات في حادث.

ـ لا. . وليس هذا.

ـ ماذا. . إذاً. . أرجوك.

ـ إنّه يموت بسرطان الرئة. . إمّا تلحق به أو لا تلحق.

ـ سرطان. . سرطان. هذا الشاب المعتز بشبابه وقوّته يهزمه السرطان؟!

تابع مصطفى النمر:

ـ إنّه العقاب يا نبيل. . لقد عاش حياة ساقطة منذ الطفولة. . وها هو الآن يلقى العقاب الإلهي. إنّه يتعذّب منذ أكثر من شهر. . إذهب إليه في مستشفى المواساة. لن تعرفه. . لن ترى فيه إلا جلدة وعظمة. . سبحانك اللهم.

صمت نبيل عن كل سؤال، أحسّ بحاجته إلى البكاء. وأكثر ما آلمه، أن يبدو مصطفى بيك شامتاً. وهو في الحقيقة شيطان وإبليس، يقول سبحانك اللهم، وهو الذي ما كان يعرف الله، عندما يشدّ قبضته على أولئك النساء المسكينات، اللواتي شاء قدرهنّ التعس أن يسقطن في ذلك المستنقع.. وأسامة المسكين يموت بالسرطان الآن.. يا إلهي! أهكذا تنتهي حياة أسامة.. هكذا..؟

إستأذن نبيل أباه، فقال له مصطفى بيك: لا تذهب.. دعك من رؤيته. فاعترض أبو نبيل: دعه يا مصطفى.. ليذهب إليه.. إنّه صديقه.. دعه يلقي عليه النظرة الأخيرة. فلكلّ منّا أخطاؤه، لا تعرف أنت، ولا أنا، ولا أيّ إنسان إن كان سيحمل كتابه بيمينه أو بيساره.. إذهب يا نبيل.. إذهب.. وليساعده الله ويخفّف عذابه.

أوقف نبيل سيّارة أجرة، وأسرع إلى مستشفى المواساة، كان قلبه يدلّه قبل أن يسأل أحداً عن جناح الأمراض الخطيرة، وهناك، كانت المفاجأة التي لم يتوقّعها أبداً. رأى زين العابدين خارجاً من غرفة أسامة باكياً، يحاول أن يكفكف دموعه التي بلّلت شاربيه ولحيته الكثة، كان يحاول أن يخنق بكاءه.. عندما صادف نبيل، قال له متحشرج الصوت: أسامة يموت يا نبيل.. لم يعطه الطبيب الآن سوى أسبوع.. ما أشدّ عذابي. سوف أفقد فيه أحبّ إنسان إلى قلبي.

ـ ألا تعود معي يا زين؟

ـ سأعود.. لي من الصباح الباكر هنا.. سأعود.. إذهب أنت واجلس قربه. سيفرح بك.. سألني مراراً عنك.. وكلّما تذكّرك يردّد: ما أجمل الذهاب إلى الله.. نجا نبيل.. أمّا أنا فلم يعد لي من وقت.. لقد داهمني هذا المرض اللعين الذي لا يقاوم.. إذهب إليه يا أخي.. إذهب.

«دخلت على أسامة، فوجدت أمّه باكية مشدوهة. كان مستلقياً على سريره كالشبح.. لا.. ليس هذا أسامة. لا شكّ أنني مخطىء في

الغرفة . . ربّما في الغرفة المقابلة، أو التالية. هذا الذي أمامي ليس أسامة أبداً . . أين شعره الذهبي الذي كان يعتني به؟ . بل أين حاجباه الكثيفان؟ أين عيناه الزرقاوان الواسعتان . . إنّهما الآن حفرتان صغيرتان في جمجمة، لا ملامح فيهما إلاّ الموت».

بالكاد، سمع نبيل صوت أسامة:

ـ أهلاً نبيل . . ألا تسأل عني . . لي شهر وأنا أموت. أنت صديق العمر ولا تسأل عني؟

إنحنى نبيل وقبّل جبين أسامة:

ـ لم أكن أعرف . . لم أكن أعرف . . يا الله . . من أين جاءك هذا المرض يا أسامة؟

همس أسامة بصعوبة:

ـ الحياة غدّارة يا نبيل . . لا تعرف من أين تجيء الطلقة . . كلّنا معرّضون. حماك الله من كلّ مكروه.

كان أسامة يتكلّم وهو شبه مخدّر. صوته يظهر، ثمّ يغيب. فقالت الأمّ هامسة: قبل مجيئك بساعة أعطوه الحقنة . . سينام. كاد أسامة يغمض عينيه، فيحدّق نبيل في صدره، يتأكّد إذا كان يتنفّس أم لا. تدخل ممرّضة تجسّ نبضه، تلتفت نحو الأم ثمّ نحو نبيل: اتركوه يرتاح. إلا إنّ أسامة سرعان ما يفتح عينيه بضعف: إجلس بالقرب مني يا نبيل. يقترب نبيل ويمسك بيده. إنّها باردة كالصقيع. أصابعه نحيلة جداً. يفركها نبيل براحتيه. لا فائدة يا نبيل . . خلص . . إنتهيت. هل تعلم أنّ زين العابدين لم يفارقني منذ داهمني المرض اللعين؟ لا أدري كيف عرف. لم أرَ وفاء أجمل من هذا الوفاء. سامحني يا نبيل. كم ظلمناه. لقد أعطاني مثلاً عن أنبل حب بين إنسان وإنسان. أعطاني من دمه عندما احتجت إلى الدم . . تصوّر . . يا نبيل . . دمنا من نفس الفئة. كان من الصعب الحصول على دم

مماثل . . إنني أرتاح الآن . وأنا أعترف لك يا نبيل ، خذ بيده ، إنّه رجل طيّب . . لم يكن منه إلا الخير . . لم يكن منه إلاّ الخير .

صمت أسامة ، عندما لاح في الباب زين العابدين الذي قال معاتباً نبيل :

ـ سامحك الله يا رجل . . هذا رفيق العمر ولم تدر ما حلّ به؟

تلكأ نبيل في الكلام . لا يجد سبباً لغيابه كلّ هذا الوقت . أم إنّ قراره بالذهاب إلى كلية الأزهر هو الذي أبعده عن حياة أسامة البوهيمية؟ حياة كان يغرف منها دون حساب ، غير منتبه إلى صحّته ، صحّته التي بدأت بالإنهيار منذ كان يتردّد على شهيرة . ها هو يدفع الثمن غالياً . حياته كلّها ، وهو لم يصل إلى الثلاثين بعد ، إختصرها إختصاراً شديداً . عاشها بالطول والعرض ، وما شبع منها .

يشعر نبيل الآن ، بأنّ أسامة يشدّ بيده الواهنة على يده ، فينظر نحوه . يسمعه هامساً : إذا كان لا بدّ من الموت . فلماذا بهذا المرض اللعين بالذات ؛ لم أعد أحتمل الألم . ألم هدّني كما يهدّ الزلزال الجبال . لا أدري ماذا أقول الآن . إنّه القدر يرسم مصائرنا بدقّة ، تذكّرني في صلواتك يا نبيل ، لعلّ الله يغفر لي .

أغمض أسامة عينيه ، ثمّ انفكّت أصابع يده عن يد نبيل ، فامتلك الرعب قلبه ، حدّق نحوه بعينين مذهولتين : «يا رب . . لا تمته أرجوك . . لا تمته . لا تمته» . ثمّ انتبه إلى أم أسامة وزين العابدين ينظران نحو الجسد المسجى بعيون خائفة . . لم يتجرأ أحد منهم جسّ نبض الرجل المستسلم لمصيره . ثمّ تلاقت نظراتهم معاً ، نظرات حائرة ، كأنّ كلّ واحد يسأل الآخر ماذا يفعل . أسرعت الأم وكبست زرّ الجرس ، جاءت ممرّضة على عجل . رأت الحيرة في الوجوه . ثمّ نظرت نحو أسامة ، إقتربت منه . جسّت نبضه . قالت : دعوه يرتاح .

خرج الجميع من الغرفة إلى صالة قريبة ، جلسوا صامتين . كان نبيل ينظر خفيةً إلى وجه الأم الحزين . ثمّ إلى وجه زين العابدين . كان وجه زين يعبّر

عن قلق موجع. . طقطقة سبحته تنقل عمّا يدور في داخله. مضت ساعة أو أكثر. احتار نبيل ماذا يفعل؟ هل يبقى. . أم يذهب؟ ماذا يفيد بقاؤه. قال مخاطباً زين: هل نذهب؟ أجابه الرجل بهدوء: إذهب أنت. . أمّا أنا فسأبقى مع أم أسامة. تكلّمت الأمّ لأوّل مرّة: هل تعلم يا نبيل أنني لم أخبر أباه حتى الآن؟ فتذكّر نبيل أنّ والد أسامة قد عُيّن مؤخّراً سفيراً في كندا. فقال لها: قد يلومك. . خصوصاً وأنّ أسامة لا أمل منه. قالت: الحق معك. . فوجئت والله يا إبني. تصوّر! كل هذا جرى بسرعة قياسية، سعال. . بعد سعال. . ويتناول الأدوية المهدّئة. . لكنّ الطبيب أخيراً أعلن الخبر الفاجع. قال: لقد استشرى المرض في الجسم كلّه. . سامحكم الله. . لماذا لم تنتبهوا إليه قبل فوات الأوان؟

نظر نبيل نحو زين نظرة عتاب: لماذا لم تخبرني؟

همس زين وهو مطرق: لم أكن أريدك أن تراه بهذه الحالة، كنت أتمنّى أن يصحو، ويستعيد شيئاً من صحّته وأخبرك. . لكن، كما ترى كلّ شيء ينهار.

وقف نبيل، إقترب من السيّدة مقبّلاً يدها. ثمّ عانق زين العابدين وانسحب بطيء الخطوات، كأنّه في كابوس مرعب، كيف تنتهي الأشياء هذه النهاية المفجعة؟!

لم يعرف نبيل في أي اتجاه مشى. كانت المسافة بين المستشفى والبيت كبيرة جداً. لم يأبه. لم يفكّر بإيقاف سيارة أجرة. ضجّت الذكريات في رأسه كأنّه يراها الآن. تذكّر مرحلة الدراسة الإبتدائية والثانوية، تذكّر أنّ عند كلّ محطّة من محطات عمره، مأساة، تذكّر الروبير، وحسناء، ومقصّها القاتل، تذكّر لمياء بخيبة أملها التي لم تصح منها. مهلوسة كارهة كل الرجال، رجال ما لهم أمان. كلاب مسعورة، تنهش ضحاياها بوحشية، لمياء التي باتت لا تدع أحداً يلامس يدها، لا خالها وإبن خالها. لا أبوها، ولا أخوها. منذ لحظة مصيبتها وهي منهارة، يعالجونها

بالمسكّنات. بلغت ذروة انهيارها عندما ابتلعت مجموعة من الأقراص المنوّمة، واضعة حداً لحياتها. لكنّ القدر يتدخّل في الوقت الذي لا حاجة له للتدخّل فيه، فقد أرسل لها سميرة، أختها اللدود التي كانت أثناء شجاراتها تتمنّى لها الموت، فأنقذتها. أسرعت بمساعدة خالها في نقلها إلى المستشفى، حيث أجريت لها الإسعافات اللازمة وأُنقذت. منذ ذلك الحين لم تعدسميرة تتركها. ولمياء لم تعد لمياء.

ويتذكّر نبيل عندما قال لأبيه: إنّه القدر. بتّ أؤمن إيماناً عظيماً بالقدر.. أقدارنا ليست بأيدينا يا أبي.

وعندما دخل نبيل البيت مطرقاً، تتنازعه هواجس وأحزان لا حدود لها، لم ينتبه لأبيه الجالس في صدر الايوان يسبّح بسبحته صامتاً هادئاً ساكناً سكون الليل. كان نبيل سيتّجه إلى غرفته عندما ناداه الأب: نبيل.. يا ابني نبيل.

إستدار نبيل، ثمّ تقدّم نحو أبيه بخطوات بطيئة حتى إذا صار قبالته أجهش بالبكاء فجأة، وقف الأب وضمّ إبنه إلى صدره.. ثمّ أخذه إلى «القاطع» وجلسا معاً. ترك أبو نبيل إبنه حتى يهدأ، وبعد أن استعاد نبيل نفسه، إلتفت إلى أبيه:

ـ ستسألني عن أسامة يا أبي.

ـ أسألك الآن.. فعلاً.. قل لي.

ـ لو رأيته يا أبي لبكيت عليه.. شاب مثل الوردة، ينقصف كالغصن اليابس في أقلّ من شهر. يسقط لحمه عن عظمه في أقلّ من شهر. لم أعرفه عندما ذهبت إليه. هو الآن يموت.. كم أنا نادم لأنني لم أسأل عنه كلّ هذا الزمن.. إنشغلت بنفسي حتى كدت أنساه. صديق العمر. أخي. أخي حقيقة يا أبي. كان أقرب الناس إليّ، كنت أظنّ أنّ الله حرمني من الأخ. فكان الأخ، وكان الصديق.. وكان الحبيب. آه يا أبي.. إن عاش اليوم لن يعيش غداً.

ربت أبو نبيل على ظهر إبنه وردّد كلماته الأثيرة:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.. حسبيَ الله نعم الوكيل. تقول إنّها أقدارنا يا بني.. لماذا لمياء بالذات.. لماذا أسامة أيضاً؟ هل يعاقبنا الله بهما. هل القدر يعاقبنا بأحبّائنا.. هم الأبرياء ونحن الخطاة.

يقاطعه نبيل:

ـ لا تكفر يا أبي.. لا تكفر.. كلّ شيء مقدّر.. كلّ شيء مكتوب سلفاً على لوح أقدارنا.

***

مات أسامة في اليوم التالي لزيارة نبيل إليه، نقل له الخبر زين العابدين باكياً بحرقة: مات أسامة يا نبيل.. آخر كلماته سلامه إليك.. آخر كلماته أن يغفر له الجميع. ذكر على لسانه إسم امرأة لا نعرفها لا أنا ولا أمّه. ذكر إسم شهيرة مراراً.. وهو يهجس: سامحيني يا شهيرة.. ذكر إسمك مراراً.. ذكر خلال هذيانه أسماء لم نعرف أصحابها. حسناء. كاترين. مصطفى.. ثمّ أنت.. وعندما صمت نهائياً كانت آخر كلمة تلفّظ بها ببطء: سامحوني.

مات أسامة، أحسّ نبيل أنّ شيئاً عزيزاً على قلبه قد مات، وعندما شيّعوه إلى مثواه الأخير هو وزين العابدين وجمهرة من رفاق الحي. حملوا معاً نعشه الذي كان خفيفاً، كأنّه معبّأ بالهواء. كاد النعش يطير من بين الأيدي وهم يسرعون به إلى المقبرة. تعمّد نبيل أن يكون قبره مجاوراً لقبرين عزيزين على قلبه. قبر مها صاحبة النرجس. وقبر حسناء. ثلاثة قبور متلاصقة " «الموت باب كلّ منّا عابره»، هذه العبارة مكتوبة على باب المقبرة الرئيسي. يا لصدق هذه الكلمة. يا لصدق عمر بن الخطّاب. الموت حق. باب عبرت منه الملايين الملايين وسنعبر منه آجلاً أو عاجلاً.. هل سينسى؟ هل العلوم الدينيّة ستمسح عن صدر نبيل كلّ هذا العبء الثقيل؟

لقد شعر، والتراب يهال على أسامة الضامر في قلب كفنه. كأنّ كلّ الذين أحبّهم تخلّوا عنه. كلّهم تركوه قبل أن يصل المحطة الأخيرة.

في مطار المزة، وقبل أن يصعد الطائرة، لمح أمّه تبكي، إقترب منها مجدّداً وعانقها «يا حبيبي» ردّدت الكلمة مرّات عدّة. كان أبو نبيل يقف شامخاً فخوراً بابنه. صاح بزوجته: لماذا البكاء؟ سيعود إبنك عالماً من علماء الدين وتبكين؟..

قالت الأمّ بصوت ضعيف: إنّها دموع الفرح يا إبن عمّي. ثمّ التفتت نحو إبنها وغمرته من جديد في صدرها. وتذكّر القبلة الهوائية. كاد يسألها همساً، لولا أنّه خجل من نفسه. وقرّر أن يسأل وردة النرجس، لا بدّ أن يكون عندها خبر لهذا السرّ الدفين.. قالت له كلّ الأسرار.. وهذا السرّ الوحيد الذي يريد أن يعرفه.

وفيما كانت الطائرة تقلع به نحو القاهرة، فتح محفظته وأخرج ديوان الشعر، حيث وردة النرجس بين السطور، كان سيسألها هذه المرّة بإلحاح عن سرّ تلك القبلة القديمة التي أرسلتها أمّه في الهواء، لكنّ نبيل فوجىء بأنّ الوردة قد اختفت تماماً من بين صفحات ذلك الكتاب.

تمّت

كتبت بين أعوام ٩٦و٩٧ و٩٨

بيروت

للكاتب

القصص:

- الحزن في كلّ مكان ط١ دار الثقافة - دمشق - ١٩٦٠
  ط٢ دار الطليعة - بيروت - ١٩٨٠
- العالم يغرق ط١ دار إبن زيدون - دمشق - ١٩٦٣
  ط٢ دار النهار - بيروت - ١٩٧٩
- العصافير ط١ الأهليّة للنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٧٤
  ط٢ دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٧
  ط٣ دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٩
  ط٤ دار الخيال - بيروت - ١٩٩٩
- الرجال الخطرون ط١ دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٧
- نهر حنان ط١ المؤسسة العربيّة للدراسات - بيروت - ١٩٨٣
- الحصاة (مختارات) ط١ الدار العربية للكتاب - تونس : ليبيا - ١٩٩٠
- العصافير تبحث عن وطن (قصص للأطفال) دار المسيرة - بيروت - ١٩٧٩
- الورود الصغيرة (قصص للأطفال) دار المسيرة - بيروت - ١٩٨٠

الرواية:

- الممر ط١ إتّحاد الكتاب العرب - دمشق - ١٩٧٨

ط٢ المؤسسة العربيّة للدراسات - بيروت - ١٩٨٣

- مصرع ألماس ط١ الأهليّة للنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٨٠

ط ٢ الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٨٥

ط٣ الدار المصريّة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٥

ط ٤ الدار المصرية للكتاب ١٩٩٦

(تحوّلت إلى مسلسل تلفزيوني من إخراج نجدت إسماعيل أنزور)

ط ٥ دار الخيال - بيروت - ١٩٩٩

- وردة الأفق ط١ هارلكن للنشر - أثينا - ١٩٨٤

- دماء بالألوان ط١ الدار المصرية للكتاب - القاهرة - ١٩٨٦

- رأس بيروت ط١ دار المتنبي - باريس - ١٩٩٣

- إمرأة غامضة ط١ - دار سعاد الصباح - القاهرة - ١٩٩٣

- أسرار النرجس ط١ - دار الخيّال - بيروت ١٩٩٩

نصوص شعرية

- جراح - رسائل حب وبوح - ط١ كتاب الشعلة . . دمشق . . ١٩٦١
- لغة الحب ط١ - دار النهار للنشر - بيروت - ١٩٧٨

ط٢ - المؤسسة العربية للدراسات - بيروت - ١٩٨٣

- أنت الحبيبة وأنا العاشق ط١ - دار المسيرة - بيروت - ١٩٧٨

ط٢ - دار الخيال - بيروت - ١٩٩٦

- كلّ لقاء بك وداع ط١ - دار الفاضل - دمشق - ١٩٩٣
- حبّ شديد اللهجة ط١ - دار الفاضل - دمشق - ١٩٩٣
- أحبّك وبالعكس أحبّك ط١ - دار الفاضل - دمشق - ١٩٩٣

مذكّرات

رفاق سبقوا دار رياض الريّس للنشر - لندن - ١٩٩٠

تدخل هذه الرواية عالماً سرّياً يتحاشى الناس الحديث عنه . رواية جريئة بكل ماتعني هذه الكلمة من معنى . . . قد تصدم البعض ، لكننا جميعاً ندرك أننا هنا أو هناك أو أننا أبطالها في هذا الفصل أو ذاك .

« أسرار النرجس » رواية شجاعة تعري هذا المجتمع الذي يخبئ رأسه في الرمال . . بينما رائحة خطاياه تزكم المكان والزمان .

الناشر



«فرحتُ بنبأ الحصول على ناشر تجرأ بنشر هذه الرواية . جميل أن نظلّ نجد في هذا الزمان من يُقدم على نشر ما يرعبه. أتطلع حقاً إلى قراءتها ».

غادة السمان

« لولا التكتّم والسريّة لما كان هناك أدب أو فنّ إباحي ».

د. هـ. لورنس



بيروت - لبنان - تلفاكس : ٠٠٩٦١-١/٧٤٠١١٠ ص.ب ١٣/٥٢٣٥